التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة يس

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الثانى والثالث العشرون)

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩ | س ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ ـ سورة « يس » من السور التى يحفظها كثير من الناس ، لاشتهارها فيما بينهم ، وهى السورة السادسة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « الجن » .

قال القرطبى : وهى مكية بإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية . إلا أن فرقة قالت : إن قوله ـ تعالى ـ : « ونكتب ما قدموا وآثارهم . . . » نزلت فى بنى سلمة من الأنصار ، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . »[1]

٢ ـ وقد ذكروا فى فضلها كثيرا من الآثار ، إلا أن معظم هذه الآثار ، ضعفها المحققون من العلماء ، لذا نكتفى بذكر ما هو مقبول منها .

قال ابن كثير ما ملخصه : أخرج الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : من قرأ « يس » فى ليلة أصبح مغفورا له . . . » .

وأخرج ابن حبان فى صحيحه ، عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من قرأ سورة « يس » فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ، عن معقل بن يسار ، أن رسول الله

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١

ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : البقرة سنام القرآن . . . . ويس قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرءوها على موتاكم » ـ أى : فى ساعات الاحتضار وعند خروج الروح ـ .

ثم قال ابن كثير : ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة ، أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله . وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل عليه خروج الروح .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت ـ يعني يس ـ عند الميت ، خفف عنه بها[1] .

وقال الآلوسى ماملخصه : صح من حديث الإمام أحمد ، وأبى داود ، وابن ماجه ، والطبرانى ، وغيرهم عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يس قلب القرآن . . . . .

وذكر أنها تسمى المعمة ، والمدافعة ، والقاضيه ، ومعنى المعمة : التى تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة . ومعنى المدافعه التى تدفع عن صاحبها كل سوء . ومعنى القاضية : التى تقضى له كل حاجة ـ بإذن الله وفضله »[2] .

٣ — وقد افتتحت سورة « يس » بتأكيد صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه ، وبتكذيب أعدائه الذين أعرضوا عن دعوته ، وبتسليته عما أصابه منهم من أذى .

قال ـ تعالى ـ : « يس ، والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين : على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . . . . » .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٨

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٩

٤ — ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا إليهم لهدايتهم ، وكيف أهلك الله ـ تعالى ـ المكذبين لرسله . . .

قال ـ سبحانه ـ : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . . . . . . » .

٥ — ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ، ألوانا من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، ومن نعمه على عباده ، تلك النعم التي نراها في الأرض التي يعيشون عليها ، وفي الخيرات التي تخرج منها ، كما نراها في الليل والنهار . وفي الشمس وفي القمر . . . وفي غير ذلك من مظاهر نعمه التي لا تحصى :

قال ـ تعالى ـ : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . . . . » .

٦ — وبعد هذا البيان الحكيم لمظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، وفضله على عباده ، حكت السورة الكريمة جانبا من دعاوى المشركين الباطلة ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وصورت أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم مسرعين ، ليقفوا بين يدي الله ـ تعالى ـ للحساب والجزاء . . .

قال ـ تعالى ـ : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون . . .

٧ – وبعد أن تحكى السورة الكريمة ما أعده الله تعالى بفضله وكرمه لعباده المؤمنين، من جنات النعيم، ومن خير عميم ... تعود فتحكى ماسيكون عليه الكافرون من هم وغم، وكرب وبلاء، بسبب كفرهم، وتكذيبهم للحق الذى جاءهم به نبيهم – صلى الله عليه وسلم – .

قال – تعالى – : «ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان، إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون . أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ....

٨ – ثم تنزه السورة الكريمة النبى – صلى الله عليه وسلم – عما اتهمه به أعداؤه، من أنه شاعر، وتسليه عما أصابه منهم، وتبين للناس أن وظيفته – صلى الله عليه وسلم – إنما هى الإنذار والبلاغ .

قال – تعالى – : «وما علمناه الشعر وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ...

إلى أن يقول – سبحانه – : «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون وما يعلنون» .

٩ – ثم تختتم السورة الكريمة بحكاية ماقاله أحد الأشقياء منكرا للبعث والحساب، وردت عليه وعلى أمثاله برد جامع حكيم، يرشد كل عاقل إلى إمكانية البعث، وأنه حق لاشك فيه ..

قال – تعالى – : «أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد

شيئا أن يقول له كن فيكون : فسبحان الذى بيـده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

١٠ - وبعد فهذا عرض مجمل لسورة «يس» ومنه نرى ، أن هذه السورة الكريمة ، قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته كما اهتمت بإبراز الأدلة المتعددة على أن البعث حق ، وعلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ...

كما اهتمت بضرب الأمثال لبيان حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، يغلب عليه قصر الآيات ، وإيراد الشواهد المتنوعة على قدرة الله - تعالى - ، عن طريق مخلوقاته المبثوثة فى هذا الكون ، والتى من شأن المتأمل فيها بعقل سليم ، أن يهتدى إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

وصدق الله - تعالى - فى قوله : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر
صباح الخميس ٢٣ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ
١١ / ٧ / ١٩٨٥م

د . محمد سيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

التفسير

قال الله - تعالى - :

« يس (١) والقرآنِ الحكيمِ (٢) إنَّكَ لَمِنَ المرسلينَ (٣) عَلَى صراطٍ مستقيمٍ (٤) تنزيلَ العزيزِ الرحيمِ (٥) لِتُنذِرَ قوماً ما أُنذِرَ آباؤهُم فهُمْ غافلونَ (٦) لقد حَقَّ القولُ على أكثرِهِم فهُم لا يؤمنونَ (٧) إنَّا جَعَلْنَا في أعناقِهِمْ أغلالاً فهيَ إلى الأذقانِ فهُم مُقمَحُونَ (٨) وجَعَلنا من بينِ أيديهِمْ سَدًّا ومن خلفِهِمْ سدًّا فأغشيناهُمْ فهُمْ لا يُبصِرُونَ (٩) وسواءٌ عليهِمْ أأنذرْتَهُم أمْ لمْ تنذِرْهُمْ لا يؤمنونَ (١٠) إنَّما تُنذِرُ من اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخشِيَ الرحمنَ بالغيبِ فبشِّرْهُ بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ (١١) إنَّا نحنُ نحيي الموتَى ونكتبُ ما قدَّمُوا وآثارَهُمْ ، وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ (١٢) » .

قوله - تعالى - « يس » من الألفاظ التى اختلف المفسرون فى معناها ، فنهم من يرى أن هذه الكلمة اسم للسورة ، أو للقرآن ، أو للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومنهم من يرى أن معناها : يارجل ، أو يا إنسان .

ولعل أرجح الأقوال أن هذه الكلمة من الألفاظ المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبيه إلى أن هذا القرآن المؤلف من جنس الألفاظ التى ينطقون بها ، هو من عند الله - تعالى - ، وأنهم ليس فى إمكانهم أو إمكان غيرهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ...

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « يس » : الكلام فيه كالكلام فى « ألم » ونحوه من الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور ، إعرابا ومعنى عند الكثيرين.

وظاهر كلام بعضهم أن « يس » بجموعه ، اسم من أسمائه صلى الله عليه وسلم .

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة فى الواو . وقرأ آخرون بسكونها مظهرة والقراءتان سبعيتان .... »(١) .

وقوله - تعالى - : « والقرآن الحكيم » قسم منه - تعالى - بكتابه ذى الحكمة العالية . والهدايات السامية والتوجيهات السديدة ، والتشريعات القويمة ، والآداب الحميدة ...

وقوله - سبحانه - : « إنك لمن المرسلين » جواب لهذا القسم .

أى : وحق هذا القرآن الحكيم ، إنك - أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وتبليغ دعوتنا إلى الناس ، لكى يخلصوا العبادة لنا ، ولا يشركوا معنا فى ذلك غيرنا .

وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد ، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وقالوا فى شأنه : « لست مرسلا » .

قال بعض العلماء : واعلم أن الأقسام الواقعة فى القرآن ، وإن وردت فى صورة تأكيد المحلوف عليه ، إلا أن المقصود الأصلى بها تعظيم المقسم به . لما فيه من الدلالة على اتصافه - تعالى - بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من الحلف ، الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة . كأنه قال : إن من أنزل القرآن

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢١٠

ـ وهو ماهو فى عظم شأنه ـ هو الذى أرسل رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومثل ذلك يقال فى الأقسام التى فى السور الآتية . . . »[١] .

وقوله ـ تعالى ـ « على صراط مستقيم » خبر ثان لحرف « إن » فى قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : « إنك لمن المرسلين » .

أى : إنك ـ يا محمد ـ لمن أنبيائنا المرسلين ، على طريق واضح قويم ، لا أعوجاج فيه ولا اضطراب ، ولا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، بل هو فى نهاية الاعتدال والاستقامة .

قال صاحب الكشاف : قوله : « على صراط مستقيم » خبر بعد خبر ، أو صلة للمرسلين .

فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟

قلت : ليس الغرض بذكره ماذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ، وإنما الغرض وصفه ، ووصف ماجاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين فى نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت . وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة ، على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه ـ أى : فى التفخيم والتعظيم ـ »[٢] .

ثم مدح ـ سبحانه ـ كتابه بمدائح أخرى فقال : « تنزيل العزيز الرحيم » وقد قرأ بعض القراء السبعة : «تنزيل» بالنصب على المدح ، أو على المصدرية لفعل محذوف . أى : نزل الله ـ تعالى ـ القرآن تنزيل العزيز الرحيم .

---

(١) تفسير « صفوان البيان » ج ٢ ص ٢١ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤

وقرأ البعض الآخر : « تنزيل » بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أي : هذا القرآن هو تنزيل العزيز - الذي لا يغلبه غالب - ، الرحيم أي الواسع الرحمة بعباده .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » .

واللام في قوله : « لتنذر » متعلقة بفعل مضمر يدل عليه قوله : « إنك لمن المرسلين » .

والإنذار : إخبار معه تخويف في مدة تتسع للتحفظ من الخوف . فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار . وأكثر ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله - تعالى - .

والمراد بالقوم : كفار مكة الذين بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - لإنذارهم ، وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعا ، كما قال - تعالى - : « قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ... » و « ما » نافية . والمراد بآبائهم : آباؤهم الأقربون ، لأن آباءهم الأبعدون قد أرسل الله - تعالى - إليهم إسماعيل - عليه السلام - .

أي : أرسلناك - يا محمد - بهذه الرسالة من لدنا ، لتنذر قوما ، وهم قريش المعاصرون لك ، لم يسبق لهم أو لآبائهم أن جاءهم نذير منا يحذرهم من سوء عاقبة الإشراك بالله - تعالى - ، فهم لذلك غافلون عما يجب عليهم نحو خالقهم من إخلاص العبادة له ، وطاعته في السر والعلن .

قال ابن كثير : قوله « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم ، الذي وردت به الآيات ، والأحاديث المتواترة .. »[1] .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٩ .

وقال الجمل ما ملخصه : قوله « لتنذر قوما . . » أى العرب وغيرهم . وقوله « ما أنذر آباؤهم » أى الأقربون ، وإلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا فآباء العرب الأقدمون أنذروا بإسماعيل ، وآباء غيرهم أنذروا بعيسى . . . و « ما » نافية ، لأن قريشا لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا - صلى الله عليه وسلم - فالجملة صفة لقوله « قوما » أى : قوما لم ينذروا . وقوله « فهم غافلون » مرتب على الإنذار . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - مصير هؤلاء الغافلين ، الذين استمروا فى غفلتهم وكفرهم بعد أن جاءهم النذير ، فقال : « لقد حق القول على أكثرهم ، فهم لا يؤمنون » .

والجملة جواب لقسم محذوف . ومعنى « حق » ثبت ووجب .

والمراد بالقول : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهم بسبب إصرارهم على كفرهم .

أى : والله لقد ثبت وتحقق الحكم أزلا بالعذاب على أكثر هؤلاء المنذرين بسبب عدم إيمانهم برسالتك ، وجحودهم للحق الذى جئتهم به ، وإيثارهم باختيارهم الغى على الرشد ، والضلال على الهدى . .

وقال - سبحانه - على أكثرهم ، لأن قلة منهم اتبعت الحق ، وآمنت به وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

ثم صور - سبحانه - انكبابهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، تصويرا بليغا فقال : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . . »

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٠٣ .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد الذى تشد به اليد إلى العنق بقصد التعذيب والأذقان : جمع ذقن - بفتح الذال - وهو أسفل الفم .
ومقمحون : من الإقماح ، وهو رفع الرأس من غض البصر . يقال : قمح البعير قوحا إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . والفاء فى قوله «فهى» وفى قوله «فهم» : للتفريع .

أى : إنا جعلنا فى أعناق هؤلاء الجاحدين قيودا عظيمة ، فهى - أى هذه القيود - واصلة إلى أذقانهم ، فهم بسبب ذلك مرفوعة رءوسهم ، مع غض أبصارهم ، بحيث لا يستطيعون أن يخفضوها ، لأن القيود التى وصلت إلى أذقانهم منعتهم من خفض رءوسهم .

فقد شبه - سبحانه - فى هذه الآية ، حال أولئك الكافرين ، المصرين على جحودهم وعنادهم ، بحال من وضعت الأغلال فى عنقه ووصلت إلى ذقنه ، ووجه الشبه أن كليهما لا يستطيع الانفكاك عما هو فيه .

ثم أكد - سبحانه - هذا الإصرار من الكافرين على كفرهم فقال : «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون» .

أى : أننا لم نكتف بجعل الأغلال فى أعناقهم ، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم حاجزا عظيما ، ومن خلفهم كذلك حاجزا عظيما . «فأغشيناهم» أى : فجعلنا على أبصارهم غشاوة وأغطية تمنعهم من الرؤية «فهم لا يبصرون» شيئا بسبب احتجاب الرؤية عنهم .

فالآية الكريمة تمثيل آخر لتصميمهم على كفرهم ، حيث شبههم - سبحانه - بحال من أحاطت بهم الحواجز من كل جانب ، فمنعتهم من الرؤية والإبصار .

ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهاتين الآيتين : ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين :

فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين ، لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم : فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله »[١] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة ، أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن ، فأنزل الله - تعالى - قوله : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا . . . » فكانوا يقولون لأبى جهل : هـــذا محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول : أين هو ؟ ولا يبصر »[٢] .

وقوله - تعالى - : « وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » بيان لما وصل إليه هؤلاء الجاحدون من عناد وانصراف عن الحق .

وقوله « سواء » اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به اسم الفاعل . أى : مستو أى : أن هؤلاء الذين جعلنا فى أعناقهم أغلالا . . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه ، فهم - لسوء استعدادهم وفساد فطرهم - لا يؤمنون بالحق الذى جئتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه ، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به ، لأنهم ماتت قلوبهم ، وصارت لا تتأثر بشىء مما تدعوهم إليه .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للتذكير فقال : « إنما تنذر من اتبع الذكر » .

أى : إنما تنذر - أيها الرسول الكريم - إنذارا نافعا ، أولئك الذين اتبعوا إرشادات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه . . .

وينفع إنذارك - أيضاً - مع من « خشى الرحمن بالغيب » أى : مع من

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول ج١٨٧ للسيوطى .

خاف عقاب الرحمن دون أن يرى هذا العقاب، ودون أن يرى الله - تعالى - الذى له الخلق والأمر.

هؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد، لأنهم فتحوا قلوبهم للحق، واستجابوا له.

والفاء فى قوله: «فبشره بمغفرة وأجر كريم» لترتيب البشارة أو الأمر بها، على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية.

أى: فبشر - أيها الرسول الكريم - هذا النوع من الناس، بمغفرة عظيمة منا لذنوبهم، وبأجر كريم لا يعلم مقداره أحد سوانا.

ثم أكد - سبحانه - أن البعث حق، وأن الجزاء حق، لكى لا يغفل عنهما الناس، ولكى يستعدوا لهما بالإيمان والعمل الصالح فقال: «إنا نحن نحيي الموتى ...».

أى: إنا نحن بقدرتنا وحدها نحيي الموتى بعد موتهم، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى لكى نحاسبهم على أعمالهم.

«ونكتب ما قدموا وآثارهم» أى: وإنا نحن الذين نسجل عليهم أعمالهم التى عملوها فى الدنيا سواء أكانت هذه الأعمال صالحة أم غير صالحة.

ونسجل لهم - أيضاً - آثارهم التى تركوها بعد موتهم سواء أكانت صالحة كعلم نافع، أو صدقة جارية ... أم غير صالحة كدار للهو واللعب، وكرأى من الآراء الباطلة التى اتبعها من جاء بعدهم، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون من ثواب أو عقاب «وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين» أى: وكل شىء أثبتناه وبيناه فى أصل عظيم، وفى كتاب واضح عندنا، ألا وهو اللوح المحفوظ، أو علمنا الذى لا يعزب عنه شىء.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: وفى قوله «وآثارهم» قولان:

أحدهما: أى: ونكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم، وآثارهم التى أثروها - أى تركوها - من بعدهم، فنجزيهم على ذلك - أيضاً -، إن خيراً

فخير ، وإن شرا فشر . كقوله - صلى الله عليه وسلم - من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » ..

والثانى : أن المراد بقوله « وآثارهم » أى : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .. فقد روى مسلم والإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى المسجد ؟ قالوا : نعم ، يارسول الله!

قد أردنا ذلك . فقال : يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم ..

ثم قال ابن كثير : ولا تنافى بين هذا القول والذى قبله ، بل فى القول الثانى تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب ، فلأن تكتب التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى[1] .

هذا ، وتلك الرواية الصحيحة تشير إلى أن هذه الآية ليست مدنية - كما قيل - ، لأن هذه الرواية تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قال لبنى سلمه ، « دياركم تكتب آثاركم » أى : الزموا دياركم تكتب آثاركم » دون إشارة إلى سبب النزول .

قال الآلوسى ما ملخصه ، والأحاديث التى فيها أن الله - تعالى - أنزل هذه الآية ، حين أراد بنو سلمة أن ينتقلوا من ديارهم . معارضة بما فى الصحيحين

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥١ .

من أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ لهم هذه الآية ، ولم يذكر أنها نزلت فيهم ، وقراءته - صلى الله عليه وسلم - لاتنافى تقدم النزول . أى : أن الآية مكية كبقية السورة(١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أثبتت صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وبينت الحكمة من رسالته ، كما بينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقرأ على الناس - ليعتبروا ويتعظوا - قصة أصحاب القرية ، وماجرى بينهم وبين الرسل الذى جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - :

« واضْرِبْ لهمْ مثلاً أصحابَ القَرْيةِ إذْ جاءهَا المرسَلُونَ (١٣) إذْ أرسَلنَا إليهِم اثنَيْنِ فكذَّبُوهُما فعزَّزْنَا بثالثٍ فقالُوا إنَّا إليكُم مُرسلَون (١٤) قالُوا ما أنتُم إلاَّ بشَرٌ مِثلُنَا ، وما أنْزلَ الرَّحمنُ من شَيْءٍ إنْ أنتُم إلاَّ تكذِبُونَ (١٥) قالُوا ربُّنَا يعلَمُ إنَّا إليكُم لمرسَلُونَ (١٦) وما علَينَا إلاَّ البلاغُ المبينُ (١٧) قالُوا إنَّا تطيَّرْنا بكم ، لئنْ لم تنتَهُوا لنَرْجُمَنَّكُم وليمسَّنَّكُم منَّا عذابٌ أليمٌ (١٨) قالوا طائرُكُم معكُم أئِنْ ذُكِّرْتُم بل أنتُم قومٌ مُسرِفونَ (١٩) » .

قال القرطبي مالخصه : قوله - تعالى - : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ، وهذه القرية هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين ... والمرسلون :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢١٨ .

قيل : هم رسل من الله على الابتداء . وقيل إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله - تعالى - . . . »[١].

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبي والمفسرون من أن المراد بالقرية « أنطاكية » كما أنه لم يرتض الرأي القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى - عليه السلام - . . .

فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هي أنطاكية ، وان هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عيسى - عليه السلام - . وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال - تعالى - إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث . . .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه السلام ، ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التي فيها بتاركة - أي ، علماء بالدين المسيحي ،

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغيره ، أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . . .

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة ، قرية أخرى غير أنطاكية . . فإن هذه القرية المشهورة بهذا الإسم لم يعرف أنها أهلكت ، لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك[٢] .

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٤ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٩ .

والذى يبدو لنا أن ماذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه فى هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التى تؤخذ منها .

وضرب المثل فى القرآن الكريم كثيرا مايستعمل فى تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما فى قوله - تعالى - « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية ، مثلا لمشركى مكة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .

وقوله - سبحانه - : « إذ جاءها المرسلون » بدل اشتمال من « أصحاب القرية » .

والمراد بالمرسلين : الذين أرسلهم الله إلى أهل تلك القرية ، لهدايتهم إلى الحق .

وقوله : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما . . » بيان لكيفية الإرسال ، ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .

أى : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - ، يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا ، فكذبوهما ، وأعرضوا عن دعوتهما .

والفاء فى قوله « فكذبوهما » للإفصاح ، أى: أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليهم ، فكذبوهما .

وقوله : « فعززنا بثالث » أى : فقوينا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية . ومنه قولهم : تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى . وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها . وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .

ومفعول «فعززنا» محذوف لدلالة ماقبله عليه أي : فعززناهما برسول ثالث «فقالوا» أي الرسل الثلاثة لأصحاب القرية .

«إنا إليكم مرسلون» لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونبذ عبادة الأصنام .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : «قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون» .

أي : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشر مثلنا في البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكأن البشرية في زعمهم تتنافى مع الرسالة ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شيء . مما تدعوننا إليه .

ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا .

وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيم يقولونه .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين» .

أي : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علما ، وبحكمه ، حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا ، لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم ، بالمنطق الرصين ، وبتأكيد أنهم رسل الله ، وإنهم صادقون في رسالتهم ، لأن قولهم «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» ، جار مجرى القسم في التوكيد .

وقولهم: «وما علينا إلا البلاغ المبين» تحديد للوظيفة التى أرسلهم الله - تعالى - من أجلها.

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم، بل ردوا على الرسل رداً قبيحاً، فقالوا لهم: «إنا تطيرنا بكم، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم، وليمسنكم منا عذاب أليم» والتطير: التشاؤم. أى قالوا فى الرد عليهم: إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا، وكرهنا النظر إلى وجوهكم، وإذا لم ترحلوا عنا، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى ما لا تريده، لنرجمنكم بالحجارة، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم.

قال صاحب الكشاف: قوله «تطيرنا بكم» أى: تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أنهم يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه، واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم خير أو بلاء، قالوا: ببركة هذا وبشؤم هذا ... (١).

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد - أيضاً - بالثبات، وبالمنطق الحكيم فقالوا لهم: «طائركم معكم، أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون».

أى: قال الرسل لأهل القرية: ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم بل الحق أن شؤمكم معكم، ومن عند أنفسكم، بسبب إصراركم على كفركم، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم.

وجواب الشرط لقوله: «أئن ذكرتم» محذوف، والتقدير: أئن وعظتم وذكرتم بالحق، وخوفتم من عقاب الله ... تطيرتم وتشاءمتم.

وقوله: «بل أنتم قوم مسرفون» إضراب عما يقتضيه الإستفهام والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم.

أى: ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم، بل

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦.

الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى، وفى إيثار الباطل على الحق، والغى على الرشد، والتشاؤم على التيامن.

ثم بين - سبحانه - بعد تلك المحاورة التى دارت بين أهـل القرية وبين الرسل والتى تدل على أن أهل القرية كانوا مثلا فى السفاهة والكراهة للخير والحق.

بين - سبحانه - بعد ذلك مادار بين أهل القرية، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسل الله - تعالى -، وتطاولهم عليهم، وتهديدهم لهم بالرجم، فقال - تعالى -:

« وجاء من أقصَى المدينـــةِ رجلٌ يسعَى، قالَ يا قومِ اتَّبِعوا المرسَلين (٢٠) اتَّبِعُوا من لا يَسْأَلُكم أجراً وهُمْ مُهْتَدونَ (٢١) ومالِيَ لا أعبدُ الذى فَطَرنِى وإليْهِ ترجَعُونَ (٢٢) أأتَّخِذ من دُونِه آلهةً إنْ يُرِدْنِى الرحمنُ بضُرٍّ لا تُغْنِ عنِّى شفَاعتُهمْ شيئًا ولاينقِذُونِ (٢٣) إنِّى إذاً لفى ضلالٍ مبينٍ (٢٤) إنِّى آمنتُ بربِّكم فاسمعونْ (٢٥) قيلَ ادخلِ الجنَّةَ قالَ يا ليتَ قومى يعلَمونَ (٢٦) بما غفرَ لِى ربِّى وجعلنِى من المكرَمين (٢٧) وما[1] أنزلنَا علَى قومِهِ من بعده من جُندٍ من السَّماء وما كُنَّا مُنزِلينَ (٢٨) إنْ كانتْ إلا صَيْحَةً واحدةً فإذَا هُم خامدُونَ (٢٩) ياحسرةً علَى العبادِ ماياْتِيهمْ من رسُولٍ إلاَّ كانُوا بهِ يَستهزِئُونَ (٣٠) ألم يروْا كم أَهلكْنَا قبلَهُم منَ القُرونِ أنَّهُم إليهم لا يرْجِعُونَ (٣١) وإنْ كلٌّ لما جَميعٌ لدَيْنا مُحضَرُونَ (٣٢) ».

(١) أول الجزء الثالث والعشرون.

وقوله ـ سبحانه ـ : «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى . . .» معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة ، والتقدير :

وانتشر خبر الرجل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم وجاء من أقصى المدينة ، أي من أبعد مواضعها «رجل يسعى» أي : رجل ذو فطرة سليمة ، يسرع الخطا لينصح قومه ، وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم .

قالوا : وهذا الرجل كان إسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالنجارة .

وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه .

ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله ـ تعالى ـ عليه بصرف النظر عن إسمه أو صنعته أو حاله ، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها فى القرآن الكريم ، هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير .

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها فى أول القصة بالقرية ، للإشارة إلى سعتها ، وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .

والتعبير بقوله . «يسعى» : يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو همته ، ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يرض أن يقبع فى بيته ـ كما يفعل الكثيرون ـ بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقوله ـ تعالى ـ : «قال ياقوم اتبعوا المرسلين» بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم .

أى : «قال» لقومه على سبيل الإرشاد والنصح «ياقوم اتبعوا المرسلين» الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذى انغمستم فيه .

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : «اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون» اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم إلى طريق الحق ، والحال أنهم فى أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون فى التمسك بالعقيدة السليمة .

ثم أخذ بعد ذلك فى حض قومه على إتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : «ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة ؟ إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذا لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون» .

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعنى من أن أعبدالله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقنى ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

والاستفهام فى قوله : «أأتخذ من دونه آلهة ...» للانكار والنفى .
أى : لايصح ولا يجوز أن اتخذ معه فى العبادة آلهة أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه «إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا» من النفع ، حتى ولو كان هذا النفع فى نهاية القلة والحقارة .

«ولا ينقذون» أى : ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى مما يصيبنى من ضر أراد الرحمن أن ينزله بى .

« إني إذا » لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله في العبادة « إني ضلال مبين » أي : لأكونن في ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : « إني آمنت بربكم » الذي خلقكم ورزقكم « فاسمعون » أي : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لي بأني آمنت بربكم الذي خلقكم وخلقني ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه ـ سبحانه ـ في العبادة أحدا ، مهما كانت النتائج .

وهكذا نرى الرجل الصالح الذي استقر الإيمان في قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذي آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحدا إلا الله ، ويدعو قومه بشتى الأساليب إلى إتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة ما يدعو إليه .

ثم يصارحهم في النهاية . ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو عيد أو إيذاء أو قتل .

ورحم الله صاحب الكشاف . فقد أجاد في تصوير هذه المعاني فقال ما ملخصه : قوله : اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » : كلمة جامعة في الاستجابة لدعوة الرسل ، أي : لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، ليتلطف بهم ويداريهم . . . فقال : « وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون » .

ثم قال : « إني آمنت بربكم فاسمعون ، يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني ، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه ، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم . . . »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذاناً واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحي بأن قومه قتلوه ، فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه : « قيل أدخل الجنة ... » .

أي : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب .

قال الآلوسي : قوله : « قيل أدخل الجنة ... » استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك .

والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه ...

وقيل: الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة، أي: قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث ... »[1] .

وقوله - تعالى - : « قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » استئناف بياني لبيان ما قاله عند البشارة .

أي : قيل له أدخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح ، فرد وقال : ياليت قومي الذين قتلوني ولم يسمعوا نصحي ، يعلمون بما نلته من ثواب من ربي ، فقد غفر لي - سبحانه - ذنوبي ، وجعلني من المكرمين عنده ، بفضله وإحسانه .

قال ابن كثير : ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ما حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادهم ذلك إلى إتباع الرسل ، فرحمة الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

(١) تفسير الآلوسي ج ٢ ص ٢٢٨ .

روى ابن أبي حاتم أن عروة بن مسعود الثقفي ، قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - « إني أخاف أن يقتلوك » . فقال : يارسول الله ، لو وجدوني نائماً أيقظوني . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « انطلق إليهم » ، فانطلق إليهم فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدا بما يسوؤك ، فغضبت ثقيف . فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا تسلموا - ثلاث مرات - . فرماه رجل منهم فأصاب أكحله فقتل - والأكحل : عرق في وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : هذا مثله كمثل صاحب يس « قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين »(١) .

وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : « يا ليت قومي يعلمون ... » إنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر ، والدخول في الإيمان ... وفي حديث مرفوع : « نصح قومه حياً وميتاً » .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبدة أصنام ... »(١) .

ثم بين - سبحانه - ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلكهم فقال : « وما أنزلنا على قومه من بعده » : أي : من بعد موته .

« من جند من السماء » لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن نفعل معهم ذلك .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٨ .

« وما كنا منزلين » أى : وما صح وما استقام فى حكمتنا أن ننزل عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم ، وهوان قدرهم .

« إن كانت إلا صيحة واحدة » أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحها بهم جبريل بأمرنا .

« فإذا هم خامدون » أى: هامدون ميتون ، شأنهم فى ذلك كشأن النار التى أصابها الخمود والانطفاء ، بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة . يقال . خمدت النار تخمد خمودا . إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها . وخمد الرجل ـ كقعد ـ إذا مات وانقطعت أنفاسه .

وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين، وقتلوا المصلحين، فقد نزلت بهم عقوبة الله ـ تعالى ـ فجعلتهم فى ديارهم جاثمين .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدعوة الناس إلى الاتعاظ بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال ـ تعالى ـ : « ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والندم عليه ندماً لا نفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار فى غير استطاعته إرجاعها .

و « يا » حرف نداء . و « حسرة » منادى وناداها على المجاز بتنزيلها منزلة العقلاء .

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل، وآثروا العمى على الهدى ويدخل فيهم دخولا أولياً أصحاب تلك القرية المهلكة .

والمقصود من الآية الكريمة ، التعجب من حال هؤلاء المهلكين ، وبيان

أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم .

والمعنى : يا حسرة على العباد الذين اهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضرى فهذا أوان حضورك فإن هؤلاء المهلكين كانوا فى دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا به يستهزئون ، ويتغامزون ، ويستخفون به وبدعوته ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد .

قال صاحب الكشاف : قوله : « يا حسرة على العباد ... » نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف عليهم المتلهفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .

وقرىء : ياحسرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث إنها موجهة إليهم »(١) .

أى : ياحسرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم .

ثم وبخ - سبحانه - كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون » .

والقرون : جمع قرن . وهم القوم المقترنون فى زمن واحد . و « كم » خبرية بمعنى كثير .

أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣ .

إصرارهم على كفرهم، واستهزائهم برسلهم، وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إليهم ليخبروهم بما جرى لهم، لأنهم لن يستطيعوا ذلك فى الدنيا، لحكمة أرادها الله - تعالى -.

ولكن الجميع سيعودون إليه - سبحانه - وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء، كما قال - تعالى -: «وإن كل لما جميع لدينا محضرون».

و «إن» حرف نفى. و «كل» مبتدأ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه.

و «لما» بمعنى إلا. و «جميع» خبر المبتدأ. و «محضرون» خبر ثان.

أى: لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكنا كثيرا من القرى الظالم أهلها، وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة فى الدنيا، ولكن الحقيقة التى لاشك فيها أنه مامن أمة من الأمم، أوجماعة من الجماعات المتقدمة أوالمتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة، لنحاسبها على أعمالها، ولنجازيها بالجزاء الذى تستحقه.

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى: «وإنَّ كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير»(١).

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته، وهذه الأدلة منها ماهو أرضى، ومنها ماهو سماوى، ومنها ما هو بحرى، وكلها تدل - أيضا - على فضله ورحمته، قال - تعالى -:

---

(١) سورة هود آية ١١١.

« وآيةٌ لهُم الأرضُ الميتةُ أحيَيْناهَا وأخرَجْنا منهــا حبًّا فَمِنْهُ يأكلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيها جنات مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ وفجّرنا فيها من العُيونِ (٣٤) ليأكُلوا من ثمره وما عملتْهُ أيديهِمْ أفلا يشكرون (٣٥) سبحَانَ الذى خلقَ الأزوَاجَ كُلَّها مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ ومِنْ أنفسِهِم ومِمَّا لا يَعلمونَ (٣٦) وآيةٌ لهُم اللَّيــلُ نَسْلَخُ منهُ النهارَ فإذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) والشَّمسُ تَجْرِى لِمُستَقَرٍّ لها ذلكَ تقْـديرُ العَزيزِ العَليمِ (٣٨) والقمرَ قَدَّرْنَاهُ منازِلَ حتَّى عادَ كالعُرجُون القديمِ (٣٩) لا الشَّمسُ يَنْبَغِى لها أَنْ تُدْرِكَ القمرَ ولا الليـلُ سَابِقُ النَّهَارِ وكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وآيةٌ لَهُم أَنَّا حَمَلْنــاَ ذُرِيتَهم فى الفُلكِ المَشْحُونِ (٤١) وَخَلقْنـاَ لَهُم مِنْ مثلهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وإنْ نَشَأْ نُغرقهُم فلا صَرِيخَ لَهُم ولا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إلا رحمـةً مِنَّا ومتاعاً إلى حِينٍ (٤٤) » .

قال الإمام الرازى ماملخصه قوله : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها » وجه تعلقه بما قبله ، أنه ـ سبحانه ـ لما قال : « وإن كل لما جميع لدينــا محضرون » كان ذلك إشارة إلى الحشر، فذكر مايدل على إمكانه قطعا لإنكارهم، واستبعادهم ، وعنادهم فقال : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ... » أى : « وكذلك نحيى الموتى ... »(١) .

والمراد بالآية هنا : العلامة والبرهان والدليل .

والمراد بالأرض الميتة : الأرض الجدباء التى لا نبات فيها .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٧٧ .

والمراد بالحب : جنسه من حنطة وشعير وغيرهما .

أى: ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى، أننا ننزل الماء على الأرض الجدباء . فتهتز وتربو ، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التى يعيشون عليها . ويأكلون منها .

ونكر ـ سبحانه ـ لفظ «آية» للإشعار بأنها آية عظيمة ، كان ينبغى لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها ، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء ، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها .

والله ـ تعالى ـ الذى قدر على ذلك ، قادر ـ أيضا ـ على إحياء الموتى وإعادتهم إلى الحياة .

وقوله : «أحييناها» كلام مستأنف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية .

وقدم ـ سبحانه ـ الجار والمجرور فى قوله «فمنه يأكلون» للدلالة على أن الحب هو الشىء الذى تتكون منه معظم المأكولات التى يعيشون عليها ، وأن قلته تؤدى إلى القحط والجوع .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض النعم الأخرى التى تحملها الأرض لهم فقال : «وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون» .

والآية الكريمة معطوفة على قوله : «أحييناها» . ونخيل جمع نخل كعبيد جمع عبد . وأعناب جمع عنب . والعيون : جمع عين . والمراد بها الآبار التى تسقى بها الزروع .

أى : أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء .. وجعلنا فيها ـ بقدرتنا ورحمتنا ـ بساتين كثيرة من نخيل وأعناب ، وفجرنا وشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التى تسقى بها تلك الزروع والثمار .

وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنهما أشهر الفواكه المعروفة لديهم ، وأنفعها عندهم .

واللام فى قوله : « ليأكلوا من ثمره » متعلق بقوله : « وجعلنا ... » .

والضمير فى قـوله : « من ثمره يعـود إلى المذكور من الجنات والنخيل والأعناب . أو إلى الله ـ تعالى ـ .

أى : وجعلنا فى الأرض ما جعلنا من جنات ومن نخيل ومن أعناب ، ليأكلوا ثمار هذه الأشياء التى جعلناها لهم ، وليشكرونا على هذه النعم .

و « ما » فى قوله : « وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » الظاهر أنها نافية والجملة حالية ، والاستفهام للحض على الشكر .

أى جعلنا لهم فى الأرض جنـات من نخيل وأعناب ، ليأكلوا من ثمـار ما جعلناه لهم ، وإن هذه الثمار لم تصنعها أيديهم ، وإنمـا الذى أوجدها وصنعها هو الله ـ تعالى ـ بقدرته ومشيئته .

وما دام الأمر كذلك ، فهلا شكرونا على نعمنا ، وأخلصوا العبادة لنا .

قال ابن كثير : وقـوله : « وما عملته أيديهم » أى : وما ذاك كله إلا من رحمتنا بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة . ولهذا قال : « أفلا يشكرون » أى : فلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ... »[1] .

ويصح أن تكون « ما » هنا موصولة فيكون المعنى : ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم من هذه الثمار كالعصير الناتج منها ، وكغرسهم لتلك الأشجار وتعهدها بالسقى وغيره ، إلى أن آتت أكلها .

قال الشوكانى : وقـوله : « وما عملته أيديهم » معطوف على ثمره ، أى : ليأكلوا من ثمره ، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما ، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن « ما » موصولة ، وقيل هى نافية . والمعنى : لم يعملوه

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦١ .

بأيديهم ، بل العامل له هو الله ... »(١) .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له من ثناء فقال : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » .

ولفظ : « سبحان » اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف، والتقدير : سبحان الله سبحانا ، أى : تسبيحا . بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما .

و « من » فى الآية الكريمه للبيان .

أى : ننزه الله - تعالى - تنزيها عن كل سوء . ونعظمه تعظيما لا نهاية له ، فهو - عز وجل - الذى خلق « الأزواج كلها » أى: الأنواع، والأصناف كلها ذكوراً وإناثاً .

« مما تنبت الأرض » أى خلق الأصناف كلها التى تنبت فى الأرض من حبوب وغيرها .

« ومن أنفسهم » أى : وخلقها من أنفسهم ، إذ الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر .

« ومما لا يعلمون » أى : وخلق هذه الأصناف كلها من أشياء لا علم لهم بها ، وإنما مرد علمها إليه وحده - تعالى - كما قال - سبحانه - « ويخلق ما لا تعلمون » .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر قدرته - تعالى - وبديع خلقه ، حيث خلق الأصناف كلها ، نرى بعضها نابتا فى الأرض ، ونرى بعضها متمثلا فى الإنسان المكون من ذكر وأنثى ، وهناك مخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى الأرض التى نعيش عليها ، عقب ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى تقلب الليل

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٣٦٨ .

والنهار، وتعاقب الشمس والقمر، فقال - تعالى - : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار، فإذا هم مظلمون».

وقوله : «نسلخ» من السلخ بمعنى الكشط والإزالة، يقال : سلخ فلان جلد الشاة، إذا أزاله عنها.

والمراد هنا : إزالة ضوء النهار عن الليل، ليبقى لليل ظلمته.

قال صاحب الكشاف : سلخ جلد الشاة، إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه : سلخ الحية لخرشائها - أي : لجلدها - فاستعير ذلك لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل، وملقى ظله»(١).

أي : ومن البراهين والعلامات الواضحة، الدالة على وحدانية الله، على إحياء الموتى، وجود الليل والنهار بهذه الطريقة التي نشاهدها، حيث ينزع - سبحانه - عن الليل النهار، فيبقى لليل ظلامه ويصير الناس في ليل مظلم، بعد أن كانوا في نهار مضيء.

فمعنى «فإذا هم مظلمون» : فإذا هم داخلون في الظلام، بعد أن كانوا بعيدين عنه. يقال : أظلم القوم، إذا دخلوا في الظلام. وأصبحوا، إذا دخلوا في وقت الصباح.

وقوله - تعالى - : «والشمس تجرى لمستقر لها» بيان لدليل آخر على قدرته - تعالى - وهو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : «وآية لهم الليـــل ...».

قال الآلوسي ماملخصه وقوله : «لمستقر لها» أى لحد معين تنتهي إليه..

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦.
(٢) تفسير الآلوسي ج ٢٣ ص ١٢.

شبه بمستقر المسافر إذا انتهى من سيره ... والمستقر عليه اسم مكان واللام بمعنى إلى ...

ويصح أن يكون اسم زمان ؛ على أنها تجرى إلى وقت لها لا تتعداه ، وعلى هذا فمستقرها : انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ... »[1] .

والمعنى : وآية أخرى لهم على قدرتنا ، وهى أن الشمس تجرى إلى مكان معين لا تتعداه ، وإلى زمن محدد لا تتجاوزه ، وهذا المكان وذلك الزمان ، كلاهما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

قال بعض العلماء : قوله - تعالى - : « والشمس تجرى لمستقر لها » أى : والشمس تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة فى مكانها ، وإنما هى تجرى فعلا تجرى فى اتجاه واحد ، فى هذا الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلا فى الثانية .

والله ربها الخبير بجريانها وبمصيرها يقول : إنها تجرى لمستقر لها ، هذا المستقر لها . هـذا المستقر الذى ستنتهى إليه لا يعلمه إلا هو - سبحانه - ولا يعلم موعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك أو تجرى فى الفضاء ولا يسندها شىء ، حين نتصور ذلك ، ندرك طرفا من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم »[1] .

وقد ساق القرطبى عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فقال : وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قال سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله - تعالى - : « والشمس تجرى لمستقر لها » قال مستقرها تحت العرش » .

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٥ .

ولفظ البخارى عن أبى ذر قال : قال النبى - صلى عليه وسلم - لى حين غربت الشمس : « تدرى أين تذهب » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها . فقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها . فذلك قوله - تعالى - : « والشمس تجرى لمستقر لها . . . »(١) .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » يعود إلى الجرى المفهوم من « تجرى » .

أى . ذلك الجريان البديع العجيب المقدر للشمس ، تقدير الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، العليم بكل شىء فى هذا الكون علما لا يخفى من قليل أو كثير من أحوال هذا الكون .

ثم ذكر - سبحانه - آية أخرى تتعلق بكمال قدرته فقال : « والقمر قدرناه منازل . . . » .

ولفظ القمر قرأه جمهور القراء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف يفسره مابعده .

والمنازل جمع منزل . والمراد بها أماكن سيره فى كل ليلة ، وهى ثمان وعشرون منزلا ، تبدأ من أول ليلة فى الشهر ، إلى الليلة الثامنة والعشرين منه . ثم يستتر القمر ليلتين إن كان الشهر تاماً . ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ليلة .

أى : وقدرنا سير القمر فى منازل ، بأن ينزل فى كل ليلة فى منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، إذ كل شىء عندنا بمقدار .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « والقمر » بالرفع على الابتداء ، وخبره جملة « قدرناه » .

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٥ ص ١٧ وابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه . قوله : « والقمر قدرناه » - بالنصب - : أى : وصيرنا سيره ، أى : محله الذى يسير فيه « منازل » فقدر بمعنى صير الناصب لمفعولين . والكلام على حذف مضاف ، والمضاف المحذوف مفعوله الأول « ومنازل » مفعوله الثانى . .

وقرأ الحرميان وأبو عمرو : « والقمر » بالرفع ، على الابتداء . وجملة « قدرناه » خبره .

والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة(١).

وقوله - سبحانه - : حتى عاد كالعرجون القديم » تصوير بديع لحالة القمر وهو فى آخر منازله .

والعرجون : هو عذق النخلة ما بين الشماريخ إلى منبته منها وهو الذى يحمل ثمار النخلة سواء أكانت تلك الثمار مستوية أم غير مستوية . وسمى عرجونا من الانعراج ، وهو الانعطاف والقوس ، شبه به القمر فى دقته وتقوسه واصفراره .

أى : وصيرنا سير القمر فى منازل لا يتعداها ولا يتقاصر عنها ، فإذا صار فى آخر منازله ، أصبح فى دقته وتقوسه كالعرجون القديم ، أى : العتيق اليابس ،

قال بعض العلماء : والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة . يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب ، حتى عاد كالعرجون القديم ، وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . ولكنه فى لياليه الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وقوة . وفى لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكون فيه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم . فليست مصادفة أن يعبر القرآن عنه هذا التعبير الموحى العجيب »(٢) .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦ .

(٢) تفسير : فى ظلال القرآن ج ٢٢ ص ٣٥ .

وقوله - تعالى - : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » بيان لدقة نظامه - سبحانه - فى كونه ، وأن هذا الكون الهائل يسير بترتيب فى أسمى درجات الدقة ، وحسن التنظيم .

أى : لا يصح ولا يتأتى للشمس أن تدرك القمر فى مسيره فتجتمع معه بالليل .

وكذلك لا يصح ولا يتأتى لليل أن يسبق النهار ، بأن يزاحمه فى محله أو وقته ، وإنما كل واحد من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، يسير فى هذا الكون بنظام بديع قدره الله - تعالى - له ، بحيث لا يسبق غيره ، أو يزاحمه فى سيره .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر » قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ، ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا . . .

وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : « ولا الليل سابق النهار » يقول : لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر ، حتى يكون النهار . . . »(١) .

وقوله - تعالى - : « وكل فى فلك يسبحون » التنوين فى « كل » عوض عن المضاف إليه .

قال الآلوسى : والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارته ، كفلكة المغزل . وهى الخشبة المستديرة فى وسطه . وفلكة الخيمة . وهى الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة »(٢) .

أى : وكل من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، فى أجزاء هذا الكون يسيرون بانبساط وسهولة ، لأن قدرة الله - تعالى - تمنعهم من التصادم أو التزاحم أو الاضطراب . ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من النعم التى امتن بها على عباده فقال : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣ .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن الضمير فى «لهم» يعود إلى أهل مكة. والمراد بذريتهم: أولادهم صغارا أوكبارا ، والمراد بالفلك المشحون: جنس السفن .

فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - أولادهم صغارا وكبارا فى السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى ، وسخرنا لهم هذه السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر .

ويرى بعضهم أن الضمير فى «لهم» يعود إلى الناس عامة والمراد بذريتهم: آباؤهم الأقدمون ، والمراد بالفلك المشحون : سفينة نوح - عليه السلام - التى أنجاه الله - تعالى - فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم .

فيكون المعنى : وعلامة ودليل واضح للناس جميعا على قدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا وحمايتنا - آباءهم الأقدمين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فى السفينة التى أمرناه بصنعها ، والتى كانت مليئة ومشحونة ، بما ينتفعون به فى حياتهم.

قال الجمل : وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين ، الأصول والفروع ، لأن الذرية من الذرء بمعنى الخلق . والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منهم الفروع . فاسم الذرية يقع على الآباء ، يقع على الأولاد »(١) .

وهذا الرأى الثانى قد اختاره الإمام ابن كثير ولم يذكر سواه ، فقد قال رحمه الله : يقول - تعالى - : ودلالة لهم - أيضا - على قدرته - تعالى - تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين . ولهذا قال : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم » أى : آباءهم .

« فى الفلك المشحون » أى : فى السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين »(٢) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٥ .

وقوله - تعالى - : «وخلقنا لهم من مثله مايركبون» بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - على عباده.

والضمير في قوله - تعالى - «من مثله» يعود على السفن المشابهة لسفينة نوح - عليه السلام - .

قال القرطبي: ماملخصه قوله - تعالى - : «وخلقنا لهم من مثله مايركبون» والأصل مايركبونه... والضمير في «من مثله» للإبل. خلقها لهم للركوب في البر، مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تشبه الإبل بالسفن. وقيل إنه الإبل والدواب وكل مايركب.

والأصح أنه للسفن. أي: خلقنا لهم سفنا أمثالها، أي: أمثال سفينة نوح، يركبون فيها.

قال الضحاك وغيره: «هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح - عليه السلام - »[1].

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على الناس فقال: «وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين».

الصريخ المغيث. أي: فلا مغيث لهم. أو فلا إغاثة لهم، على أنه مصدر كالصراخ، لأن المستغيث الخائف ينادي من ينقذه، فيصرخ المغيث له قائلا: جاءك الغوث والعون.

والاستثناء هنا مفرغ من أعم العلل.

أي: وإن نشأ أن نغرق هؤلاء المحمولين في السفن أغرقناهم، دون أن يجدوا من يغيثهم منا، أو من ينقذهم من الغرق، سوى رحمتنا بهم، وفضلنا عليهم، وتمتيعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضي عنده حياتهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٥

فالآيتان الكريمتان تصوران مظاهر قدرة الله ورحمته بعباده أكمل تصوير وذلك لأن السفن التي لم تجرى في البحر - مهما عظمت - تصير عندما تشتد أمواجه في حالة شديدة من الاضطراب ، ويغشى الراكبين فيها من الهول والفزع ما يغشاهم ، وفي تلك الظروف العصيبة لا نجاة لهم عما هم فيه إلا عن طريق رعاية الله - تعالى - لهم ، ورحمته بهم .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من رد المشركين السيء على من يدعوهم إلى الخير ، ومن جهالاتهم حيث تعجلوا العذاب الذي لا محيص لهم عنه ، ومن أحوالهم عند قيام الساعة ، فقال - تعالى - :

« وإذَا قِيلَ لهُم اتَّقُوا ما بَيْنَ أيْدِيكُم وما خَلفكُم لعلكُم تُرْحَمُونَ (٤٥) وما تأتيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِم إلا كانُوا عنها مُعرضينَ (٤٦) وإذَا قيلَ لهُمْ أنفِقُوا مما رَزَقكُم اللهُ قالَ الذين كفرُوا للَّذِينَ آمنُوا : أنُطعِمُ من لو يَشَاءُ اللهُ أطعَمَهُ ، إنْ أنتُم إلاَّ في ضَلالٍ مُبينٍ (٤٧) ويقولُونَ مَتَى هذا الوَعدُ إنْ كنتُم صادِقِينَ (٤٨) ما ينظُرُونَ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تأخُذُهُم وَهُمْ يخِصِّمُونَ (٤٩) فلا يَسْتَطِيعُونَ توصِيةً ولاَ إلى أهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ من الأجْدَاثِ إلى ربِّهِمْ يَنسِلُون (٥١) قالُوا يا وَيلنَا مَن بعثنَا مِنْ مَرْقدِنَا ، هذَا ما وَعَدَ الرَّحمنُ وصدَقَ المرسَلُونَ (٥٢) إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فإذَا هُمْ جميعاً لَدَينَا مُحضَرُونَ (٥٣) فاليَوْمَ لا تُظلَمُ نَفسٌ شيْئًا ، ولا تُجْزَونَ إلاَّ ما كُنتُم تعملونَ (٥٤) » .

وقوله - تعالى - : « وإذا قيل لهم إتقوا مابين أيديكم وما خلفكم ... » حكاية لموقف المشركين من الناصحين لهم ، وكيف أنهم صموا آذانهم عن سماع الآيات التنزيلية ، بعد صممهم عن الفكر فى الآيات التكوينية .

أى : وإذا قال قائل لهؤلاء المشركين على سبيل النصح والإرشاد : إتقوا مابين أيديكم وما خلفكم ، أى : إحذروا ماتقدم من ذنوبكم وما تأخر ، وصونوا أنفسكم عن إرتكاب المعاصى التى إرتكبها الظالمون من قبلكم ، فأهلكوا بسببها وأبيدوا ، وآمنوا بالله ورسوله وإعملوا العمل الصالح ، لعلكم بسبب ذلك تنالون الرحمة من الله - تعالى - .

وجواب « إذا » محذوف دل عليه مابعده ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا عن الناصح ، وإستخفوا به ، وتطاولوا عليه .

ويشهد لهذا الجواب المحذوف قوله - تعالى - بعد ذلك : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

و « من » الأولى مزيدة لتأكيد إعراضهم وصممهم عن سماع الحق ، والثانية للتبعيض .

أى : ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين ، أنهم ماتأتيهم آية من الآيات التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فى دعوته ، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضا تاما ، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من قبلهم .

وأضاف - سبحانه - الآيات التى أتتهم إليه ، لتفخيم شأنها ، وبيان أنها آيات عظيمة ، كان من شأنهم - لو كانوا يعقلون - أن يتدبروها ، ويتبعوا من جاء بها .

ثم حكى - سبحانه - موقفا آخر ، من مواقفهم القبيحة من نصحهم وأرشدهم

إلى الصواب ، فقال ـ تعالى ـ : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه . . . » .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقيه أبو جهل فقال له : يا أبا بكر : أتزعم أن الله قادر على أطعام هؤلاء ؟

قال نعم . قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال أبو بكر : إبتلى ـ سبحانه ـ قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء .

فقال أبو جهل : والله يا أبا بكر : إن أنت إلا في ضلال ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت فنزلت هذه الآية . ؟

وقيل : كان العاصي بن وائل السهمي ، إذا سأله المسكين قال له : إذهب إلى ربك فهو أولى مني بك . ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا . . . »[1] .

والمعنى . وإذا قال قائل من المؤمنين لهؤلاء الكافرين : أنفقوا على المحتاجين شيئا من الخير الكثير الذى رزقكم الله ـ تعالى ـ إياه .

قال الكافرون ـ على سبيل الاستهزاء والسخرية ـ للمؤمنين : هؤلاء الفقراء الذين طلبتم منا أن ننفق عليهم ، لو شاء الله لأطعمهم ولأغناهم كما أغنانا .

« إن أنتم » أيها المؤمنون « إلا في ضلال مبين » في أمركم لنا بالإنفاق عليهم أو على غيرهم .

قال الشوكاني ماملخصه : وقوله : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه» حكاية لتهكم الكافرين ، وقد كانوا سمعوا المؤمنين يقولون: إن الرازق هو الله ، وإنه يغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمؤمنين

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥١٨

وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله. وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل، فإن الله - سبحانه - أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا، وأمر الغنى أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقولهم: «من لو يشاء الله أطعمه» هو وإن كان كلاما صحيحا فى نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله، وإنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله، كان إحتجاجهم من هذه الحيثية باطلا.

وقوله «إن أنتم إلا فى ضلال مبين» من تتمة كلام الكفار. وقيل: هو ردمن الله عليهم ....»[1].

ثم يحكى القرآن إنكارهم للبعث، وإستهزاءهم بمن يؤمن به فيقول: «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين».

أى: ويقول الكافرون للمؤمنين - على سبيل الإستهزاء والتكذيب بالبعث - «متى هذا الوعد» الذى تعدوننا به من أن هناك بعثا، وحسابا وجزاء... أحضروه لنا «إن كنتم صادقين» فيما تعدوننا به.

وهنا يجىء الرد الذى يزلزلهم، عن طريق بيان بعض مشاهد يوم القيامة، فيقول - سبحانه - : «ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون».

المراد بالصيحة هنا: النفخة الأولى التى ينفخها إسرافيل بأمر الله - تعالى - فيموت جميع الخلائق.

وقوله «يخصمون» أى: يختصمون فى أمور دنياهم. وفى هذا اللفظ عدة قراءات سبعية.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٧٣

منها قراءة أبو عمرو وابن كثير: « وهم يخصمون » - بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد مع الفتح - ومنها قراءة عاصم والكسائي: « وهم يخصمون » بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد مع الكسر.

ومنها قراءة حمزة « يخصمون » بإسكان الخاء وكسر الصاد مع التخفيف.

أى: أن هؤلاء الكافرين الذين يستنكرون قيام الساعة، ويستبعدون حصولها، جاهلون غافلون، فإن الساعة آتية لا ريب فيها، وستحل بهم بغتة فإنهم ما ينتظرون « إلا صيحة واحدة » يصيحها إسرافيل بأمرنا، فتأخذهم هذه الصيحة وتصعقهم وتهلكهم « وهم يخصمون » أى: وهم يتخاصمون ويتنازعون فى أمور دنياهم.

وعند ما تنزل بهم هذه الصيحة، لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا بما يريد أن يقول له. ولا يستطيعون جميعا الرجوع إلى أهليهم و لأنهم يصعقون فى أماكنهم التى يكونون فيها عند حدوث هذه الصيحة.

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أبلغ تصوير لأهوال علامات يوم القيامة، ولسرعة مجىء هذه الأهوال.

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه - أى يسده بالطين - فلا يسقى منه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها »(١).

ثم بين - سبحانه - حالهم عند النفخة الثانية فقال: « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون... ».

والمراد بالنفخ هنا: النفخة الثانية التى يكون معها البعث والحساب.

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٣١.

والصور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، ولا يعلم كيفيته سوى الله - تعالى - .

والأجداث : جمع جدث - بفتحتين - كفرس وأفراس - وهي القبور .

وينسلون : أي : يسرعون بطريق الجبر والقهر لا بطريق الإختيار . والنسلان : الإسراع في السير .

أي : ونفخ في الصور النفخة الثانية ، فإذا بهؤلاء الكافرين الذين كانوا يستبعدون البعث وينكرونه ، يخرجون من قبورهم سراعا - وبدون اختيار منهم - متجهين إلى ربهم ومالك أمرهم ليقضي فيهم بقضائه العادل .

« قالوا » بعد خروجهم من قبورهم بسرعة وفزع « ياويلنا » أي : ياهلاكنا احضر فهذا أوان حضورك .

ثم يقولون بفزع أشد : « من بعثنا من مرقدنا » أي : من أثارنا من رقادنا ، وكأنهم لهول ما شاهدوا قد اختلطت عقولهم ، وأصيبت بالهول ، فتوهموا أنهم كانوا نياما .

قال ابن كثير - رحمه الله - « قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا » يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لايبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم قالوا : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، وهذا لاينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى مابعده في الشدة كالرقاد .

وقوله : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » رد من الملائكة أو من المؤمنين عليهم . أوهو حكاية لكلام الكفرة في رد بعضهم على بعض على سبيل الحسرة واليأس .

و « ما » موصولة والعائد محذوف ، أي : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : إذا جعلت « ما » مصدرية ، كان المعنى : هذا وعد الرحمن ، وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق . فما وجه قوله : « وصدق المرسلون » إذا جعلتها موصولة ؟

قلت : تقديره : هذا الذى وعده الرحمن ، والذى صدقه المرسلون ، بمعنى : والذى صدق فيه المرسلون من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال ... » .

ثم بين - سبحانه - سرعة امتثالهم وحضورهم للحساب فقال : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » .

أى : ما كانت النفخة التى حكيت عنهم آنفاً ، إلا صيحة واحدة ، صاحها إسرافيل بإذننا وأمرهم فيها بالقيام من قبورهم ، فإذا هم جميع ، دون أن يتخلف أحد منهم لدينا محضرون ، ومجموعون للحساب والجزاء .

« فاليوم » وهو يوم القيامة « لا تظلم نفس شيئاً » من الظلم ، وإنما كل نفس توفى حقها .

وقوله - تعالى - « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » أى : ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا ، فالجملة الكريمة تأكيد وتقرير لما قبلها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة ، جاء الحديث عما أعده الله - تعالى - بفضله وكرمه للمؤمنين ، وعما يقال للكافرين فى هذا اليوم من تبكيت وتأنيب فقال - تعالى - :

« إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا

الشيطانَ إنَّهُ لكُمْ عَدُوٌّ مبينٌ (٦٠) وأن اعبُدُونى هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) ولقَدْ أضَلَّ مِنكُم جِبِلاً كَثِيراً أفَلَمْ تكُونُوا تَعقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ التى كُنْتُم تُوعَدُونَ (٦٣) اصلَوْهَا اليومَ بما كُنتُم تكفُرُونَ (٦٤) ».

فقوله - تعالى - : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » بيان لأحوالهم الطيبة ، بعد بيان أحوال الكافرين السيئة .

والشغل : الشأن الذى يشغل الإنسان عما سواه من الشئون ، لكونه أهم عنده من غيره . وما فيه من التنكير للتفخيم ، كأنه قيل : فى شغل أى شغل .

وفاكهون : أى . متنعمون متلذذون فى النعمة التى تحيط بهم ، مأخوذ من الفكاهة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع النشاط . يقال : فكه الرجل فكها وفكاهة فهو فكه وفاكه ، إذا طاب عيشه ، وزاد سروره ، وعظم نشاطه وسميت الفاكهة بذلك لتلذذ الإنسان بها .

أى : يقال للكافرين فى يوم الحساب والجزاء زيادة فى حسرتهم - إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل عظيم ، يتلذذون فيه بما يشرح صدورهم ، ويرضى نفوسهم ، ويقر عيونهم ويجعلهم فى أعلى درجات التنعم والغبطة .

وعبر عن حالهم هذه بالجملة الاسمية المؤكدة ، للاشعار بأن هذه الحال ثابتة لهم ثبوتا تاما ، بفضل الله - تعالى - وكرمه .

ثم بين - سبحانه - جانبا من كيفية هذا التمتع بالجنة ونعيمها فقال : « هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون » .

و « هم » مبتدأ ، و « أزواجهم » معطوف عليه . و « متكئون » خبر المبتدأ .

قال الإمام الرازى : ولفظ الأزواج هنا يحتمل وجهين :

أحدهما : أشكالهم فى الإحسان . وأمثالهم فى الإيمان ، كما قال ـ تعالى ـ : « وآخر من شكله أزواج » .

وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « إلا على أزواجهم أو ماملكت إيمانهم .. »[١].

ويبدو أن المراد بالأزواج هنا : حلائلهم اللاتى أحلهن الله لهم ، زيادة فى مسرتهم وبهجتهم وعلى هذا سار عامة المفسرين .

والظلال : جمع ظل أو ظلة ، وهى مايظل الإنسان ويقيه من الحر .

والأرائك : جمع أريكة وهى مايجلس عليه الإنسان من سرير ونحوه للراحة والمتعة .

أى : أن أصحاب الجنة هم وحلائلهم يجلسون على الأرائك متكئون فى متعة ولذة .

« لهم فيها » أى فى الجنة « فاكهة » كثيرة متنوعة « ولهم مايدعون » أى : ولهم فوق ذلك جميع مايطلبونه من مطالب وما يتمنونه من أمنيات .

فقوله : « يدعون » يصح أن يكون من الدعاء بمعنى الطلب ، كما يصح أن يكون من الإدعاء بمعنى التمنى .

يقال : أدع على ماشئت أى : تمن على ماشئت . ويقال : فلان فى خير مايدعى ، أى : فى خير مايتمنى ...

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذا العطاء الجزيل للمؤمنين بقوله : « سلام قولا من رب رحيم » .

وللمفسرين فى إعراب قوله : «سلام» أقوال منها : أنه مبتدأ خبره الناصب للفظ « قولا » أى : سلام يقال لهم قولا ...[٢] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٠٠

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢١ .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى بعض هذه الأقوال فقال : وقوله : « سلام » بدل من قوله « ما يدعون » كأنه قال لهم : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم .

والمعنى : أن الله - تعالى - يسلم عليهم بواسطه الملائكة ، أو بغير واسطة ، مبالغة فى تكريمهم ، وذلك غاية متمناهم . . »(١) .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه ابن أبي حاتم - بسنده - عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بينما أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب - تعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : « سلام قولا من رب رحيم » قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه . حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم »(٢) .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة - كما يقول الإمام الفخر الرازى - يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا فى تعب ، كما تشير إلى وحدتهم ، وإلى حسن المكان ، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه ، وإلى تلذذهم بالنعيم وإلى تلقيهم لأجمل تحية . . »(٣) .

هذا هو حال المؤمنين ، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم ، فماذا يقال للمجرمين .

لقد بين - سبحانه - بعد ذلك ما يقال للمجرمين فقال : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » أى : ويقال للمجرمين فى هذا اليوم - على سبيل الزجر والتأنيب انفردوا - أيها المجرمون - عن المؤمنين ، واتجهوا إلى ما أعد لكم من عذاب فى جهنم ، بسبب كفركم وجحودكم للحق .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٢ . (٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٠ .
(٣) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٠١ .

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره .

قال تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون »(١) .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : « ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » من جملة ما يقال لهم - أيضاً - على سبيل التقريع والتوبيخ .

والعهد بالشيء : الوصية به ، والمراد به هنا : وصية الله - تعالى - للناس على ألسنة رسله ، أن يخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن يخالفوا : ما يوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية .

قال الآلوسي : والمراد بالعهد هنا . ما كان منه - تعالى - على ألسنة الرسل - عليهم السلام - من الأوامر والنواهي التي من جملتها قوله - تعالى - : « يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ... » .

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر ، إذ قال - سبحانه - : « ألست بربكم قالوا بلى » .

وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله - تعالى - الزاجرة عن عبادة غيره ...

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزينه لهم ، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها .

والمعنى : لقد عهدت إليكم - يابني آدم - عهداً مؤكداً على ألسنة رسلي ، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته ، وأن لا تتبعوا خطواته ، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة ، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء .

(١) سورة الروم الآيات من ١٤ - ١٦ .

فجملة « إنه لكم عدو مبين » تعليل لوجوب الانتهاء عن طاعة الشيطان .

وقوله : « وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » بيان لما يجب عليهم أن يفعلوه بعد النهى عما يجب عليهم أن يجتنبوه » .

و « أن » فى قوله « أن لاتعبدو » وفى قوله « وأن اعبدونى » مفسرة ، والجملة الثانية معطوفة على الأولى .

أي : لقد عهدت إليكم بأن تتركوا عبادة الشيطان ، وعهدت إليكم أن تعبدوني وحدى دون غيرى .

فالإشارة فى قوله : « هذا صراط مستقيم » تعود إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .

أي : هذا الذى أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لى هو الطريق الواضح المستقيم ، الذى يوصلكم إلى عز الدنيا ، وسعادة الآخرة .

وقوله - سبحانه - ، «ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون» استئناف مسوق لتأكيد النهى عن طاعة الشيطان . ولتشديد التوبيخ لمن اتبع خطواته .

« وجبلا كثيرا » بمعنى : خلقا كثيرا حتى إنهم لكثرتهم كالجبل العظيم .

ولفظ « جبلا » قرأه نافع وعاصم - بكسر الجيم والباء ، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائى « جبلا » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وقرأه أبو عمرو وابن عامر « جبلا » بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام وجميع القراءات بمعنى واحد .

أي : ولقد أغوى الشيطان منكم يابنى آدم خلقا كثيرا ، فهل عقلتم ذلك ،

واتعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم، وأخلصتم لنا العبادة والطاعة، واتخذتم الشيطان عدوا لكم كما صرح هو بعداوتكم. وبالعمل على إغوائكم.

قال - تعالى - : «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير»(١).

وقال - سبحانه - حكاية عنه. «قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين ...»(٢).

وبعد هذا التوبيخ لمن أطاعوا الشيطان، يقال لهم في النهاية: «هذه جهنم التي كنتم توعدون».

أي: هذه جهنم ماثلة أمام أعينكم أيها الكافرون، وهي التي كنتم توعدون بها في الدنيا. وكنتم تقابلون ذلك بالسخرية والتكذيب.

«اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون أي: ذوقوا حرها ولهيبها وسعيرها، بسبب كفركم في الدنيا، وموتكم على هذا الكفر.

والأمر في قوله - تعالى - : «اصلوها» للتحقير والإهانة، كما في قوله - تعالى - : «ذق إنك أنت العزيز الكريم»، والذين يأمرونهم بذلك هم خزنة النار، بأمر من الله - تعالى -.

ثم تنتقل السورة الكريمة فتحكى لنا جانبا آخر من أحوال الكافرين في هذا اليوم العصيب، كما تحكى لنا جانبا من مظاهر قدرة الله - تعالى - فتقول:

«اليومَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم وتُكَلِّمُنَا أيديهِمْ، وتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كانُوا يَكسِبُونَ (٦٥) ولو نشاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِم فاستبقوا الصِّرَاطَ فأنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) ولو نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مكانتهِمْ فما استطاعُوا مُضِيًّا ولا يَرْجِعُونَ (٦٧) ومَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أفلا يَعْقِلُونَ (٦٧)».

(١) سورة فاطر الآية ٦.
(٢) سورة ص الآية ٨٢، ٨٣.

والمراد باليوم فى قوله ـ تعالى ـ : « اليوم نختم على أفواههم ... » يوم القيامة .

وقوله : « نختم » من الختم ، والختم الوسم على الشىء بطابع ونحوه . مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء وطبعه فيه للاشتياق ، لكى لا يخرج منه ماهو بداخله ، ولا يدخله ماهو خارج عنه .

أى : فى يوم القيامة نختم على أفواه الكافرين فنجعلها لا تنطق ، وإنما تكلمنا أيديهم ، وتشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبونه فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة .

قالوا : وسبب الختم على أفواههم ، أنهم أنكروا أنهم كانوا مشركين فى الدنيا ، كما حكى عنهم ـ سبحانه ـ ذلك فى قوله ـ تعالى ـ : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين »(١) .

أو ليكونوا معروفين لأهل الموقف فى ذلك اليوم العصيب . أو لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق ... أو ليعلموا أن أعضاءهم التى ارتكبت المعاصى فى الدنيا ، قد صارت شهودا عليهم فى الآخرة .

وجعل ـ سبحانه ـ ما تنطق به الأيدى كلاما ، وما تنطق به الأرجل شهادة ، لأن مباشرة المعاصى ـ غالبا ـ تكون بالأيدى ، أما الأرجل فهى حاضرة لما ارتكب بالأيدى من سيئات ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له ، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله .

قال الجمل : وقال الكرخى : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا ، أو قهراً . والإقرار مع الإجبار غير مقبول . فقال : تكلمنا

(١) سورة الأنعام آية ٢٣ .

أيديهم وتشهد أرجلهم ، أى : باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام، ليكون أدل على صدور الذنب منهم[1] .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث . التى صرحت بأن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما ارتكبه فى الدنيا من سيئات . ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه قال : كنا عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مجادلة العبد ربه يوم القيامة .

يقول : رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز على إلا شاهدا من نفسى ، فيقول الله - تعالى - له : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا .

قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه - أى لأعضائه - : « انطقى » . فتنطق بما عمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل »[2] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ... »[3] .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين هم فى قبضته فى كل وقت فقال : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون » .

وقوله : « لطمسنا » : الطمس إزالة الشىء عن طريق محوه . يقال: طمست الشىء طمسا من باب ضرب بمعنى محوته وأزلت أثره . والمطموس والطميس

---

(١) حاشيه الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٣ ، وتفسير القرطبى ج ١٥ ص ٤٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٩ و ٢٠ .

الأعمى . ومفعول المشيئة محذوف . والصراط : الطريق وهو منصوب بنزع الخافض .

أى : ولو نشاء طمس أعينهم بأن نمحو عنها الرؤية والإبصار لفعلنا ، ولكننا لم نفعل بهم ذلك فضلا منا عليهم ، ورحمة بهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوا نعمنا بالشكر لا بالكفر .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فاستبقوا الصراط » معطوف على « لطمسنا » على سبيل الفرض .

أى : لو نشاء محو أبصارهم لمحوناها ، فلو أرادوا فى تلك الحالة المبادرة إلى الطريق ليسيروا فيه ، أو ليعبروه لما استطاعوا ذلك ، لأنهم كيف يستطيعون ذلك وهم لا يبصرون شيئا .

فالاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « فأنى يبصرون » لاستبعاد إجتيازهم الطريق ، ونفى قدرتهم على التصرف .

وقوله ـ سبحانه ـ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون » والمسخ : تبديل الخلقة وتحويلها من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة .

أى : وفى قدرتنا إذا شئنا ، أن نغير صورهم الإنسانية ، إلى صور أخرى قبيحة كأن نحولهم إلى قردة أو حيوانات وهم « على مكانتهم » أى : وهم فى مكانهم الذى يقيمون فيه « فما استطاعوا » بسبب هذا المسخ «مضيا» أى : ذهابا إلى مقاصدهم « ولا يرجعون » أى : ولما استطاعوا ـ أيضا ـ إذا ذهبوا أن يرجعوا .

أى : فى إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون فى أماكنهم ، فلا يقدرون أن يمضوا إلى الأمام ، أو أن يعودوا إلى الخلف .

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديدهم على استمرارهم فى كفرهم وبيان أنهم تحت قدرة الله ـ تعالى ـ وفى قبضته ، وأنه ـ سبحانه ـ قادر على أن

يفعل بهم مايشاء من طمس للأبصار ، ومن مسخ للصور ، ومن غير ذلك مما يريده - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - أحوال الإنسان عندما يتقدم به العمر فقال : « ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون » .

وقوله : « نعمره » من التعمير ، بمعنى إطالة العمر .

قال القرطبي : وقوله : « ننكسه » قرأه عاصم وحمزه - بضم النون الأولى وتشديد الكاف - من التنكيس . وقرأه الباقون: «ننكسه» - بفتح النون الأولى وضم الكاف - من نكست الشيء أنكسه نكسا إذا قلبته على رأسه فانتكس .

قال قتادة : المعنى : أنه يصير إلى حال الهرم الذى يشبه حال الصبا . . .
قال الشاعر :

من عاش أخلفت الأيام جدته وخانه ثقتـاه السمع والبصر

فطول العمر يصير الشباب هرما ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا . . وقد استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من أن يرد إلى أرذل العمر . . »[1] .

والمعنى : ومن نطل عمره ننكسه فى الخلق ، أي : نرده إلى أرذل العمر ، فنجعله - بقدرتنا - ضعيفا بعد أن كان قويا ، وشيخاً بعد أن كان شابا فتيا ، وناقص العقل بعد أن كان مكتمله . . . « أفلا تعقلون » ذلك - أيها الناس - مع أنه من الأمور المشاهدة أمام أبصاركم ، وتعرفون أن من قدر على تحويل الإنسان من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف . . . قادر - أيضاً - على إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد موته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا ، وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير »[2] .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٥١
(٢) سورة الروم آية ٥٤ .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا »[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد هددت الكافرين بسوء المصير إذا استمروا فى كفرهم ، وبينت جانبا من فضل الله ــ تعالى ــ عليهم ، لعلهم يفيئون إلى رشدهم ، ويشكرونه على نعمه .

ثم رد ـ سبحانه ـ على الكافرين الذين وصفوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه شاعر ، كما قالوا عن القرآن أنه شعر ، فقال ـ تعالى ـ :

« وما عَلَّمْنَاه الشعرَ ، وما يَنبغى له ، إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ وقرآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ (٧٠) » .

أى : وما علمنا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعر ، وإنما الذى علمناه إياه هو القرآن الكريم ، المشتمل على مايسعد الناس فى دنياهم وفى آخرتهم .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة . نفى أن يكون القرآن شعرا بأبلغ وجه ، لأن الذى علمه الله ـ تعالى ـ لنبيه هو القرآن وليس الشعر ، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعرا .

وقوله ـ تعالى ـ : « وما ينبغى له » أى : ماعلمناه الشعر وإنما علمناه القرآن فقد اقتضت حكمتنا أن لانجعل الشعر فى طبعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا فى سليقته ، حتى لو حاوله ـ على سبيل الفرض ـ فإنه لايتأتى له ، ولا يسهل عليه ولا يستقيم مع فطرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والضمير فى قوله ــ تعالى ــ : « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » يعود إلى القرآن الكريم :

أى : ماهذا القرآن الكريم إلا ذكر من الأذكار النافعة ، والمواعظ الناجعة والتوجيهات الحكيمة ، وهو فى الوقت نفسه « قرآن مبين » أى : كتاب مقروء من الكتب السماوية الواضحة ، التى لاتختلط ولا تلتبس بكلام البشر .

(١) سورة النحل الآية ٧٠

وقد أنزلناه على الرسول الكريم « لينذر » به « من كان حيا » .

أي : من كان مؤمنا عاقلا ذا قلب حي ، ونفس نقية ، وأذن واعية ، لأن من كانت هذه صفاته انتفع بالإنذار والتذكير .

« ويحق القول على الكافرين » أي : أن من كان ذا قلب فإنه ينتفع بالإنذار ، أما من كان مصرا على كفره وضلاله ، فإن كلمة العذاب قد حقت عليه ، وصارت نهايته الإلقاء به في جهنم وبئس القرار .

وقد تكلم المفسرون هنا كلاما مفصلا . عن كون القرآن ليس شعرا ، وكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس شاعرا ، وعلى رأسهم صاحب الكشاف فقد قال ماملخصه : « كانوا يقولون لرسول الله - صلى عليه وسلم - إنه شاعر ، فرد الله عليهم بقوله : « وما علمناه الشعر » أي : أن القرآن ليس بشعر ، وأين هو من الشعر ، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن ؟ وأين التقفية ؟

وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه ؟ وأين نظام كلامهم من نظمه وأساليبه . . .

« وما ينبغي له » أي : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل ، كما جعلناه أميا . . لتكون الحجة أثبت ، والشبهة أدحض . . .

فإن قلت : فقوله :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

قلت : ماهو إلا كلام من جنس كلامه - صلى الله عليه وسلم - الذي كان يرمى به على السليقة . من غير صنعة ولا تكلف . إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا ، كما يتفق في كثير من

لإنشاءات الناس فى خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر ..... »[1] .

ثم ذكر - سبحانه - المشركين ببعض النعم التى أسبغها عليهم ، والتى يرونها بأعينهم ، ويعلمونها بعقولهم ، وسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه منهم ، فقال - تعالى - :

« أَوَلَمْ يَرَوْا أنا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مالِكُونَ (٧١) وذَلَّلْنَاهَا لَهُم ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُم وِمِنْهَا يأكُلُونَ (٧٢) ولَهُمْ فيها منافِعُ ومَشَارِبُ أفلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُم يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ (٧٦) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ... » للإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والأنعام : جمع نعم : وهى الإبل والبقر والغنم .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا ، ولم يروا بأعينهم ، ولم يعلموا بعقولهم . أنا خلقنا لهم مما عملته أيدينا ، وصنعته قدرتنا . أنعاما كثيرة هم لها مالكون يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه .

وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدى ، للاشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته - تعالى - وحده دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، أو يعاونه

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج٤ ص ٢٩ . وراجع تفسير الآلوسى ج٢٣ ص ٤٧ .

معاون . كما يقول القائل : هذا الشيء فعلته بيدي وحـــدي ، للدلالة على تفرده بفعله :

والتعبير بقوله - تعالى - : « لهم » للاشعار بأن خالق هذه الأنعام إنما حدث لمنفعتهم ومصلحتهم .

و « ما » في قوله « مما عملت » موصولة ، والعائد محذوف . أي عملته أيدينا .

وقوله : « فهم لها مالكون » بيان لإحدى المنافع المترتبة على خلق هذه الأنعام لهم .

أما المنافع الأخرى فقد جاءت بعد ذلك في قوله : « وذللناها لهم . . » أي : وجعلنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم ، بحيث أصبحت في أيديهم سهلة القيادة ، مطواعة لما يريدونه منها ، يقودونها فتنقاد للصغير والكبير . كما قال القائل :

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير[١]
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير[٢]

ففي هذه الجملة الكريمة تذكير لهم بنعمة تسخير الأنعام لهم ، ولو شاء - سبحانه - لجعلها وحشية بحيث ينفرون منها .

والفاء في قوله : « فمنها ركوبهم ومنها يأكلون » تفريع على ماتقدم وركوب بمعنى مركوب .

أي : وصيرنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم ، فمنها مايستعملونه في

(١) الجرير : الحبل الذي يربط به البعير .
(٢) فلا غير لديه ولا نكير : أي فلا غيرة لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خسف .

وركوبهم والانتقال عليها من مكان إلى آخر ، ومنها ما يستعملونه فى مآكلهم عن طريق ذبحه .

وفضلا عن كل ذلك ، فإنهم « لهم » فى تلك الأنعام « منافع » أخرى غير الركوب وغير الأكل كالانتفاع بها فى الحراثة وفى نقل الأثقال ... ولهم فيها - أيضاً - « مشارب » حيث يشربون من ألبانها .

والاستفهام فى قوله : « أفلا يشكرون » للتحضيض على الشكر . أى : فهلا يشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، ويخلصون له العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى من هذه النعم فقال : « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون » .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يقابلوا نعمنا عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر ، فقد تركوا عبادتنا ، واتخذوا من دوننا آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، متوهمين أنها تنصرهم عند ما يطلبون نصرها . وراجين أن تدفع عنهم ضرا عند التماس ذلك منها .

وقوله - تعالى - : « لا يستطيعون نصرهم .. » دفع لما توهموه من نصرهم ونفى لما توقعوه من نفعهم .

أى : هذه الآلهة المزعومة ، لا يستطيعون نصر هؤلاء الكافرين . لأنهم أعجز من أن ينصروا أنفسهم ، فضلا عن نصرهم لغيرهم .

وقال - سبحانه - : « لا يستطيعون » بالواو والنون على طريقة جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تعقل .

والضمير « هم » فى قوله - تعالى - : « وهم لهم جند محضرون » يعود إلى المشركين ، والضمير فى قوله « لهم » يعود إلى الآلهة المزعومة .

أى : وهؤلاء الكفار - لجهالتهم وانطماس بصائرهم - قد صاروا فى الدنيا

بمنزلة الجند الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة والدفاع عنها . والحضور عندها لخدمتها ، ورعايتها وحفظها .

ويرى بعضهم أن الضمير « هم » للآلهة ، والضمير فى « لهم » للمشركين ، عكس القول الأول ، فيكون المعنى : وهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر المشركين وهم - أى الآلهة - « لهم » أى : المشركين ، « جند محضرون » أى : جند محضرون معهم إلى النار ، ليلقوا فيها كما يلقى الذين عبدوهم ، كما قال - تعالى - « يأيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فلا يحزنك قولهم » للإفصاح . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من الجهالة والغفلة، فأعرض عنهم ، ولا تحزن عليهم ، ولا تبال بأقوالهم .

وقوله - سبحانه - : « إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » تعليل للنهى عن الحزن بسبب أقوالهم . أى لا تحزن - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوالهم ال... ، فإنا نعلم علما تاما ما يسرونه من حقد عليك وما يعلنونه من أعمال قبيحة ، و... ـاقبهم على كل ذلك العقاب الذى يستحقونه .

... ـة الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلقاه من هؤلاء المشركين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شىء ، فقال - تعالى - :

« أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطفةٍ فإذا هُوَ خَصِيمٌ مبينٌ (٧٧) وضربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحيِيهَا الذى أَنشأَهَا أَوَّلَ مرةٍ وهُوَ بِكلِّ خَلْقٍ عليمٌ (٧٩) الذى جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأخضرِ نَاراً ، فإذَا أَنْتُم مِنْهُ

تُوقِدُونَ (٨٠) أوليسَ الذى خَلَقَ السَّموات والأرضَ بقادرٍ عَلَى أنْ يخلُقَ مِثلَهم ، بَلَى وهُوَ الخلاَّقُ العـليمُ (٨١) إنَّما أَمْرُه إذَا أَرادَ شيئاً أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيـكونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الذى بِيَدِه ملـكُوتُ كلِّ شىءٍ وإليهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)» .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات، أن أبى بن خلف جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه فى الهواء ويقول يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم، يميتك الله ـ تعالى ـ ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار . ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة » .

والمراد بالإنسان : جنسه . ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا .

وأصل النطفة : الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة . وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .

والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل .

والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين الذى يخرج من الرجل فيصب فى رحم المرأة . وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لغفلته وعناده ، بادر بالمبالغة فى الخصومة والجدل الباطل ، وجاهر بذلك مجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ـ تعالى ـ : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه

من نطفة، كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث، بعد ماشاهدوا في أنفسهم مايوجب التصديق به .. والهمزة للإنكار والتعجب من أحوالهم وإيراد الإنسان مورد الضمير، لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان. والمراد بالإنسان الجنس. والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقا.

وقوله: «فإذا هو خصيم مبين» عطف على الجملة المنفية، داخل في حيز الإنكار والتعجب كأنه قيل: أو لم يرانا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها، فأظهر الخصومة في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة ...»(١).

وقوله - تعالى - : «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم» معطوف على الكلام المتقدم، وداخل في حيز الإنكار.

أي: أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل، لم يكتف بذلك، بل ضرب لنا مثلا هو في غاية الغرابة، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى، وعلى بعثهم يوم القيامة، فقال: - دون أن يفطن إلى أصل خلقته - . من يحي العظام وهي رميم، أي: وهي بالية أشد البلى. فرميم بزنة فعيل بمعنى فاعل. من رم اللازم بمعنى بلي أو بمعنى مفعول. من رم المتعدي بمعنى أبلى. يقال: رمه إذا أبلاه، فيستوي فيه المذكر والمؤنث.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم سمى قوله: «من يحي العظام وهي رميم» مثلا؟

قلت: لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكار قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى ... مع أن ما أنكر من قبيل مايوصف الله - تعالى - بالقدرة عليه، بدليل النشأة الأولى.»(٢).

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٣ ص ٥٣

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٠

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيي هذه الأجساد البالية ، الله - تعالى - الذي أوجدها من العدم دون أن تكون شيئا مذكورا ، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه ، وهو - سبحانه - بكل شيء في هذا الوجود عليم علما تاما ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سواء أكان هذا الشيء صغيرا أم كبيرا ، مجموعا أم مفرقا .

قال الشوكاني : وقد إستدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة - أي أنها بعد الموت تكون نجسه - .

وقال الشافعي : لا تحله الحياة ، وأن المراد بقوله : « من يحي العظام » من يحيي أصحاب العظام ، على تقدير مضاف محذوف . ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر »[1] .

وقوله - تعالى - : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فإذا أنتم منه توقدون » دليل آخر على إمكانية البعث . وهو بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : « الذي أنشأها أول مرة ... » .

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر الندى الرطب ، كشجر المرخ والعفار وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر ، إتقدت منهما شرارة نار بقدرة الله - تعالى - .

قال ابن كثير : المراد بذلك سرح - أي : شجر - المرخ والعفار . ينبت

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص٣٨٣

بأرض الحجاز ، فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء بسواء .

روى هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى المثل : « لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار »[1] .

أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفار . فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث : يحيى الأجساد البالية الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل لكم - بفضله ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب ناراً ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار ، وتنتفعون بها فى كثير من أحوال حياتكم .

وإذا فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر - مع مافيه من المائية المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخا آخر ، فقال : « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » .

والاستفهام - كسابقة - للإنكار والتعجب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . والضمير فى « مثلهم » يعود إلى المنكرين للبعث .

والمعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض - وهما فى غاية العظم - قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذى هو صغير الشكل ، ضعيف القوة .

وجملة : « بلى وهو الخلاق العليم » جواب من جهته - تعالى - وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير مابعد النفى ، وتأكيد قدرته - سبحانه -

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٨١ .

على الخلق والإعادة . لأن « بلى » حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منفيا .

أى : بلى إنه لقادر ـ سبحانه ـ على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو ـ سبحانه ـ « الخلاق » أى : الكثير المخلوقات « العليم » أى : الكثير العلم بحيث لا يخفى عليه شيء .

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول قدرته لكل شيء فقال : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

أى : إنما شأنه ـ سبحانه ـ فى إيجاد الشيء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجودا فيكون ، أى : فهذا الشيء يكون ويوجد فى الحال . . . قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له « كن » قوله فيكون

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بتنزيهه ـ تعالى ـ عن كل نقص ، فقال « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

أى : فتنزه الله ـ تعالى ـ الذى له ملك كل شيء ملكا تاما ، والذى إليه المرجع والمآب ، عن كل ما يقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى .

فهو ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء ، ولا يخفى على علمه شيء ، ولا يحول دون قدرته شيء « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « يس » نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر : صباح الثلاثاء ٥ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ
الموافق ٢٣ / ٧ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لتفسير « سورة يس »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقــدمة	٣
١	يس ...	١٠
١٣	واضرب لهم مثلا ...	١٩
٢٠	وجاء من أقصى المدينة ...	٢٤
٣٣	وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ...	٣٣
٤٥	وإذا قيل لهم اتقوا ...	٤٤
٥٥	إن أصحاب الجنة ...	٥٠
٦٥	اليوم نختم على أفواههم ...	٥٦
٦٩	وما علمناه الشعر ...	٦١
٧١	أو لم يروا أنا خلقنا ...	٦٣
٧٧	أو لم يروا الإنسان أنا خلقناه ...	٦٦

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الصافات

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الثالث والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ ــ سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها كما ذكر صاحب الإتقان - بعد سورة « الأنعام »[1] .

ومعنى ذلك أن نزولها كان في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ، لأننا قد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أنه يغلب على الظن أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة[2] .

٢ ــ قال الآلوسي : هي مكية . ولم يحكوا في ذلك خلافا . وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين . ومائة واثنتان وثمانون آية عند غيرهم[3]

وتعتبر هذه السورة - من حيث عدد الآيات - السورة الثالثة من بين السور المكية ، ولا يفوقها في ذلك سوى سورتي الأعراف والشعراء .

٣ ــ وسميت بهذا الاسم لافتتاحها بقوله - تعالى - : « والصافات صفا » . وقد سماها بعض العلماء بسورة « الذبيح » ، وذلك لأن قصة الذبيح لم تأت في سور أخرى سواها .

٤ ــ وقد افتتحت سورة « الصافات بقسم من الله - تعالى - بجماعات من خلقه على أن الألوهية والربوبية الحقة إنما هي لله - تعالى - وحده ، ثم أقام

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن جـ ١ ص٢٧ .

(٢) راجع مقدمة تفسير سورة الأنعام للمؤلف .

(٣) تفسير الآلوسي جـ ٢٣ ص ٦٤ .

ـ سبحانه ـ بعد ذلك ألوانا من الأدلة على صدق هذه القضية ، منها خلقه للسموات والأرض وما بينهما ! ومنها تزيينه لسماء الدنيا بالكواكب .

قال ـ تعالى ـ : والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم لواحد . رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق . إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد ...

٥ — ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض الشبهات التى تذرع بها المشركون فى إنكارهم للبعث والحساب، ورد عليها بما يمحقها، فقال ـ تعالى ـ : «وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون . قل نعم وأنتم داخرون . فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون» ...

٦ — وبعد أن بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة هؤلاء المشركين ، وتوبيخ الملائكة لهم ، وإقبال بعضهم على بعض للتساؤل والتخاصم ... بعد كل ذلك بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة المؤمنين ، فقال ـ تعالى ـ : «وما تجزون إلا ما كنتم تعملون : إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ...» .

٧ — ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من المحاورات التى تدور بين أهل الجنة وأهل النار ، وكيف أن أهل الجنة يتوجهون بالحمد والشكر لخالقهم ، حيث أنعم عليهم بنعمة الإيمان ، ولم يجعلهم من أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم ...

قال ـ تعالى ـ : إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة

تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ... » .

٨ ـ ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة إبراهيم مع قومه . ومع ابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ .

ومن قصة موسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

٩ ـ ثم أخذت السورة الكريمة ـ فى أواخرها ـ فى توبيخ المشركين الذين جعلوا بين الله ـ تعالى ـ وبين الملائكة نسبا ، ونزه ـ سبحانه ـ ذاته عن ذلك . وهدد أولئك الكافرين بأشد ألوان العذاب بسبب كفرهم وأقوالهم الباطلة .

وبين بأن عباده المؤمنين هم المنصورون ، وختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله : سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

١٠ ـ والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ـ بعد هذا العرض المجمل لآياتها ـ يراها بأنها قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما يبلغه عن ربه ، وذلك لكى تغرس العقيدة السليمة فى النفوس . . . كما يراها تهتم بحكاية أقوال المشركين وشبهاتهم ... ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهقها ويبطلها .

كما يراها ـ كذلك ـ تسوق ألوانا من المحاورات التى تدور بين المشركين فيما بينهم عندما يحيط بهم العذاب يوم القيامة ، وألوانا من المحاورات التى تدور بينهم وبين أهل الجنة الذين نجاهم الله ـ تعالى ـ من النار وسعيرها .

كما يراها ـ أيضا تسوق لنا نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم . تارة بشىء من التفصيل كما فى قصة إبراهيم مع قومه . وتارة بشىء من التركيز والإجمال كما فى بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها . . .

وتمتاز بعرضها للمعاني والأحداث بأسلوب مؤثر، ترى فيه قصر الفواصل وكثرة المشاهد، والمواقف. مما يجعل القارىء لآياتها في شوق إلى ماتسوقه من نتائج ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

وكتبه الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ٨ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

٢٦ / ٧ / ١٩٨٥ م

« التفســـير »

قال الله - تعالى - :

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) » .

والواو فى قوله - تعالى - : « والصافات » للقسم . وجوابه قوله : « إن إلهكم لواحد » .

و « الصافات » من الصف ، وهو أن تجعل الشىء على خط مستقيم . تقول : صففت القوم فاصطفوا ، إذا أقمتهم على خط مستقيم . سواء أكانوا فى الصلاة ، أم فى الحرب، أم فى غير ذلك .

والزاجرات : من الزجر ، وهو الدفع بقوة . تقول : زجرت الإبل زجرا - من باب قتل - إذا منعتها من الدخول فى شىء ودفعتها إلى غيره .

والتاليات : من التلاوة ، بمعنى القراءة فى تدبر وتأمل .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات : جماعة من الملائكة ، موصوفة بهذه الصفات . . .

فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله - تعالى - وطاعته ، أو الذين يصفون أجنحتهم فى السماء انتظارا لأمر الله ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصى أو يزجرون السحاب إلى الجهات التى كلفهم الله - تعالى - بدفعه إليها ، والذين يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه تقربا إليه - تعالى - وطاعة له .

وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون فى قوله - تعالى - فى السورة نفسها : « وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون » .

كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء »(١) .

وفى حديث آخر رواه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : « يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون فى الصف »(٢) .

وجاء وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء ، لأجل الإعذار والإنذار به . كما فى قوله - تعالى - فى أوائل المرسلات : « فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا » .

قال الإمام ابن كثير : « قوله : « فالتاليات ذكرا » هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله - تعالى - : « فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا »(٣) ومنهم من يرى أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات هنا: العلماء الذين يصفون أقدامهم عند الصلاة وغيرها من الطاعات ، ويزجرون غيرهم عن المعاصى ، ويتلون كلام الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن المراد بالصافات : الطيور التى تصف أجنحتها فى الهواء وبالزاجرات وبالتاليات : جماعات الغزاة فى سبيل الله ، الذين يزجرون أعداء الله - تعالى - ويكثرون من ذكره .

ويبدو لنا أن القول الأول هو الأظهر والأرجح ، لأن الآيات القرآنية،

(١) صحيح مسلم كتاب المساجد جـ ٢ ص ٦٣ .
(٢) صحيح كتاب الصلاة جـ ٢ ص ٢٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣

والأحاديث النبوية التي سقناها قبل ذلك تؤيده ، ويؤيده - أيضا - ما يجيء بعد ذلك من أوصاف الملائكة كما في قوله - تعالى - : « لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ... » والمراد بالملأ الأعلى هنا : الملائكة ...

ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن مسعود وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد .

وإنما أقسم الله - تعالى - هنا بالملائكة ، لشرفهم ، وسمو منزلتهم وامتثالهم لأوامره - سبحانه - امتثالا تاما وله - تعالى - أن يقسم بما شاء من خلقه ، تنويها بشأن المقسم به ، ولفتا لأنظار الناس إلى ما فيه من منافع ...

ولفظ « الصافات » مفعوله محذوف ، والتقدير ، وحق الملائكة الصافات نفوسها أو أجنحتها طاعة وامتثالا لأمر الله - تعالى - .

والترتيب بالفاء في هـذه الصفات ، على سبيل الترقي ، إذ الأولى كمال ، والثانية أكمل ، لتعدى منفعتها إلى الغـير ، والثالثة أكمل وأكمل ، لتضمنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتخلي عن الرذائل ، والتحلي بالفضـائل .

وقوله « صفا ، وزجرا ، وذكرا » مصادر مؤكدة لما قبلها .

وقوله - سبحانه - : « إن إلهكم لواحد » جواب للقسم ، وهو المقسم عليه . أي : وحـق الملائكة الذين تلك صفاتهم ، إن ربكم - أيها الناس - لواحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في خلقه ...

وقوله : « رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » بدل من قوله « لواحد » أو خبر بعد خبر لمبتدأ محذوف .

أي : إن إلهكم - أيها الناس - لواحد : هو - سبحانه - رب السموات والأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات كالهواء وغيره ، ورب المشارق التي

تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العام ، إذ لها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها فى كل يوم - أيضاً - مغرب تغرب فيه .

واكتفى هنا بذكر المشارق على المغارب ، لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر ولأن الشروق أدل على القدرة ، وأبلغ فى النعمة ، ولأن الشروق سابق على الغروب . وقد قال - سبحانه - فى آية أخرى : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا »(١) .

والمراد بهما هنا جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .

وقال فى سورة الرحمن : « رب المشرقين ورب المغربين » أى : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربها أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما .

وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجىء هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة على سبيل التثنية ، وتارة على سبيل الجمع .

قال بعض العلماء : قوله ، ورب المشارق ، أى : ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السموات الفسيحة . . ولتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش عليها كذلك ، فالأرض فى دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس ، كان هناك مشرق على هذا القطاع . وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية . . وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ، أخبرهم الله - تعالى - بها فى ذلك الزمان القديم . . »(٢) .

---

(١) سورة المزمل الآية ٩ .
(٢) فى ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٤٦ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر قدرته فى خلقه لهذه السموات وكيف أنه - تعالى - قد زين السماء الدنيا بالكواكب. وحفظها من تسلل أى شيطان إليها فقال تعالى:

« إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ».

وقوله - تعالى - « زينا » من التزيين بمعنى التحسين والتجميل. والمراد بالسماء الدنيا: السماء التى هى أقرب سماء إلى الأرض. فالدنيا مؤنث أدنى بمعنى أقرب.

والكواكب: جمع كوكب وهو النجم الذى يرى فى السماء.

وقوله: « بزينة الكواكب » فيه ثلاث قراءات سبعية فقد قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب. أى: بلا تنوين فى لفظ « زينة ». وقرأ بعضهم بتنوين لفظ « زينة » وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه. وقرأ بعضهم بتنوين لفظ « زينة » ونصب لفظ الكواكب، على أنه مفعول لفعل محذوف أى: أعنى الكواكب.

والمعنى: إنا بقدرتنا وفضلنا زينا السماء الدنيا التى ترونها بأعينكم - أيها الناس - بالكواكب، فجعلناها مضيئة بحيث تهتدون بها فى سيركم من مكان إلى مكان:

كما قال - تعالى - فى آية أخرى: « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .... ».

---

(١) سورة الحجر آية ١٦.

وبما لاشك أن منظر السماء وهي مليئة بالنجوم ، يشرح الصدور، ويؤنس النفوس ، وخصوصا للسائرين فى فجاج الأرض ، أو ظلمات البحر ...

وقوله - سبحانه - : « وحفظا من كل شيطان مارد » بيان لما أحاط به - سبحانه - السماء الدنيا من حفظ ورعاية .

ولفظ « حفظا » منصوب على المصدرية بإضمار فعل قبله . أى : وحفظناها حفظا ، أو معطوف على محل « بزينة » .

والشيطان : كل متمرد من الجن والإنس والدواب . والمراد به هنا : المتمرد من الجن .

والمارد : الشديد العتو والخروج عن طاعة الله - تعالى - المتعرى من كل خير .

أى : إنا جعلنا السماء الدنيا مزينة بالكواكب وضيائها ، وجعلناها كذلك محفوظة من كل شيطان متجرد من الخير ، خارج عن طاعتنا ورحمتنا .

وقوله - سبحانه - : « لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب » جملة مستأنفة لبيان حالهم عند حفظ السماء ، وبيان كيفية الحفظ ، ولما يصيبهم من عذاب وهلاك إذا ما حاولوا استراق السمع منها .

ولفظ « يسمعون » بتشديد السين - وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء فى السين . والضمير للشياطين وقرأ الجمهور « لا يسمعون » بإسكان السين .

قال صاحب الكشاف : « الضمير فى « لا يسمعون » لكل شيطان ، لأنه فى معنى الشياطين ، وقرىء بالتخفيف والتشديد . وأصله « يتسمعون » . والتسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع ، أو فلم يسمع ...

فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟

قلت : المعدى بنفسه يفيد الإدراك . والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك .. »(١) .

والملأ فى الأصل : الجماعة يجتمعون على أمر فيملئون النفوس هيبة . والمراد بالملأ الأعلى هنا : الملائكة الذين يسكنون السماء .

وسموا بذلك لشرفهم ، ولأنهم فى جهة العلو ، بخلاف غيرهم فإنهم يسكنون الأرض .

وقوله : « ويقذفون » من القذف بمعنى الرجم والرمى . و « دحورا » مفعولا لأجله . أى : يقذفون لأجل الدحور ، وهو الطرد والإبعاد ، مصدر دحره يدحره دحرا ودحورا : إذا طرده وأبعده .

والواصب : الدائم ، من الوصوب بمعنى الدوام ، يقال : وصب الشىء يصب وصوبا ، إذا دام وثبت . ومنه قوله : وله الدين واصبا ، أى : دائما ثابتا :

والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بنور الكواكب ، وحفظناها - بقدرتنا ورعايتنا - من كل شيطان متجرد من الخير ، فإن هذا الشيطان وأمثاله كلما حاولوا الاستماع إلى الملائكة فى السماء ، لم نمكنهم من ذلك ، بل قذفناهم ورجمناهم بالشهب والنيران من كل جانب من جوانب السماء ، من أجل أن ندمرهم ونطردهم ونبعدهم عنها ، ولهم منا - فوق كل ذلك - عذاب دائم ثابت لا نهاية له .

وقوله : « إلا من خطف الخطفة .. » استثناء من الواو فى « يسمعون » و « من » فى محل بدل من الواو .

والخطف : الأخذ للشىء بسرعة وخفية واختلاس وغفلة من المأخوذ منه . أى : لا يسمع الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلا الشيطان الذى خطف

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٥ .

الخطفة من كلام الملائكة بسرعة وخفة، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر - دون ما يتعلق بالوحي - فإنه في هذه الحالة يتبع هذا الشيطان ويلحقه «شهاب ثاقب» أي: شعلة من النار تثقب الجو بضوئها فتهلكه وتحرقه وتثقبه وتمزقه.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا»(١).

ومما يدل على أن استراقهم للسمع، واختطافهم للخطفة، إنما يكون في غير الوحي، قوله - تعالى - «إنهم عن السمع لمعزولون»(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعا. قال: فلما بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل الشيطان إذا قعد مقعده، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه...»(٣).

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ المنكرين للبعث والحساب، وحكى جانبا من أقوالهم الباطلة حول هذه القضية، ورد عليهم ردا يزهق باطلهم... فقال - تعالى - :

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا، إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨، ٩.
(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٢
(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٥

إِلاَّ سِحْرٌ مبينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تراباً وعظاماً أَئِنَّا لمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آباؤُنَا الأولونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وأَنتُمْ داخِرونَ (١٨) فإنما هى زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فإذا هُمْ ينظُرونَ (١٩) وقالوا يَا وَيْلَنَا هذَا يومُ الدِّينِ (٢٠) هذَا يومُ الفَصْلِ الذى كُنْتُم بهِ تُكَذِّبونَ (٢١) ».

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فاستفتهم . . . » هى الفصيحة ، والاستفتاء : الاستخبار عن الشىء ومعرفة وجه الصواب فيه .

والمراد من الاستفهام فى الآية : توبيخ المشركين على إصرارهم على شركهم وجهلهم ، وتعجيب العقلاء من أحوالهم .

واللازب : أى : الملتصق بعضه ببعض . يقال : لزب الشىء يلزب لزبا ولزوبا ، إذا تداخل بعضا فى بعض ، والتصق بعضه ببعض. والطين اللازب: هو الذى يلزق باليد ـ مثلا ـ إذا ماالتقت به . قال النابغة الذبيانى :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

أى : ضربة ملازمة لا مفارقة لها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك ـ أيها الرسول الكريم ـ من أن كل شىء فى هذا الكون يشهد بوحدانيتنا وقدرتنا ، فاسأل هؤلاء المشركين « أهم أشد خلقا » أى : أهم أقوى خلقة وأمتن بنية ، وأضخم أجسادا . . . « أم من خلقنا » من ملائكة غلاظ شداد ، ومن سماوات طباقا ، ومن أرض ذات فجاج . . .

لاشك أنهم لن يجدوا جوابا يردون به عليك ، سوى قولهم : إن خلق الملائكة والسموات والأرض ، أشد من خلقنا .

وقوله ـ تعالى ـ « إنا خلقناهم من طين لازب » إشارة إلى المادة الأولى التى خلقوا منها فى ضمن خلق أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ .

أى: إنا خلقناهم من طين ملتصق بعضه ببعض ، ومتداخل بعضه فى بعض.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ساقت دليلين واضحين على صحة البعث الذى أنكره المشركون .

أما الدليل الأول فهو ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة .. أعظم وأكبر منهم ... ومن كان قادرا على خلق الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادرا على خلق الأقل والأصغر .

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذه الحقيقة فى آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(١) .

وأما الدليل الثانى فهو قوله ـ تعالى ـ : « إنا خلقناهم من طين لازب » وذلك لأن من خلقهم أولا من طين لازب ، قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما .

إذ من المعروف لدى كل عاقل أن الإعادة أيسر من الإبتداء . وقد قرر ـ سبحانه ـ هذه الحقيقة فى آيات منها قوله ـ تعالى ـ : « وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »(٢) .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن حال هؤلاء المشركين تدعو إلى العجب فقال : « بل عجبت ويسخرون » .

قال الجمل : وقوله : « بل عجبت » إضراب إما عن مقدر دل عليه قوله: « فاستفتهم » أى : هم لا يقرون بل عجبت . وإما عن الأمر بالاستفتاء ، أى : لا تستفتهم فإنهم معاندون ، بل انظر إلى تفاوت حالك ... »(٣) .

(١) سورة غافر الآية ٥٧

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٣٢ .

أى : بل عجبت - أيها الرسول الكريم - ومن حقك أن تعجب ، من إنكار هؤلاء الجاحدين لإمكانية البعث ، مع هذه الأدلة الساطعة التى سقناها لهم على أن البعث حق .

وجملة « ويسخرون » حالية . أى : والحال أنهم يسخرون من تعجبك من إنكارك عليهم ذلك ، ومن إيمانك العميق بهذه الحقيقة ، حتى إنك لترددها على مسامعهم صباح مساء .

قال الآلوسى : « وقرأ حمزة والكسائى : « بل عجبت » - بضم التاء - . . . وأولت هذه القراءة بأن ذلك من باب الفرض ، أى : لو كان العجب مما يجوز على لعجبت من هذه الحال . . .

ثم قال : والذى يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وهو فى الله - تعالى - بمعنى يليق لذاته - تعالى - ، وهو - سبحانه - أعلم به ، فلا يعيبون معناه . . »(1) .

وقوله - تعالى - : « وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون » بيان لشدة تماديهم فى الباطل ، وإصرارهم عليه .

أى : أن هؤلاء القوم من دأبهم ومن صفاتهم الملازمة لهم ، أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم لا يتعظون ، وإذا رأوا آية واضحة فى دلالتها على الحق « يسخرون » ، أى : يبالغون فى السخرية وفى الاستهزاء بها ؛ يقال : إستسخر القوم من الشىء ، إذا استدعى بعضهم بعضا للاستهزاء به .

ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بالسخرية ، بل قالوا أقوالا تدل على جحودهم وجهلهم ، فقال - تعالى - : « وقالوا إن هذا إلا سحر مبين » .
أى : وقالوا - على سبيل الجحود والعناد - ما هذا الذى أتانا به محمد

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٣٣ .

- صلى الله عليه وسلم - إلا سحر واضح بين ، ولا يشك أحد منا في كونه كذلك .

« أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون » .

أي : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ماجاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة في الإنكار لما جاءهم به قولهم : أئذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا في قبورنا ، وصرنا ترابا وعظاما ، أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعوثون أيضاً ؟

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التي لا يعجزها شيء . والتي من آثارها إيجادهم من العدم . . .

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يخرس ألسنتهم فقال : « قل نعم وأنتم داخرون » .

أي : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ستبعثون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، وأنتم جميعا « داخرون » أي : صاغرون مستسلمون ، لا يستطيعون التأخر أو التردد . . . يقال : دخر الشخص يدخر - بفتح الخاء - دخورا ، إذ أذل وصغر وهان .

ثم بين - سبحانه - أن بعثهم من قبورهم إنما يقع بصيحة واحدة فقال : « فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون » .

والزجرة واحدة من الزجر . يقال : زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها ، ومنعها من شيء معين . والضمير راجع إلى البعثة المدلول عليها بسياق الكلام والفاء : هي الفصيحة .

أي : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فإنما بعثهم من مرقدهم يكون بصيحة

واحدة يصيحها إسرافيل فيهم بأمرنا ، فإذاهم قيام من قبورهم ينظرون إلى ما حولهم فى ذهول ، وينتظرون فى استسلام وذلة حكم الله - تعالى - فيهم.

والمراد بهذه الزجرة النفخة الثانية التى يقوم بها إسرافيل بأمر الله - تعالى - كما قال - تعالى - : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »(١) .

والتعبير عن الصيحة بالزجرة ، للدلالة على شدتها وعنفها على هؤلاء المشركين ، وأنها قد أتتهم ممن لا يستطيعون معصية أمره.

ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد هذه الزجرة فقال : « وقالوا ياويلنا » أى : وقالوا بعد أن خرجوا من قبورهم فى ذهول : « ياويلنا » أى : ياهلاكنا احضر فهذا أوان حضورك.

وقوله : « هذا يوم الدين » يصح أن يكون من كلام بعضهم مع بعض بعد أن رأوا أن ماكانوا ينكرونه ، قد أصبح حقيقة واقعة أمام أعينهم.

أى : قال بعضهم لبعض فى ذعر وفزع : يا ويلنا هذا يوم الجزاء على الأعمال ، الذى كنا ننكره فى الدنيا ، قد أصبح حقيقة ماثلة أمام أعيننا.

ويصح أن يكون هو وما بعده ، وهو قوله - تعالى - : « هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون » من كلام الملائكة على سبيل التأنيب لهم.

أى : تقول لهم الملائكة : اطلبوا ماشئتم من الويل والهلاك ، فهذا اليوم هو يوم الجزاء على الأعمال ، وهو يوم الفصل والقضاء الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، وتستهزئون ممن يأمركم بحسن الاستعداد له ، وينذركم بسوء المصير إذا ما مرتم فى طريق الكفر به ، والإنكار له.

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم ، وصور أحوالهم البائسة تصويرا

---

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .

تقشعر من هوله الجلود، وحكى جانبا من حسراتهم خلال تساؤلهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

« احْشُرُوا الذينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهم وما كانوا يَعبدُونَ (٢٢) مِنْ دُون اللهِ فاهْدُوهمُ إلى صراطِ الْجَحِيم(٢٣) وقِفُوهمُ إنَّهُم مَسْئولونَ(٢٤) مالَكُم لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُم اليومَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وأقبلَ بَعْضُهم عَلَى بَعض يَتَسَاءلونَ (٢٧) قالوا إنكم كُنتُم تأتونَنَا عَن اليمينِ (٢٨) قالوا بَلْ لم تكونوا مُؤمِنِينَ (٢٩) وما كانَ لَنا عليكُم مِنْ سُلطانٍ بَلْ كُنتُم قوماً طاغِينَ(٣٠) فحقَّ علينا قولُ رَبِّنا إنَّا لذائقُونَ(٣١) فأغوَيْنَاكُم إنّا كُنّا غاوِينَ(٣٢) فإنَّهم يومئذٍ في العذاب مُشتركُونَ(٣٣) إنّا كذلكَ نفعَلُ بالمجرمِين (٣٤) إنَّهم كانوا إذَا قيلَ لَهُم لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ يَستَكبِرُونَ (٣٥) ويقُولون أئنَّا لتارِكُوا آلِهتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاء بالْحَقِّ وصدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إنكُمْ لذائقُوا العَذابِ الأليمِ (٣٨) وما تُجزَوْنَ إلا ما كُنتُم تَعمَلُونَ (٣٩)» .

وقوله - تعالى - : « احشروا » من الحشر بمعنى الجمع مع السوق . يقال : حشر القائد جنده حشرا - من باب قتل - إذا جمعهم . والمحشر : المكان الذى يجتمع فيه الخلائق .

والمراد بالذين ظلموا : المشركون الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . ومن الآيات التى وردت وأطلق فيها الظلم على الشرك والكفر ، قوله - تعالى - : « إن الشرك لظلم عظيم » وقوله - سبحانه - : « والكافرون هم الظالمون » .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - فسر الظلم بالشرك فى قوله - تعالى - : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

والمراد « بأزواجهم » : أشباههم ، ونظراؤهم وأمثالهم فى الشرك والكفر ، وهذا التفسير مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ، منهم : عمر بن الخطاب والنعمان بن بشير ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو العالية ...

وقيل المراد « بأزواجهم » : قرناؤهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه ..

وقيل المراد بهم : نساؤهم اللائى كن على دينهم ، بأن كن مشركات فى الدنيا كأزواجهن ، ويبدو لنا أن جميع من ذكروا محشور - والعياذ بالله - إلى جهنم ، إلا أن تفسير الأزواج هنا : بالأشباه والنظائر والأصناف أولى ، خصوصا وأن إطلاق الأزواج على الأصناف والأشباه جاء كثيرا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » .

والمراد بما كانوا يعبدونه : الآلهة الباطلة التى كانوا فى الدنيا يعبدونها من دون الله ، كالأصنام والأوثان .

والأمر من الله - تعالى - للملائكة فى هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة .

أى : احشروا واجمعوا الذين كانوا مشركين فى الدنيا ، واجمعوا معهم كل من كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، ثم اجمعوا معهم - أيضا - آلهتهم الباطلة التى عبدوها من دون الله - تعالى - ثم ألقوا بهم جميعا فى جهنم ، ليذوقوا سعيرها وحرها .

وفى حشر الآلهة الباطلة مع عابديها ، زيادة تحسير وتخجيل لهؤلاء العابدين ، لأنهم رأوا بأعينهم بطلان وفسر أن ما كانوا يفعلونه فى الدنيا .

والضمير فى قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، يعود إلى المشركين وأشباههم وآلهتهم . وقوله : « فاهدوهم » من الهداية بمعنى الدلالة على الشىء والإرشاد إليه .

أى : احشروهم جميعا جهنم ، وعرفوهم طريقها إن كانوا لا يعرفونه ، وأروهم إياه إن كانوا لا يرونه .

والتعبير بالهداية والصراط فيه ما فيه من التهكم بهم ، والتأنيب لهم ، فكأنه - سبحانه - يقول : بما أنهم لم يهتدوا فى الدنيا إلى الخير وإلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا فى الآخرة إلى صراط الجحيم .

وقوله - سبحانه - : « وقفوهم إنهم مسئولون » زيادة فى توبيخهم وإذلالهم . والموقف هنا : بمعنى الحبس .

قال القرطبى : « يقال : وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا .. أى : احبسوهم . وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم ، وفيه تقديم وتأخير ، أى : قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار .... »(١) أى : واحبسوهم فى موقف الحساب ، لأنهم مسئولون عما كانوا يقترفونه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأفعال منكرة ، وأقوال باطلة .

ولا تعارض بين هذه الآية وأمثالها من الآيات التى صرحت بأن المجرمين يسألون يوم القيامة ، وبين آيات أخرى صرحت بأنهم يسألون كما فى قوله - تعالى - : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .

أقول لا تعارض بين هذه الآيات ، لأن فى يوم القيامة مواقف متعددة ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٧٤ .

فقد يسألون فى موقف ولا يسألون فى آخر .. أو أن السؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والسؤال المنفى هو سؤال الاستعلام والاستخبار ...

وقوله - تعالى - : « ما لكم لا تناصرون » تقريع آخر لهم ، أى : ما الذى جعلكم فى هذا اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم - أيها الكافرون - ، مع أنكم فى الدنيا كنتم تزعمون أنكم جميع منتصر ؟

ثم أضرب - سبحانه - عما تقدم إلى بيان حالهم يوم القيامة فقال : « بل هم اليوم مستسلمون » .

والاستسلام : أصله طلب السلامة . والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق . يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

أى : ليسوا فى هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

ثم يحكى - سبحانه - ما يدور بينهم من مجادلات يوم القيامة فيقول : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

ويبدو أن التساؤل والتجادل هنا . يكون بين الأتباع والمتبوعين ، أو بين العامة والزعماء .

كما تدل عليه آيات منها قوله - تعالى - : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم لكنا مؤمنين »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الضعفاء للزعماء فقال : « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » ، وللمفسرين فى تأويل معنى اليمين هنا اتجاهات منها :

(١) سورة سبأ آية ٣١ .

أن المراد باليمين هنا : الجهة التي هي جهة الخير واليمن : أى : قال للضعفاء للرؤساء : إنكم كنتم فى الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على مانحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة .. فأين مصداق ماقلتموه لنا وقد نزل بنا مانزل من أهوال وآلام ؟

فالمقصود بالآية الكريمة بيان ما يقوله الأتباع للمتبوعين على سبيل الحسرة والندامة ، لأنهم خدعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب إتباعهم لهم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما ، وكانوا يتيمنون بها ، يصافحون ، يماسحون ، ويناولون، ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور ..

لما كانت كذلك استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى من الخير وناحيته ... »(١) .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : اليمين الشرعية التى هى القسم . وعن بمعنى الباء .

أى : قالوا لهم : إنكم كنتم فى الدنيا تأتوننا بالإيمان المغلظة على أننا وأنتم على الحق فصدقناكم واتبعناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الإيمان المغلظة ؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : القوة والغلبة . أى : أنكم كنتم فى الدنيا تجبروننا وتقسروننا على أتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء ...

---

(١) تفسير الكشاف .

والذى نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أوهموا الضعفاء بأنهم على الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن هم اتبعوا ماجاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسئولية كاملة على الرؤساء ، توهما منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئاً من العذاب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بخمسة أجوبة :

أولها : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين » أى : قال الرؤساء الأتباع : نحن لم نتسبب فى كفركم فى الدنيا . بل أنتم الذين أبيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم - أيضا - . فكفركم نابع من ذواتكم ، وليس من شىء خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم فى وقت من الأوقات .

فالجملة الكريمة إضراب إبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون .

وثانيها: يتجلى فى قوله - تعالى- : « وما كان لنا عليكم من سلطان » أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء فى الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به .

وثالثها: قوله - تعالى- : « بل كنتم قوما طاغين » أى : نحن لم يكن لنا عليكم سلطان ، بل أنتم الذين كنتم فى الدنيا قوما طاغين وضالين مثلنا . والطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .

ورابعها: نراه فى قوله - سبحانه - : « فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » والفاء للتفريع على ماتقدم . من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء فى الكفر .

أى : نحن وأنتم لم تكونوا مؤمنين أصلا ، فكانت نتيجتنا جميعا ، أن استحققنا العذاب ، وأن لزمنا ماتوعدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به - تعالى - .

وخامس هذه الأجوبة : بينه - سبحانه - في قوله - حكاية عنهم - : «فأغويناكم إنا كنا غاوين» .

أي : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغي على الرشد «إنا كنا غاوين» مثلكم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم ، فنحن ما أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم .

وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهموهم به من أنهم السبب فيما حل بهم من عذاب أليم يوم القيامة .

وهنا يبين - سبحانه - حكمه العادل في الجميع ، في الرؤساء والأتباع فيقول «فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون» .

أي : كما كانوا متشاركين في الدنيا في الغواية والضلالة ، فإنهم في الآخرة مشتركون جميعا في حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيره .

فالضمير في قوله «فإنهم» يعود للتابعين والمتبوعين ، لأنهم جميعا مستحقون للعذاب .

ثم بين - سبحانه - الأسباب متى أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير السيء فقال : «إنا كذلك نفعل بالمجرمين» ، أي : مثل هذا العذاب الأليم نفعل بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا في العبادة ، «وآذوا رسلنا الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم .

«إنهم كانوا» في الدنيا «إذا قيل لهم» على سبيل النصيحة والدعوة إلى الحق «لا إله إلا الله يستكبرون» عن قبول هذه النصيحة ، ويعرضون عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة الإيمان ...

«ويقولون» لمن نصحهم : «أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» .

أي : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لا إله

إلا الله ، يقولون له أتدعونا إلى أن نترك ماعليه آباؤنا وأجدادنا من عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ماجاءنا به هذا الشاعر المجنون .

ويعنون بالشاعر المجنون ـ قبحهم الله ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أرسله الله ـ تعالى ـ لهدايتهم .

ولذا رد الله ـ تعالى ـ عليهم بقوله : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » .

أى : ليس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاعرا أو مجنونا ، كما زعمتم ـ أيها الجاهلون ـ ، بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذى دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصدقا لهم فى الدعوة إليه ، فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون ؟

« إنكم » ـ أيها المشركون بسبب هذه المزاعم « لذائقوا » فى هذا اليوم « العذاب الأليم » الذى يذلكم ويخزيكم ويجعلكم فى حزن دائم . . .

« وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » أى : وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجع المؤلم . إلا بسبب أعمالكم القبيحة فى الدنيا .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر بديع ، سوء عاقبة الكافرين ، بسبب إعراضهم عن الحق . واستكبارهم عن الدخول فيه ، ووصفهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما هو برىء منه .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين مصير الأشرار ومصير الأخيار ـ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ـ أتبع ـ سبحانه ـ الحديث عن سوء عاقبة الكافرين ، بالحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال ـ تعالى ـ :

« إلاَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ (٤٠) أولَئِكَ لهُم رِزْقٌ معلُومٌ (٤١) فوَاكِهُ وَهُمْ مُكرَمُونَ (٤٢) فى جنَّاتِ النَّعيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ

مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطافُ عليهم بِكَأْسٍ من مَعِينٍ (٤٥) بيضاء لذَّةٍ للشَّارِبِينَ (٤٦) لا فيها غَوْلٌ ولا هُمْ عَنها يُنزَفُونَ (٤٧) وعندَهُم قاصِرَاتُ الطرفِ عِينٌ (٤٨) كأنَّهُم بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) » .

قال الآلوسى ماملخصه : « قوله : « إلا عباد الله المخلصين » استثناء منقطع من ضمير « ذائقوا » ، وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى تحقيق الحق . ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا . فإلا مؤولة بلكن . . .

فالمعنى : إنكم - أيها المشركون - لذائقوا العذاب الأليم ، ولكن عباد الله المخلصين - ليسوا كذلك - أولئك لهم رزق معلوم . . . »(١) .

ولفظ « المخلصين » قرأه بعض القراء السبعة - بفتح اللام - ، أى : لكن عباد الله - تعالى - الذين أخلصهم الله - تعالى - لطاعته وتوحيده ليسوا كذلك .

وقرأه البعض الآخر بكسر اللام . أى : لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ، لايذوقون حر النار كالمشركين .

واسم الإشارة فى قوله : « أولئك لهم رزق معلوم » يعود إلى هؤلاء العبادة المخلصين .

أى : أولئك العباد المتصفون بتلك الصفة الكريمة وهى الإخلاص ، لهم رزق عظيم معلوم فى قته ، كما قال - تعالى - : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » . ومعلوم فى خصائصه الكريمة وصفاته الحسنة ككونه لذيذ الطعم ، حسن المنظر . غير مقطوع ولا ممنوع . إلى غير ذلك من الصفات التى تحمله على الرغبة والاشتهاء . . .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٨٥ .

وقوله ـ تعالى ـ : «فواكه وهم مكرمون» بدل مما قبله ، أو خبر لمبتدأ محذوف. أى هذا الرزق المعلوم ، هو فواكه .

والمراد بهذه الفواكه : ما يأكله الآكل على سبيل التلذذ والتفكه . وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم والخبز ، لأنهم فى الجنة فى غنى عن القوت الذى يحفظون به حياتهم ، وخصت الفاكهة بالذكر لأنها أطيب ما يأكله الآكلون .

وفضلا عن كل ذلك فهم فيها منعمون مكرمون ، لا يحتاجون إلى شىء إلا ويجدونه بين أيديهم ، بفضل الله ـ تعالى ـ ورحمته .

ثم بين ـ سبحانه ـ مكانهم وهيئتهم فقال : «فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين» .

أى : هم فى جنات ليس فيها إلا النعيم الدائم ، وهم فى الوقت نفسه يجلسون جميعا على سرر متقابلين ، بأن تكون وجوههم متقابلة لا متدابرة. فإن من شأن المتصافين أن يجلسوا متقابلين .

«يطاف عليهم بكأس من معين» والكأس: هو الإناء الذى فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب فهو قدح . وقد يسمى الشراب ذاته كأسا ، فيقال : شربت كأساً ، وذلك من باب تسمية الشىء باسم محله .

و «معين» اسم فاعل من معن وهو صفة لكأس. مأخوذ من عان الماء إذا نبع وظهر على الأرض .

أى : يطاف على هؤلاء العباد المخلصين وهم فى الجنة ، بكأس ملىء بخمر لذة للشاربين ، نابعة من العيون ، وظاهرة للأبصار ، تجرى فى أنهار الجنة كما تجرى الأنهار .

فالتعبير بقوله ـ تعالى ـ «بكأس من معين» يشعر بكثرتها ، وقربها من يريدها ...

وقوله - تعالى - : « بيضاء لذة للشاربين » صفتان للكأس باعتبار مافيه .

أى هذه الخمر التى يطاف بها عليهم ، بيضاء اللون ، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين .

« لا فيها غول » أى : أذى أو مضرة . والغـول . إهلاك الشىء - على غرة وغفلة .

يقال : غاله يغوله غولا ، واغتاله اغتيالا ، إذا قضى عليه بغتة ، وأخذه من حيث لا يشعر .

أى : أن خمر الآخرة ليس فيها ما يضر أو يؤذى ، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا .

« وهم عنها ينزفون » و « عن » هنا للسببية ، فهى بمعنى الباء . أى : ولا هم بسبب شربها تذهب عقولهم ، وتختل أفكارهم ، كما هو الحال فى خمر الدنيا .

وأصل النزف : نزع الشىء من مكانه وإذهابه بالتدريج . يقال : نزف فلان ماء البئر ينزفه - من باب ضرب - إذا نزحه شيئاً فشيئاً إلى نهايته . ويقال: نزف الرجل - كعنى - إذا سكر حتى اختل عقله . وخصت هذه المفسدة بالذكر مع عموم ماقبلها ، لكونها من أعظم مفاسد الخمر .

وقوله - تعالى - : « وعندهم قاصرات الطرف عين » بيان لمتعة أخرى من المتع التى أحلها الله - تعالى - لهم .

وقاصرات : من القصر بمعنى الحبس . وعين : جمع عيناء . وهى المرأة الواسعة العين فى جمال . أى وفضلا عن ذلك . فقد متعنا هؤلاء العباد بمتع أخرى ، وهى أننا جعلنا عندهم للمؤانسة نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمدونها إلى غيرهم . لشدة محبتهن لهم ، ومن صفات هؤلاء النساء - أيضاً - أنهن جميلات العيون .

« كأنهن » أى : هؤلاء النسوة بيض مكنون، أى : كأنهن كبيض النعام، الذى كنن الريش فى العش ، فلم تمسه الأيدى ، ولم يصبه الغبار ، فى صفاء البشرة ، ونقاء الجسد ...

وشبههن ببيض النعام ، لأن لونه مع بياضه وصفائه يخالطه شىء من الصفرة وهو لون محبوب فى النساء عند العرب ولذا قالوا فى النساء الجميلات : بيضات الخدور .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد بشرت عباد الله المخلصين ، بالعطاء المتنوع الجزيل ، الذى تنشرح له الصدور ، وتقر به العيون ، وتبتهج له النفوس ...

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض المحاورات التى تدور بين عباده المخلصين ، بعد أن رأوا ما أعده ـ سبحانه ـ لهم من نعيم مقيم ... فقال ـ تعالى ـ :

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) » .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : علام عطف قوله : « فأقبل بعضهم على بعض ... » ؟

قلت : هو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « يطاف عليهم بكأس من معين » . والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشاربين .

قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض « يتساءلون » عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا . إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله فى أخباره . . .(١) .

أى : أن هؤلاء العباد المخلصين ، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم ، أقبل بعضهم على بعض ، يتساءلون فيما بينهم عن ذكرياتهم ، وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه - من باب التحدث بنعمة الله - :

« إنى كان لى قرين » أى : إنى فى الدنيا كان لى صديق ملازم لى ، ينهانى عن الإيمان - بالبعث والحساب ، ويقول لى - بأسلوب التهكم والاستهزاء - :

« أئنك لمن المصدقين » أى : أئنك - أيها الرجل - لمن المصدقين بأن هناك بعثا وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وجنة ونارا . . .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : « أئذا متنا » ، وانتهت حياتنا فى هذه الدنيا ، ووضعنا فى قبورنا « وكنا ترابا وعظاما » أى : وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية . .

« أئنا لمدينون » أى : أئنا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ، ومجزيون بأعمالنا . فقوله - تعالى - « لمدينون » من الدين بمعنى الجزاء ، ومنه قوله تعالى - « مالك يوم الدين » والاستفهام : للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٤ .

وهذا يعرض هذا المؤمن على إخوانه ، أن يشاركوه فى الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم : « هل أنتم مطلعون » أى : هل أنتم مطلعون معى على أهل النار لنرى جميعا حال ذلك القرين الذى حكيت لكم حاله ؟ والاستفهام للتخصيص ، أى : هيا صاحبونى فى الاطلاع على هذا القرين الكافر .

« فاطلع » ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار ، فرآه فى سواء الجحيم ، أى : فرأى ذلك الرجل الذى كان قرينه وصاحبه الملازم له فى الدنيا ، ملقى به فى « سواء الجحيم » أى : فى وسط النار . وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب .

قال الآلوسى : « واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد ، غير بعيد بأن يخلق الله - تعالى - فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه .

ولعلهم - إن أرادوا ذلك - وقفوا على الأعراف ، فاطلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار . وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكرا للبعث ... »[1] .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول : « قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين » .

وقوله : « تالله » قسم فيه معنى التعجب ، و « إن » مخففة من الثقيلة . واللام فى قوله : « لتردين » وهى الفارقة بين إن المخففة والنافية ، والجملة

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٩٢ .

جواب القسم ، وتردين : أى تهلكنى يقال : أردى فلان فلانا إذا أهلكه . وردى فلان - من باب رضى - إذا هلك .

و « المحضرين » من الإحضار ، يقال : أحضر المجرم ليلق جزاءه ، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق فى الشر ، إذ يدل على السوق مع الاكراه والقسر .

أى : قال الرجل المؤمن لقرينه الملق فى وسط جهنم : وحق الله - تعالى - لقد كدت أيها القرين أن تهلكنى بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربى على ، حيث عصمنى من طاعتك ، ووفقنى للإيمان . . لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولساقنى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذى أنت فيه اليوم ، فحمد الله - تعالى - على الإيمان والهداية .

وقوله - تعالى - : « أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين » بيان لما يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه فى الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه .

وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم .

والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف .

والمعنى : أنحن مخلدون فى هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد موتتنا الأولى التى لحقتنا فى الدنيا ، ولن يصيبنا شىء من العذاب كما أصاب غيرنا ؟ إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى فى هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته .

وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت .

قال القرطبى : « قوله : « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى . . . » : هو من

قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: «يا أهل الجنة خلود بلا موت. ويا أهل النار خلود بلا موت...»[1].

والإشارة فى قوله - تعالى -: «إن هذا لهو الفوز العظيم» لما سبق الإخبار به من نفى الموت والعذاب عن أهل الجنة. وهذا القول - أيضا - حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه فى الجنة أى: إن هذا النعيم الدائم الذى نحن فيه - يا أهل الجنة - لهو الفوز العظيم، الذى لا يدانيه فوز، ولا يقاربه فلاح.

ثم يقول لهم - أيضا -: «لمثل هذا فليعمل العاملون» أى: لمثل هذا العطاء الجزيل، والنعيم المقيم، فليعمل العاملون، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية.

ثم ساق - سبحانه - مايدل على البون الشاسع، بين النعيم المقيم الذى يعيش فيه عباد الله المخلصين. وبين الشقاء الدائم الذى يعيش فيه الكافرون، فقال - تعالى -:

«أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)».

واسم الإشارة «ذلك» فى قوله - تعالى -: «أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم» يعود إلى النعيم الذى سبق الحديث عنه، والذى يشمل الرزق المعلوم وماعطف عليه.

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٨٤.

والاستفهام للتوبيخ والتأنيب . والنزل : ما يقدم للضيف وغيره من طعام ومكان ينزل به .

و « ذلك » مبتدأ ، و « خير » خبره ، ونزلا : تمييز لخير ، والخيرية بالنسبة لما اختاره الكفار على غيره . والجملة مقول لقول محذوف .

وشجرة الزقوم هي شجرة لا وجود لها فى الدنيا ، وإنما يخلقها الله ـ تعالى فى النار ، كما يخلق غيرها من أصناف العذاب كالحيات والعقارب . . .

وقيل : هى شجرة سامة متى مست جسد أحد تورم ومات . وتوجد فى الأراضى المجدبة المجاورة للصحراء .

والزقوم : من التزقم ، وهو ابتلاع الشيء الكريه ، بمشقة شديدة .

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين أذلك النعيم الدائم الذى ينزل به المؤمنون فى الجنة خير ، أم شجرة الزقوم التى يتبلغ بها الكافرون وهم فى النار ، فلا يجدون من ورائها إلا الغم والكرب لمرارة طعمها ، وقبح رائحتها وهيئتها .

ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لمـــا اختاروا ما أدى بهم إلى نعيم الجنة وهو الإيمان والعمل الصالح . واختار الكافرون ما أدى بهم إلى النار وبئس القرار قيل لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع ، لسوء اختيارهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ شيئا عن هذه الشجرة فقال : « إنا جعلناها فتنة للظالمين » أى : إنا جعلنا هذه الشجرة محنة وابتلاء وامتحانا لهؤلاء الكافرين الظالمين ، لأنهم لما أخبرهم رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوجود هذه الشجرة فى النار . كذبوه واستهزءوا به فحق عليهم عذابنا بسبب هذا التكذيب والاستهزاء .

قال القرطبى ما ملخصه : « قوله ـ تعالى ـ « إنا جعلناها فتنة للظالمين » أى : المشركين . وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة ، مع أن النار تحرق الشمس . . ؟

وكان هذا القول جهلا منهم ، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب .. »(١) .

ثم بين - سبحانه - أصل هذه الشجرة ومنبتها فقال : « أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم » أي : منبتها وأصلها يخرج من أسفل الجحيم ، أما أغصانها وفروعها فترتفع إلى دركاتها .

ثم بين - سبحانه - ثمرها فقال : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » أي : ثمرها الذي يخرج منها ، وحملها الذي يتولد عنها ، في تناهي قبحه وكراهيته ، رءوس الشياطين التي هي أقبح ما يتصوره العقل ، وأبغض شيء يرد على الخاطر .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « شبه حمل شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، للدلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير . فيقولون في القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، أو كأنه رأس شيطان ، وإذا صوره المصورون صورة على أقبح صورة .

كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبهوا أن الصورة الحسنة ، قال الله - تعالى - : « ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم » . وهذا تشبيه تخييلي .

وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر ... فجاء التشبيه بها .... »(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٨٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٦ .

وقوله - تعالى - : «فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون» تفريع على ماتقدم من كونها فتنة لهم.

أي : هذا هو حال تلك الشجرة، وهذا هو أصلها وثمرها، وإن هؤلاء الكفار الذين يستهزئون بمن يحدثهم عنها لآكلون من ثمارها حتى تمتلىء بطونهم، رغما عنهم، وإذلالا لهم.

«ثم إن لهم عليها» أي : مايأكلونه منها «لشوبا من حميم» أي : لشرابا مخلوطا بماء شديد الحرارة يقطع الأحشاء، كما قال - تعالى - : «وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم».

فالشوب : الخلط. يقال : شاب فلان طعامه، إذا خلطه بغيره.

والحميم : الماء الذي بلغ الغاية في الحرارة. فطعامهم - والعياذ بالله - قد اجتمع فيه مرارة الزقوم، وحرارة الماء، وهذا أشنع ما يكون عليه الطعام.

ثم بين - سبحانه - مصيرهم الدائم فقال : «ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم» أي : ثم إن مرجعهم ومصيرهم ومقرهم الدائم بعد كل ذلك لإلى دركات الجحيم لا إلى غيرها.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيء فقال - تعالى - : «إنهم ألفوا آباءهم ضالين. فهم آثارهم يهرعون».

وقوله : «ألفوا» من الإلف للشيء بمعنى التعود عليه بعد وجوده وحصوله.

وقوله : «يهرعون» من الإهراع بمعنى الإسراع الشديد، أو الإسراع

الذي تصحبه رعدة وفزع . يقال : هرع وأهرع - بالبناء للمجهول فيهما - إذا استحث وأزعج . وأقبل فلان يهرع - بضم الياء - إذا جاء مسرعا فى غضب أو ضعف أو خوف .

أى : إن ما أصاب هؤلاء الكافرين من عذاب أليم ، سببه أنهم وجدوا آباءهم مقيمين على الضلال ، فاقتدوا بهم اقتداء أعمى ، وساروا خلفهم وعلى آثارهم بسرعة وبغير تدبر أو تعقل ، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى طريق هلاكه .

فالآيتان الكريمتان توبيخ شديد لهؤلاء الكافرين، لأنهم لم يكتفوا بتقليد آبائهم فى الضلال ، بل أسرعوا إلى ذلك إسراعا لا تمهل معه ولا تدبر .

ثم بين - سبحانه - أحوال السابقين عليهم فقال : « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين » .

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين من قومك - أيها الرسول الكريم - أكثر الأقوام السابقين الذين أرسلنا إليهم لهدايتهم .

وفى التعبير بقوله : « أكثر » إنصاف ومدح للقلة المؤمنة التى اتبعت الحق .

« ولقد أرسلنا فيهم منذرين » أى : ولقد أرسلنا فى هؤلاء الأقوام السابقين أنبياء كثيرين ينذرونهم ويخوفونهم من عاقبة الكفر والشرك ، ولكن أكثر هؤلاء الأقوام لم يستجيبوا للحق .

« فانظر » - أيها الرسول الكريم - « كيف كان عاقبة المنذرين » أى : فانظر وتأمل كيف كانت عاقبة هؤلاء الذين أنذروا فلم يستجيبوا للحق ، لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا « إلا عباد الله المخلصين » أى : دمرنا هؤلاء الأقوام إلا عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة والطاعة فقد أنجيناهم بفضلنا ورحمتنا .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم

لتثبيت فؤاد النبى - صلى الله عليه وسلم - وتسليته عما أصابه من قومه ، وابتداء تلك القصص ببيان جانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

« ولقَدْ نادَانَا نوحٌ فَلنِعْم المجِيبونَ (٧٥) ونجيناهُ وأهْلَه من الكربِ العظيم (٧٦) وجَعلنَا ذُريتَه هُمُ الباقينَ (٧٧) وتركْنَا عليه فى الآخرين (٧٨) سلامٌ عَلَى نوحٍ فى العالَمِينَ (٧٩) إنَّا كذلكَ نجزى المحسِنينَ (٨٠) إنَّه مِنْ عبادِنَا المؤمِنينَ (٨١) ثم أغرقنَا الآخرينَ (٨٢) ».

وقصة نوح - عليه السلام - قد وردت فى القرآن الكريم ، فى سور متعددة منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون . .

وهنا يحدثنا القرآن عن جانب من النعم التى أنعم بها الله - تعالى - على نبيه نوح - عليه السلام - حيث أجاب له دعاءه ، ونجاه وأهله من الكرب العظيم وأهلك أعداءه المكذبين . .

واللام فى قوله : « ولقد نادانا نوح . . . » واقعة فى جواب قسم محذوف والمراد بالنداء الدعاء الذى تضرع به نوح - عليه السلام - إلى خالقه .

والمخصوص بالمدح فى قوله : « فلنعم المجيبون » محذوف ، والفاء فصيحة .

والمعنى : وتالله لقد تضرع إلينا عبدنا نوح - عليه السلام - وطلب منا أن ننصره على قومه الكافرين ، فاستجبنا له أحسن إجابة ، ونعم المجيبون نحن فقد أهلكنا أعداءه بالطوفان .

أخرج ابن مردوية عن عائشة قالت : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى فى بيتى فمر بهذه الآية ، قال : صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعى ،

وأقرب من بغى - أى طلب لإجابة الدعاء - فنعم المدعو أنت ، ونعم المعطى أنت . ونعم المسئول أنت ربنا ونعم النصير »[١] .

والمراد بأهله فى قوله - تعالى - : « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم » الذين آمنوا معه .

أى : ونجيناه وأهله الذين آمنوا معه - بفضلنا وإحساننا - من الكرب العظيم ، الذى حل بأعدائه الكافرين ، حيث أغرقناهم أجمعين .

« وجعلنا ذريته هم الباقين » أى : وجعلنا ذريته من بعده هم الذين بقوا وبقى نسلهم من بعدهم ، وذلك لأن الله -تعالى- أهلك جميع الكافرين من قومه أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته ، فقد قيل إنهم ماتوا ، ولم يبق سوى أولاده .

قال ابن كثير : « قوله - تعالى- : « وجعلنا ذريته هم الباقين » : قال ابن عباس : لم تبق إلا ذرية نوح .

وقال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح .

وروى الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن سمرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : « وجعلنا ذريته هم الباقين » قال : هم « سام ، وحام ، ويافث » .

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن سمرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم ... »[٢] .

« وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين » أى : وأبقينا عليه فى الأمم التى ستأتى من بعده إلى يوم القيامة ، الذكر الحسن ، والكلمة الطيبة

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٩٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩ .

ألا وهى قولهم : سلام على نوح فى العالمين ، أى : تحية وأمان وثناء جميل على نوح فى العالمين .

وقوله : « إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . . » تعليل لما منحه ـ سبحانه ـ لعبده نوح من نعم وفضل وإجابة دعاء .

أى : مثل ذلك الجزاء الكريم الذى جازينا به نوحا ـ عليه السلام ـ نجازى كل من كان محسنا فى أقواله وأفعاله ، وإن عبدنا نوحا قد كان من عبادنا الذين بلغوا درجة الكمال فى إيمانهم وإحسانهم .

قال صاحب الكشاف: قوله: « وتركنا عليه فى الآخرين» أى من الأمم هذه الكلمة ، وهى : « سلام على نوح » يعنى : يسلمون عليه تسليما، ويدعون له . فإن قلت : فما معنى قوله : « فى العالمين » .

قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين، يسلمون عليه عن آخرهم .

علل ـ سبحانه ـ مجازاة نوح بتلك التكرمة السنية ، من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، بأنه كان محسنا بأنه كان عبداً مؤمنا ، ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك فى تحصيله وفى الازدياد منه »(١) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ القصة بقوله : « ثم أغرقنا الآخرين » أى: لقد أضفنا إلى تلك النعم التى أعطيناها لنبينا نوح ـ عليه السلام ـ أننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه ، وأعرضوا عن دعوته .

وتلك سنتنا لا تتخلف ، أننا ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين .

وجاءت بعد قصة نوح ـ عليه السلام ـ قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٩ .

وقد حكى الله تعالى ـ ما دار بين إبراهيم وبين قومه ، كما حكى بعض النعم التى أنعمها ـ سبحانه ـ عليه ، بسبب إيمانه وإحسانه ، فقال ـ تعالى :

« وإنَّ من شيعته لإبراهيمَ (٨٣) إذْ جاء ربَّه بقلبٍ سَليم (٨٤) إذ قالَ لأبيه وقومِه ماذَا تعبُدونَ (٨٥) أئفكاً آلهةً دونَ اللهِ تريدونَ (٨٦) فما ظنكُم بربِّ العالَمين (٨٧) فنظَر نَظْرة فى النُّجوم (٨٨) فقالَ إنِّى سقيمٌ (٨٩) فتولَّوا عنـــهُ مُدبرين (٩٠) فراغَ إلى آلهتهم فقالَ ألاَ تأكلُونَ (٩١) مالكُم لا تَنطِقون (٩٢) فراغَ عليهِم ضرباً باليمين (٩٣) فأقبلُوا إليه يزِفُّونَ (٩٤) قال أتعبُدونَ ما تنحتُون (٩٥) واللهُ خلقكُم وماتعملونَ (٩٦) قالُوا ابنُوا لهُ بُنياناً فألقُوه فى الجحيم (٩٧) فأرادُوا به كيداً فجعلناهُمُ الأسفلِينَ (٩٨) وقال إني ذَاهبٌ إلَى ربِّى سيهدِين (٩٩) ربِّ هَبْ لِي من الصالحينَ (١٠٠) فلما بلغَ معهُ السَّعىَ قالَ يا بنَىَّ إني أرَى فى المنامِ أني أذبَحُكَ فانظُر ماذَا ترَى ، قال يا أبتِ افعَلْ ما تؤمرُ ستَجِدني إنْ شاء اللهُ من الصابرينَ (١٠١) فلمَّا أسلَما وتلَّه للجبينِ (١٠٢) وناديْناهُ أن يا إبراهيمُ (١٠٣) قد صدَّقتَ الرُّؤيَا إنَّا كذلكَ نجزى المحسنينَ (١٠٤) إنَّ هذا لهوَ البلاءُ المبينُ (١٠٥) وفديْناه بذبحٍ عظيمٍ (١٠٦) وتركنا عليه فى الآخرين (١٠٧) سلامٌ عَلَى إبراهيمَ (١٠٨) كذلكَ نجزى المحسِنينَ (١٠٩) إنَّه من عبادِنَا المؤمنينَ (١١٠) وبشَّرناه بإسحاقَ نبيًّا من الصالحينَ (١١١) وباركنا عليهِ وعَلَى إسْحاقَ ومِنْ ذُرِّيتهما مُحْسن وظالمٌ لنفسه مُبينٌ (١١٢) » .

والضمير فى قوله : «وإن من شيعته لإبراهيم ، يعود على نوح ـ عليه السلام ـ

وشيعة الرجل: أعوانه وأنصاره وأتباعه . وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شيع مثل سدرة وسدر .

قال القرطبي: «والشيعة : الأعوان وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد . . . »(١) .

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق . وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة نبيه وشريعته . . . وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ، فهى متحدة فى الأصول والأركان .

وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما هود وصالح - عليهما السلام - والظرف فى قوله تعالى: « إذ جاء ربه بقلب سليم » متعلق بمحذوف تقديره اذكر أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والخديعة والرياء . . .

والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص قلبه لدعوة الحق ، وإستعداده لبذل نفسه وكل شىء يملكه فى سبيل رضا ربه عز وجل .

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث فى كل مايرضيه قال صاحب الكشاف :« فإن قلت : مامعنى المجىء بقلبه ربه؟ قلت: معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه ، فضرب المجىء مثلا لذلك »(٢) .

وقوله : « إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » شروع فى حكايته مادار

(١) تفسير القرطبي جـ ١٥ ص ٩١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٨ .

بينه وبين أبيه وقومه . والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هي ظرف لقوله « سليم » أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - تعالى - ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : « أئفكا آلهة دون الله تريدون » ؟ والإفك : أسوأ الكذب . يقال أفك فلان يأفك إفكا فهو أفوك ... إذا اشتد به . وهو مفعول به لقوله « تريدون » وقوله « آلهة » بدل منه . وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة .

أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله ؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم .

ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : « فما ظنكم برب العالمين » .

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره - تعالى - .

أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره ؟ إنه لا شك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذابا أليما ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة ، وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

قال الآلوسى : « قوله : « فما ظنكم برب العالمين » أى : أى شىء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة ، لكونه ربا للعالمين ؟ أشككتم فيه حتى تركتم عبادته - سبحانه - بالكلية ، أو أعلمتم أى شىء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه أو أى شىء ظنكم بعقابه - عز وجل - حتى اجترأتم على الإفك عليه ، ولم تخافوا عذابه ... »(١) .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١١٠ .

وعلى أية حال فالآية تدل دلالة واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عبادة لغير الله - تعالى - ، وعلى نفور فطرته لما هم عليه من باطل .

ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته . وتنتقل السورة للإشارة إلى ما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فتقول: « فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا عنه مدبرين .... » .

قالوا : كان قوم إبراهيم يعظمون الكواكب . ويعتقدون تأثيرها فى العالم ... وتصادف أن حل أوان عيد لهم . فدعوه إلى الخروج معهم كما هى عادتهم فى ذلك العيد ...

فتطلع إلى السماء ، وقلب نظره فى نجومها ، ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم - ليخلو بالأصنام فيحطمها - : « إنى سقيم » أى مريض مرضا يمنعنى من مصاحبتكم ، فتولوا عنه مدبرين ، أى : فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : «وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ، ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين .

قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر فى أمر: نظر فى النجوم، يعنى قتادة : أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به فقال « إنى سقيم » أى : ضعيف ..

وقول النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكذب إبراهيم غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله ، قوله : « إنى سقيم » وقوله: « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله فى سارة « هى أختى » .

ليس المراد بالكذب هنا الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا

وإنما أطلق الكذب على هذا تجوز ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء فى الحديث : إن من المعاريض لمندوحة من الكذب ...

وقيل: قوله « إنى سقيم » أى : بالنسبة لما يستقبل . يعنى مرض الموت .

وقيل: أراد بقوله : « إنى سقيم » أى : مريض القلب من عبادتكم للأوثان من دون الله - تعالى - ... »(١) .

ويبدو لنا أن نظر إبراهيم - عليه السلام - فى النجوم ، وإنما هو نظر المؤمن المتأمل فى ملكوت الله - تعالى - المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وأنه إنما فعل ذلك أمامهم - وهم قوم يعظمون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج معهم ، ويتم له ما يريده من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : « إنى سقيم » المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام ...

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام .

فكلام إبراهيم حق فى نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه على حسب ما يعتقدون ...

ثم حكى - سبحانه - ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون » .

وأصل الروغ : الميل إلى الشىء بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راغ فلان نحو فلان . إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال .

أى : فذهب إبراهيم مسرعاً إلى الأصنام بعد أن تركها للقوم وانصرفوا

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠ .

إلى عيدهم ، فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء : أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التي قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك ؟ .

وخاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : « ألا تأكلون » ، لأن قومه أنزلوها تلك المنزلة .

وقوله : « مالكم لا تنطقون » زيادة في السخرية بتلك الأصنام ، وفي إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها .

هذا الغضب الذي كان من آثاره ما بينه القرآن في قوله : « فراغ عليهم ضربا باليمين » أي : فمال عليهم ضاربا إياهم بيده اليمنى ، حتى حطمهم . كما قال - تعالى - في آية أخرى : « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » .

وقال - سبحانه - : « ضربا باليمين » للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - لشدة حنقه وغضبه على الأصنام - قد استعمل في تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهي يده اليمنى . وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التي حلفها حين قال : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذي كان يجده حين رؤيتها . . .

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن هنا ما قالوه لإبراهيم عند ما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ، مكتفيا بإبراز حالهم فيقول : « فأقبلوا إليه يزفون » .

أي : فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة ، أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ، ولهم جلبة وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم . . .

يقال : زف النعام يزف زفا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكأنه يطير .

ولم يأبه إبراهيم - عليه السلام - لهياج قومه ، وإقبالهم نحوه بسرعة

وغضب، بل رد عليهم ردا منطقيا سليما، فقال لهم: «أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون».

أى: قال لهم موبخا ومؤنبا أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتبرونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم، وتتركون عبادة الله - تعالى - الذى خلقكم وخلق الذى تعملونه من الأصنام وغيرها.

قال القرطبي ما ملخصه: «قوله - تعالى - : «والله خلقكم وما تعملون» «ما» فى موضع نصب، أى: خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام، يعنى الخشب والحجارة وغيرها...

وقيل إن «ما» استفهام، ومعناه: التحقير لعملهم. وقيل: هى نفى. أى: أنتم لا تعملون ذلك لكن الله خالقه والأحسن أن تكون «ما» مع الفعل مصدرا. والتقدير: والله خلقكم وعملكم، وهذا مذهب أهل السنة، أن الأفعال خلق الله - عز وجل - واكتساب للعباد.

وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعته»[1].

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم، لم يجد أذنا واعية من قومه، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه - سبحانه - فى قوله: «قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم» أى قالوا فيما بينهم: ابنوا لإبراهيم بنيانا، ثم املئوه بالنار المشتعلة، ثم ألقوا به فيها فتحرقه وتهلكه.

فالمراد بالجحيم: النار الشديدة التأجج. وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم. وهذا اللفظ مأخوذ من الجحمة - وهى شدة التأجج والاتقاد - يقال: جحم فلان النار - كمنع - إذا أوقدها وأشعلها، واللام فيه عوض عن المضاف إليه. أى: ألقوه فى جحيم ذلك البنيان المليء بالنار.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩٦.

وبنوا البنيان، وأضرموه بالنار، وألقـوا بإبراهيم فيها، فماذا كانت النتيجـــة؟.

كانت كما قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك: «فأرادوا به كيدا» أى: شرا وهلاكا عن طريق إحراقه بالنار «فجعلناهم» بقدرتنا التى لا يعجزها شىء «الأسفلين» أى: الأذلين المقهورين، حيث أبطلنا كيدهم، وحولنا النار إلى برد وسلام على عبدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وهكذا رعاية الله ـ تعالى ـ تحرس عباده المخلصين، وتجعل العاقبة لهم على القوم الكافرين.

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك جانباً آخر من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذا الجانب يتمثل فى هجرته من أجل نشر دعوة الحق، وفى تضرعه إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة، فتقول: «وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين، رب هب لى من الصالحين...».

أى: قال إبراهيم بعد أن نجاه الله ـ تعالى ـ من كيد أعدائه «إنى ذاهب إلى ربى» أى: إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه، وهو بلاد الشام، وقد تكفل ـ سبحانه ـ بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى.

قال القرطبى: «هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة. وأول من فعل ذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذلك حين خلصه الله من النار قال «إنى ذاهب إلى ربى» أى: مهاجر من بلد قومى ومولدى، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى، فإنه «سيهدين» فيما نويت إلى الصواب.

قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة، إلى الأرض المقدسة وهى أرض الشام...»(٢).

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩٦.
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩٧.

والسين فى قوله « سيهدين » لتأكيد وقوع الهداية فى المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله فى تحقيق مايرجوه من ربه ، لأنه ماهاجر من موطنه إلا من أجل نشر دينه وشريعته - سبحانه - .

ثم أضاف إلى هـذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له ، أملا آخر وهو منحه الذرية الصالحة ، فقال : « رب هب لى من الصالحين » .

أى : وأسألك يارب بجانب هذه الهداية إلى الخير والحق ، أن تهب لى ولدا هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك .

وأجاب الله - تعالى - دعاء عبده إبراهيم ، كما حكى ذلك فى قوله : « فبشرناه بغلام حليم » .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه ، فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق .

قال صاحب الكشاف : « وقد انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر . وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما »[1] .

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به ، المقصود به هنا إسماعيل - عليه السلام - .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فلما بلغ معه السعى . . » فصيحة ، أى : بشرناه بهذا الغلام الحليم ، ثم عاش هذا الغلام فى كنف أبيه فلما بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه .

قيل : كانت سن إسماعيل فى ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة .

« قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٣ .

أى : فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن ، قال الأب لإبنه : يا بنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك .

قال الآلوسى ما ملخصه : « يحتمل أنه - عليه السلام - رأى فى منامه أنه فعل ذلك ... ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك ، لكنه لم يذكر التأويل ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة ، رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة ...

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظه ... وفى رواية أنه رأى ذلك فى ليلة التروية فأخذ يفكر فى أمره ، فسميت بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى بيوم النحر .

ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الإمتثال ، أدل على كال الإنقياد والإخلاص ... »[1] .

وإنما شاوره بقوله : « فانظر ماذا ترى » مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه سواء رضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة إعلام له بما رآه ، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .

وقوله : « قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » حكاية لما رد به إسماعيل على أبيه إبراهيم - عليهما السلام - وهو رد يدل على كعبة فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الإستسلام لقضاء الله وقدره .

أى : قال الإبن لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر به من قبل الله - تعالى - ، ولا تتردد فى ذلك ، وستجدنى - إن شاء الله من الصابرين على قضائه .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٢٩ .

وفى هذا الرد مافيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به - سبحانه - فى أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليه السلام - يلهمهم الله - تعالى - فى جميع مراحل حياتهم مايجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى ، والكمال الخلقى . .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان من الإبن وأبيه فقال : « فلما أسلما وتله للجبين » وأسلما : بمعنى استسلما وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف .

وقوله « وتله » أى : صرعه وأسقطه ، وأصل التل : الرمى على التل وهو الرمل الكثيف المرتفع ، ثم عمم فى كل رمى ودفع ، يقال : تل فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض .

والجبين : أحد جانبي الجبهة ، وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والإبن لأمر الله - تعالى - ، وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه . . . كان ما كان منا من رحمة بهما ، ومن كرم لهما ، ومن إعلاء لقدرهما . . .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أين جواب لما؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين » وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما اكتسبا فى تضاعيفه من الثواب ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب . . . »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٥ .

وقد ذكروا هنا آثارا منها أن إسماعيل - عليه السلام - لما هم أبوه يذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى . . . وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى . . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « وناديناه أن إبراهيم ، وقد صدقت الرؤيا . . . » أى : وعندما صرع إبراهيم إبنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا . . . نادينا إبراهيم بقولنا « يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك . . .

قال الجمل : « فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لإبراهيم : « قد صدقت الرؤيا » وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كان تصديقها إلا لو حصل منه الذبح ؟

قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادهما لأمر الله »(٢) .

وجملة « إنا كذلك نجزى المحسنين » تعليل لما قبلها . أى : فعلنا مافعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المحسنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم .

واسم الإشارة فى قوله : « إن هذا لهو البلاء المبين » يعود إلى ما ابتلى الله - تعالى - به نبيه إبراهيم وإسماعيل . . .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٤٨ .

أى : إن هذا الذى ابتليناه به هذين النبيين الكريمين، لهو البلاء الواضح، والإختبار الظاهر، الذى به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية، والقلوب السليمة، والنفوس المخلصة لله رب العالمين.

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال: «وفديناه بذبح عظيم» والذبح بمعنى المذبوح، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، كالطحن بمعنى المطحون.

أى: وفدينا إسماعيل - عليه السلام - بمذبوح عظيم فى هيئته، وفى قدره، لأنه من عندنا. وليس من عند غيرنا ...

قيل: إفتداه الله - تعالى - بكبش أبيض، أقرن، عظيم القدر.

«وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين».

أى: ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم، أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى من بعده، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين، ومثل هذا الجزاء نجزى المحسنين، إنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين فى إيمانهم.

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال: «وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين».

أى: ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم، أننا بشرناه بولد آخر هو إسحاق، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا. وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية، بأن جعلنا عدداً كبيراً من الأنبياء من نسلهما.

ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن فى قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - أن الرسل جميعا قد جاءوا من عند الله - تعالى - بدين واحد فى أصوله ، وأن كل واحد منهم قد سار على نهج سابق فى الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقد بين - سبحانه - فى مطلع هذه القصة ، أن إبراهيم كان من شيعة نوح - عليهما السلام - أى : من أتباعه الذين ساروا على سنته فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده .

وقد أمر - عز وجل - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ... » .

٢ - أن تعاطى الحيل الشرعية من أجل إزالة المنكر ، أمر مشروع ، فإن إبراهيم - عليه السلام - لكى يقضى على الأصنام ، اعتذر لقومه عن الخروج معهم فى يوم عيدهم ، وقال لهم : إنى سقيم - بعد أن نظر فى النجوم - .

وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يختلى بالأصنام ليحطمها ، ويثبت لقومه أنها لا تصلح للألوهية ...

٣ - أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يراعى - بفضله وكرمه - عباده المخلصين ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم الشرور والسوء ..

ونرى ذلك جليا فى هذه القصة ، فقد أضمر الكافرون لإبراهيم الكيد والإهلاك ، فأنجاه الله - تعالى - من مكرهم ، كما قال - تعالى - : « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » .

٤ - أن على المؤمنين إذا لم يتمكنوا من نشر دعوة الحق فى مكان معين ، أن ينتقل منه إلى مكان آخر متى كان قادرا على ذلك .

وهذا مافعله إبراهيم - عليه السلام - فقد قال لقومه بعد أن يئس من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : « أني ذاهب إلى ربي سيهدين » .

٥ - أن الدعاء صدر من نفس عامرة بالإيمان والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى . . . كان جديرا بالإجابة .

فلقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاءه

كما حكى - سبحانه - ذلك في قوله : « رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم » .

ثم قال - سبحانه - بعد ذلك : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » .

٦ - أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد ضربا أروع الأمثال في صدق الإيمان ، وفي الاستسلام لأمر الله - تعالى - في الرضا بقضائه .

فكافأهما - عز وجل - على ذلك مكافأة جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة ، وبأن افتدى الذبيح بذبح عظيم .

قال - تعالى - : « وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين .

سلاماً على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » .

٧ - أن الذبيح الذي ورد ذكره في هذه القصة ، والذي افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم ، هو إسماعيل - عليه السلام - وعلى ذلك سار جمهور العلماء ، ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتي :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله : « رب هب لي من

الصالحين » فبشره ـ سبحانه ـ « بغلام حليم » ، وهذا الغلام عند ما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى أعماله .

قال له أبوه : « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . . . » ثم افتدى الله ـ تعالى ـ هذا الغلام بذبح عظيم .

ثم قال ـ تعالى ـ بعد كل ذلك : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » .
وهذا يدل على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثانى وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق ـ عليه السلام ـ قد جاء الحديث عنها مفصلا فى سورة هود . وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابسات التى وردت هنا فى سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى فقال :

وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع ـ أو مايقرب منه ـ على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة فى قوله ـ تعالى ـ : رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . . . » .

فهذه الآية قاطعة فى أن المبشر به هو الذبيح .

ومرة فى قوله ـ فى سورة هود ـ : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق . . . » .

فقد صرح فيها بأن المبشر به إسحاق . ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل. بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ ، وكان ذلك فى بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم فى آخر عمره .

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد، ولذلك سأله. فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين بغلامين، أحدهما بغير سؤال، وهو إسحاق. والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره، فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح»(١).

٣ - أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد - كما قال الإمام ابن القيم - عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها.

ثم قال الإمام ابن القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه «بكره»، وفي لفظ «وحيده»، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم»(٢).

ومن العلماء الذين فصلوا القول في هذه المسألة، الإمام ابن كثير، فقد قال رحمه الله: «وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة - أيضا -. وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: «وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين».

ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا «إنا نبشرك بغلام عليم» وقال - تعالى -: «فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل.

(١) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٥٧.
(٢) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٥٣.

وقد قدمنا أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل . فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا ، وإسماعيل وصف هنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام »[١] .

قال الآلوسى ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق أقوال العلماء فى ذلك بالتفصيل : « والذى أميل إليه أنه ـ أى الذبيح ـ إسماعيل ـ عليه السلام ـ ، بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه ، وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ، ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب »[٢] .

هذه بعض الأحكام والآداب التى يمكن أن نأخذها من هذه القصة ، التى حكاها ـ سبحانه ـ عن نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى هذه السورة الكريمة وهناك أحكام وآداب أخرى يستطيع أن يستخلصها المتدبر فى هذه الآيات الكريمـــة .

* * *

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من قصة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وهما من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال ـ تعالى ـ :

« ولقدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وهَارُونَ (١١٣) ونجَّيْنَاهُمَا وقومَهمَا من الكَربِ العظيم (١١٤) ونصرنَاهُمْ فكانُوا هُمُ الغالبِينَ (١١٥) وآتيناهُمَا الكتابَ المستبِينَ (١١٦) وهدَيناهما الصِّراطَ المُستقيم (١١٧) وتركْنَا علَيهِما فى الآخرينَ (١١٨) سلامٌ عَلَى مُوسَى وهارون (١١٩) إنَّا كذلِك نجزِى المحسنينَ (١٢٠) إنَّهما من عبادِنَا المؤمنين (١٢١) » .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٣٦ .

وموسى : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق ، وكانت ولادته فى حوالى القرن الثالث عشر ، ق م .

وهارون : أخو موسى ، قيل كان شقيقا له ، وقيل كان أخا له لأب ..

والمعنى : لقد أنعمنا على موسى - وهارون - عليهما السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم الأخرى .

والتى من بينها أننا نجيناهما وقومهما المؤمنين، من استعباد فرعون إياهم، ومن تابعه لهم .

« ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » أى ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما ، فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناهم إياه ، هم الغالبين لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم ...

« وآتيناهما » بعد كل ذلك « الكتاب المستبين » أى : الكتاب المبين الواضح وهو التوراة .

يقال : استبان الشىء ، إذا ظهر ووضح وضوحا تاما .

« وهديناهما الصراط المستقيم » أى : وهديناهما وأرشدناهما - بفضلنا وإحساننا - إلى الطريق الواضح الذى لا عوج فيه .

وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون ، أى : وأبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن .

« إنا كذلك نجزى المحسنين » أى : مثل هذا التكريم نجازى عبادنا المحسنين « إنهما من عبادنا المؤمنين » أى الذين صدقوا فى إيمانهم ، وفى طاعتهم لنا .

* * *

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة إلياس - عليه السلام - وهو أيضا من ذرية إبراهيم وإسحاق، فقال - تعالى - :

« وإنَّ إلياسَ لمن المرسَلين (١٢٢) إذ قالَ لقومِه ألاَ تتَّقُون(١٢٣) أتَدْعُون بَعلاً وتذرُونَ أحسَنَ الخالِقينَ (١٢٤) اللهُ ربكُم وربُّ آبائكُم الأولينَ (١٢٥) فكذَّبوهُ فإنَّهم لمحضَرونَ (١٢٦) إلاَّ عبادَ الله المخلَصينَ (١٢٧) وتركنَا عليهِ فى الآخرينَ (١٢٨) سلامٌ عَلَى إلْ ياسِين (١٢٩) إنَّا كذلِكَ نجزِى المحسنينَ (١٣٠) إنَّهُ مِنْ عبادِنا المؤمنين (١٣١) » .

وإلياس ـ عليه السلام ـ هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون ـ عليه السلام ـ ، فهو ينتهى نسبه ـ أيضا ـ إلى إبراهيم وإسحاق .

ويعرف إلياس فى كتب الإسرائيليين باسم « إيليا » ، وقد أرسله الله ـ تعالى ـ إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا .

ويقال : إن رسالته كانت فى عهد « آخاب » أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر ق م .

والمعنى : « وإن إلياس لمن المرسلين » الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وقوله : « إذ قال لقومه ألا تتقون » شروع فى بيان مانصح به إلياس قومه، والظرف مفعول لفعل محذوف . والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه ألا تتقون الله . وتخشون عذابه ونقمته . والاستفهام للحض على تقوى الله ـ تعالى ـ واجتناب مايغضبه .

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره ـ سبحانه ـ فقال: « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

والبعل : اسم الصنم الذى كان يعبده قومه، وهو صنم قيل: سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله - عز وجل - الذى خلقكم ورزقكم . . .

ولفظ الجلالة فى قوله : « الله ربكم ورب آبائكم الأولين » بدل من « أحسن الخالقين » .

أى : أتعبدون صنما صنعتموه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقرأ غير واحد من القراء السبعة « الله » - بالرفع - على أنه مبتدأ ، و « ربكم » خبره .

والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لآبائهم الأولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم : إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم ، بل - أيضا - رب آبائكم الأولين ، الذين عن طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة .

وقوله - تعالى - « فكذبوه فإنهم لمحضرون » بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم عن دعوته .

أى : دعا إلياس قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده . فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضارا فيه ذلهم وهوانهم .

« إلا عباد الله المخلصين » فإنهم ناجون من هذا الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريمنا وإحساننا .

« وتركنا عليه فى الآخرين » أى : وأبقينا على إلياس فى الأمم الآخرين « سلام على إلياسين » أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه .

« إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » .

* * *

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة لوط مع قومه ، فقال ـ تعالى ـ :

« وإنَّ لوطاً لمِنَ المرسَلينَ (١٣٢) إذ نجَّيْناهُ وأَهلَه أجمعينَ (١٣٣) إلاَّ عجُوزاً فى الغَابِرينَ (١٣٤) ثم دمَّرنا الآخرينَ (١٣٥) وإنكم لتمرُّونَ عليهِمْ مصبحِينَ (١٣٦) وباللَّيلِ أفلا تعقِلُون (١٣٧) » .

ولوط ـ عليه السلام ـ هو ابن أخ لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان قد آمن به وهاجر معه ، كما فى قوله ـ تعالى : « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى .... » .

وقد أرسل الله ـ تعالى ـ لوطا إلى قرية سدوم ـ من قرى الشام ـ وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

أى : « إن لوطا » ـ عليه السلام ـ « لمن المرسلين » الذين أرسلناهم لهداية الناس « إذ نجيناه وأهله أجمعين » أى : اذكر ـ أيها العاقل ـ وقت أن نجيناه وجميع المؤمنين معه ، بفضلنا ورحمتنا .

« إلا عجوزا فى الغابرين » والمراد بالعجوز : امرأته التى بقيت على كفرها وكانت تفشى أسرار زوجها .

أى : نجينا لوطا والمؤمنين معه من أهله ، إلا عجوزا بقيت فى العذاب مع القوم الغابرين أى : مع الباقين فى العذاب .

« ثم دمرنا الآخرين » أى : ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم ، كما دمرنا من بقى على كفره من أهل لوط ، كامرأته التى أعرضت عن دعوة الحق ، وانحازت إلى قومها المفسدين .

ثم وجه - سبحانه - الخطاب لمشركى قريش فقال: «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون»؟

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على مساكن قوم لوط المهلكين ، وأنتم سائرون إلى بلاد الشام ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلون فى وقت الصباح ، وتارة تمرون عليهم وأنتم داخلون فى وقت الليل ، وترون بأعينكم ما حل بهم من دمار .

وقوله «أفلا تعقلون» معطوف على مقـــدر . أى : أتشاهدون ذلك فلا تعقلون ، فالاستفهام للتوبيخ والحض على الاعتبار بأحوال الماضين ..

* * *

ثم ختم - سبحانه - هذه القصص ، بذكر جانب من قصة يونس - عليه السلام - فقال :

«وإنَّ يونُسَ لمِنَ المرسلينَ(١٣٨) إذ أبَقَ إلى الفُلكِ المشحونِ(١٣٩) فساهم فكانَ من المدحَضِين (١٤٠) فالتقمهُ الحوتُ وهُو مُليمٌ (١٤١) فلولاَ أنهُ كانَ من المسبِّحينَ (١٤٢) للبِثَ فى بَطنــــه إلى يومِ يُبعثُونَ (١٤٣) فنَبذناهُ بالعَراءِ وهُو سقيمٌ (١٤٤) وأنبتْنَا عليه شجرةً من يقطِينٍ (١٤٥) وأرسلناهُ إلىٰ مائة ألفٍ أو يزيدُونَ (١٤٦) فآمنُوا فمتَّعناهُمْ إلى حينٍ (١٤٧) » .

ويونس - عليه السلام - : هو ابن متى ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى ...» .

وملخص قصته أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، وفى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعـالى - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة

أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب .

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا . ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك .

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشئوما ، فاقترعوا ليلقوا في البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس، ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه في البحر ، فالتقمه الحوت . . . »[1] .

والمعنى : وإن يونس ـ عليه السلام ـ لمن المرسلين، الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

« إذ أبق » أي : هرب من قومه بغير إذن من ربه . يقال : أبق العبد ـ كضرب ومنع ـ إذا هرب من سيده فهو آبق .

« إلى الفلك المشحون » أي : هرب من قومه إلى الفلك المليء بالناس والأمتعة . « فساهم » أي : فقارع من في السفينة بالسهام ، يقال استهم القوم إذا اقترعوا « فكان من المدحضين » .

أي : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواه . يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

« فالتقمه الحوت وهو مليم » أي : بعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه في البحر ، « فالتقمه الحوت » أي : ابتلعه بسرعة ، يقال : لقم فلان الطعام ـ كسمع ـ والتقمه . إذا ابتلعه بسرعة ، وتلقمه إذا ابتلعه على مهل .

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ٢٣ ص ١٤٣ .

وجملة « وهو مليم » حالية فى محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال مايلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه .

يقال : رجل مليم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال مايلام عليه ، وهو اسم فاعل من ألام الرجل ، إذا أتى مايلام عليه ...

« فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » أى: فلولا أن يونس - عليه السلام - كان من المسبحين لله - تعالى - المداومين على ذكره . لولا هذا التسبيح للبث يونس فى بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله - تعالى - وتسبيحه .. سبب فى تفريج الكروب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته . وفى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : « أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته . ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ...

وفى الحديث الشريف : « من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل » فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلق الله ، لكى يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه ... »[1] .

« فنبذناه بالعراء وهو سقيم » والنبذ : الطرح . والعراء : الخلاء ..

أى : أن يونس - عليه السلام - بعد أن التقمه الحوت أخذ فى الإكثار من تسبيحنا ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ١٢٧ .

وجملة « وهو سقيم » حالية . أي : ألقيناه بالأرض الفضاء حالة كونه عليلا سقيما ، لشدة ما لحقه من تعب وهو في بطن الحوت .

« وأنبتنا عليه شجرة من يقطين » أي : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من يقطين لكي تظلل عليه ، وتمنع عنه الحر .

واليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .

وقد قالوا إن المراد بهذه الشجرة ، هي شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .

« وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين » أي : وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعيناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك في نظر الناظر إليهم ، فآمنوا جميعا ، فمتعناهم ، بالحياة ، إلى حين ، انتهاء آجالهم .

قال الإمام ابن كثير : « ولا مانع من أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به . وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون »(1) .

هذا ومن العبر التي نأخذها من هذه القصة ، أن رحمة الله ـ تعالى ـ قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفي الوقت الذي تقبل فيه التوبة ، قبل الله ـ تعالى ـ توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا في رفع البلاء . . . .

* * *

وبعد هذه الجولة مع قصص بعض الأنبياء ، أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل هؤلاء المشركين ، سؤال توبيخ وتأنيب ،

(1) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٥ .

عما قالوه فى شأن الملائكة من باطل وزور ، وأن يرد على أكاذيبهم ردا يخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :

« فاستَفتِهم أَلِربِّكَ البناتُ ولهم البَنُون (١٤٨) أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهِدونَ (١٤٩) ألا إنَّهم من إفكِهِمْ ليقولُونَ (١٥٠) ولدَ اللهُ وإنهم لكاذِبونَ (١٥١) اصطفَى البنـاتِ عَلَى البنينَ (١٥٢) مالكُم كيفَ تحكمونَ (١٥٣) أفلا تذكَّرونَ (١٥٤) أم لكم سلطانٌ مبينٌ (١٥٥) فأتوا بكتابِكُم إنْ كنتُم صادِقين (١٥٦) وجَعلوا بينَه وبينَ الجِنَّةِ نَسَباً ، ولقد علِمَتْ الجِنَّةُ إنَّهُم لمحضَرونَ (١٥٧) سبحانَ اللهِ عمايَصِفُون (١٥٨) إلاَّ عبادُ اللهِ المخلَصِينَ (١٥٩) فإنكم وماتعبدُون (١٦٠) ما أنتُمْ عليه بفاتِنينَ (١٦١) إلا من صالِ الجحيم (١٦٢) وما مِنَّا إلا لهُ مقامٌ معلومٌ (١٦٣) وإنا لنحنُ الصافُّونَ (١٦٤) وإنا لنحنُ المسبِّحونَ (١٦٥) وإنْ كانوا ليَقُولون (١٦٦) لو أنَّ عِنـدَنا ذِكْراً من الأوّلِينَ (١٦٧) لكنَّا عبادَ اللهِ المخلَصِين (١٦٨) فكفَرُوا به فسوفَ يعلَمُونَ (١٦٩) » .

وقوله - تعالى - « فاستفتهم . . . » معطوف على قوله - تعالى - فى أوائل السورة : « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا . . » عطف جملة على جملة . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستفتاء : الاستخبار والاستفهام وطلب الفتيا من المفتى .

أى : اسأل - أيها الرسول - هؤلاء المشركين سؤال تقريع وتأنيب : « ألربك البنات ولهم البنون » أى : اسألهم بأى وجه من وجوه القسمة جعلوا لربك البنات وجعلوا لأنفسهم البنين ؟ إن قسمتهم هذه لهى قسمة جائرة

وفاسدة عند كل عاقل ، لأنه لا يليق فى أى عقل أن يجعلوا لله - تعالى - الجنس الأدنى وهو جنس الإناث ، بينما يجعلون لأنفسهم الجنس الأعلى .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى » .

قال صاحب الكشاف : قوله « فاستفتهم .. » معطوف على مثله فى أول السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة ، أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولا : ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها ، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم الملائكة بنات الله ، مع كراهتهم الشديدة لهن ...

ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر : أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام .

والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم ، حيث جعلوا له أوضع الجنسين له ، وأرفعهما لهم ...

والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق الله ، وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم . ولو قيل لأقلهم وأدناهم : فيك أنوثة ، أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمور ، ولانقلبت حماليقه - أى : أجفان عينيه ... »(١) .

وقوله - سبحانه - : « أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون » تقريع آخر لهم على جهالاتهم وسفههم ، حيث أضرب - سبحانه - عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه فى التبكيت والتأنيب .

أى : إنهم زعموا أن لربك البنات ولهم البنون ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث ؟ كلا إنهم لم يكونوا حاضرين وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٣ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويسألون»[١] .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : «وهم شاهدون» فخص علم المشاهدة ؟

قلت : ما هو إلا الاستهزاء بهم وتجهيل ... وذلك لأنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق علمه فى قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر ...»[٢] .

ثم أخبر - سبحانه - عن كذبهم فقال : «ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون» والإفك : أشنع الكذب وأقبحه . يقال : أفك فلان كضرب وعلم - إفكا وأفكا، إذا كذب كذبا فاحشا .

أى : ألا إن هؤلاء الكافرين . من شدة كذبهم، وشناعة جهلهم ليقولون زورا وبهتانا : «ولد الله» أى : اتخذ الله ولدا «وإنهم لكاذبون» فى ذلك كذبا «تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا» .

وافتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح «ألا» لتأكيد قولهم، وأنهم كانوا مصرين على هذا القول الذى لا نهاية لبطلانه .

ثم كرر - سبحانه - توبيخهم وتقريعهم فقال : «اصطفى البنات على البنين» والاصطفاء : الاختيار والانتقاء . والاستفهام للإنكار والنفى، أى : هل اختار الله البنات على البنين فى زعمهم ؟ كلا إن الله - تعالى - لم يفعل شيئا من ذلك لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

---

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٣ .

« مالكم كيف تحكمون » أى : أى شىء حدث لكم ، وكيف أصدرتم هذه الأحكام الظاهرة البطلان عند كل من كان عنده أثر من عقل ...

وقوله : « أفلا تذكرون » معطوف على كلام محذوف والتقدير : أتجهلون هذه الأمور الواضحة ، فلا تعقلون ولا تتذكرون ولا تعتبرون ...

وقوله - تعالى - : « أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم ، إلى تحديهم وإثبات كذبهم .

أى : بل ألكم حجة واضحة على صحة هذا القول الذى قلتموه من أن الملائكة بنات الله ؟ إن كانت عندكم هذه الحجة فأتوا بها إن كنتم صادقين فيما زعمتم .

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تعجيزهم وإثبات المزيد من جهالاتهم وأكاذيبهم ..

ثم حكى - سبحانه - زعما آخر من مزاعمهم فى شأن الملائكة فقال : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون .... » ،

والمراد بالجنة هنا : الملائكة . سمو بذلك لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين

أى : أن المشركين لم يكتفوا بما قالوا فى الآيات السابقة ، بل أضافوا إلى ذلك جريمة أخرى ، وهى أنهم جعلوا بين الله - تعالى - وبين الملائكة نسبا ولقد علمت الجنة ، - أى الملائكة - ، « أنهم » أى القائلون لهذه المقالة الباطلة « لمحضرون » أى : إلى العذاب يوم القيامة . ليذوقوا سوء عاقبة كذبهم .

قال القرطبى : أكثر أهل التفسير أن الجنة ها هنا الملائكة . عن مجاهد قال : قالوا - يعنى كفار قريش - الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر :

فن أمهاتهن ؟ قالوا : مخدرات الجن ... ومعنى « نسبا » : مصاهرة . وقال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهن ...

وقال الحسن : « أشركوا الشيطـــان فى عبادة الله ، فهو النسب الذى جعلوه ... »[1] .

ثم نزه ـ سبحانه ـ ذاته عما افتروه فقال : « سبحان الله عما يصفون » أى : تنزه الله ـ تعالى ـ وتقدس عما يقوله هؤلاء الجاهلون .

وقوله : « إلا عباد الله المخلصين » استثناء منقطع من قوله « لمحضرون » وما بينهما جملة معترضة لتنزيه الله ـ تعالى ـ وتقديسه .

أى : والله لقد علمت الملائكة أن المشركين القائلين بهذا القول الفاسد لمحضرون إلى النار ، ويدعون إليها دعا ، لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ليسوا كذلك ، بل هم ناجون من عذاب جهنم ، لتنزيههم الخالق ـ عز وجل ـ عما لا يليق به .

ثم حقر ـ سبحانه ـ من شأن المشركين ، ومن شأن آلهتهم المزعومة فقال : « فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم » .

وهذا الكلام يجوز أن يكون حكاية لما رد به الملائكة على المشركين الذين قالوا الإفك والزور قبل ذلك ، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من الله ـ تعالى ـ على سبيل الاستخفاف والتهكم وبآلهتهم .

والفاء فى قوله « فإنكم » واقعة فى جواب شرط مقدر . و « الواو » فى قوله « وما تعبدون » للعطف على اسم إن ، أو بمعنى مع . و « ما » موصولة أو مصدرية . و « ما » فى قوله : « ما أنتم عليه بفاتنين » نافية . والضمير فى « عليه » يعود على الله ـ عز وجل ـ . والجار والمجرور متعلق « بفاتنين » . والمراد

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ١٤٣ .

بالفتن هنا : الإفساد ، من قولهم : فلان فتن على فلان خادمه ، إذا أفسده . وجملة « ما أنتم عليه بفاتنين » خبر إن .

و « صال » - بكسر اللام - اسم فاعل منقوص - كقاض - مضاف إلى ما بعده . وحذفت ياؤه لالتقاء الساكنين .

والمعنى : إذا أدركتم - أيها المشركون - ماقلناه لكم . فثقوا أنكم أنتم وآلهتكم لن تستطيعوا أن تضلوا أحدا هداه الله - تعالى - لكنكم تستطيعون أن تضلوا من كان من أهل الجحيم مثلكم .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، الاستخفاف بالمشركين وبآلهتهم، وبيان أن من هداه الله ، تعالى - لا سلطان لهم عليه فى إغوائه أو إضلاله .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « عليه » لله - تعالى - . ومعناه: فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله ، إلا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها .

فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله ؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم .

من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها وخببها عليه ... »[١] .

ثم بين - سبحانه - أن الملائكة معترفون اعترافا تاما بطاعتهم لله - تعالى - وبمداومتهم على عبادته وتسبيحه فقال : « وما منا إلا له مقام معلوم، وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون » .

أى : لقد اعترف الملائكة بطاعتهم الكاملة لله - تعالى - وقالوا : ومامنا أحد إلا له مقام معلوم فى عبادة الله - تعالى - وطاعته ، وإنا لنحن الصافون

أنفسنا فى مواقف العبودية والطاعة لله - عز وجل - ، وإنا لنحن المسبحون والمنزهون له - تعالى - عن كل ما لا يليق به .

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث منها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لجلسائه : أطت السماء وحق لها أن تئط - أى سمع لها صوت شديد - ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد ثم قرأ : وإنا لنحن الصافون : وإنا لنحن المسبحون »(١) .

ثم أخبر - سبحانه - عن حال المشركين قبل أن يأتيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون » .

و « إن » فى قوله « وإن كانوا . . . » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف .

والقائلون هم كفار مكة والفاء فى قوله « فكفروا به . . . » هى الفصيحة الدالة على محذوف مقدر.

والمعنى إن حال هؤلاء الكافرين وشأنهم، أنهم كانوا يقولون قبل مجىء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم « لو أن عندنا ذكراً من الأولين » أى : لو أن عندنا كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل . لكنا عباد الله المخلصين، أى : لكنا بسبب وجود هذا الكتاب من عباد الله الذين يخلصون له العبادة والطاعة .

فجاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - بالكتاب المبين كما تمنوا وطلبوا ، فكانت النتيجة أن كفروا به ، فسوف يعلمون سوء عاقبة هذا الكفر ، « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون »(٢).

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨ .
(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٥ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببشارة المؤمنين بنصره ، وبتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

« ولقَدْ سبقَتْ كلِمَتُنَا لعبَادِنَا المرسَلِينَ (١٧٠) إنهم لهم المنْصُورُون (١٧١) وإنَّ جُندنَا لهم الغالِبونَ (١٧٢) فتولَّ عنهُم حتى حين (١٧٣) وأَبصِرْهم فسوْفَ يُبْصِرُون (١٧٤) أفبعذَابِنَا يستعجلون (١٧٥) فإذَا نَزلَ بساحَتِهم فساء صباحُ المنذَرِين (١٧٦) وتولَّ عنهُم حتَّى حين (١٧٧) وأَبْصِر فسوفَ يُبْصِرُون (١٧٨) سبحانَ رَبِّكَ ربِّ العزةِ عما يَصِفون (١٧٩) وسلامٌ عَلَى المرسَلِينَ (١٨٠) والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ (١٨١) » .

والمراد « بكلمتنا » في قوله - تعالى - : « ولقد سبقت كلمتنا ... » ما وعد الله - تعالى - به رسله وعباده الصالحين من جعل العاقبة الطيبة لهم .

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(١) وقوله - سبحانه « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن قوى عزيز »(٢) .

أى : والله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز « إنهم لهم المنصورون » .

على أعدائهم « وإن جندنا لهم الغالبون » لمن عاداهم وناوأهم .

وهذا الوعد بالنصر لا يتعارض مع هزيمتهم في بعض المواطن - كيوم أحد مثلا - ، لأن هذه الهزيمة إنما هي لون من الابتلاء الذى اقتضته حكمة الله - تعالى - ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، أما النصر في النهاية

وهذا ما حكاه لنا التاريخ الصحيح ، فقد تم فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، بعد أن جاهد النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكافرين ، ولم يفارق الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عن المشركين ، وبالصبر على أذاهم ، إلى الوقت الذى يأذن الله لك فيه بقتالهم فقال : « فتول عنهم حتى حين » أى : فأعرض عنهم إلى الوقت الذى يأذن الله لك فيه بقتالهم « وأبصرهم فسوف يبصرون » أى: وانظر إليهم وراقبهم عند ما ينزل بهم عذابنا ، فسوف يبصرون هم ذلك فى دنياهم وفى آخرتهم .

والأمر بمشاهدة ذلك : إشعار بأن نصره - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، آت لا ريب فيه حتى لكأنه واقع بين يديه ، ومشاهد أمامه .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : « أفبعذابنا يستعجلون » للتوبيخ والتأنيب .

أى أبلغ الجهل وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين ، أنهم يستعجلون عذابنا .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم - : يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به فنزلت هذه الآية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم هذا العذاب الذى استعجلوا نزوله فقال : فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » .

والساحة فى الأصل تطلق على الفناء الواسع للدار والمراد بها هنا القوم الذين يكونون فيها والمخصوص بالذم محذوف .

أى : فإذا نزل العذاب بهؤلاء المشركين . فبئس الصباح صباحهم : ولن ينفعهم حينئذ ندم أو توبة ، وخص الصباح بالذكر ، لأن العذاب كان يأتيهم فيه فى الغالب .

أخرج الشيخان عن أنس - رضى الله عنه - قال : صبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيبر ، فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا

يقولون : محمد والله ، محمد والخميس - أى : والجيش - فقال - صلى الله عليه وسلم - الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ...».

ثم كرر - سبحانه - تهديده ووعيده لهم على سبيل التأكيد لعلهم يعتبرون فقال : « وتول عنهم حتى حين : وأبصر فسوف يبصرون » أى : وأعرض عنهم حتى حين ، وأبصر ما توعدناهم به من عـــذاب أليم ، فسوف يبصرون هم ذلك .

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون » أى تنزه وتقدس ربك - أيها الرسول الكريم - عما وصفه به الواصفون الجاهلون من صفات لا تليق بذاته،

وقوله « رب العزة » بدل من « ربك » ، أى : أى هو صاحب العزة والغلبة والقوة التى لا يقف أمام قوتها شىء والتى لا يملكها أحد سواه .

« وسلام على المرسلين » أى : وسلام وأمان وتحية منا على المرسلين « والحمد لله رب العالمين » أى : والثناء الكامل لله - تعالى - رب العالمين جميعا وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة الصافات . نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر	كتبه الراجى عفو ربه
الأربعاء : ٢٠ من ذى القعدة ١٤٠٥ هـ	محمد سيد طنطاوى
١٩٨٤/٨/٧ م	

فهرس إجمالي لتفسير «سورة الصافات»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	٧٧
١	والصافات صفا ...	٨١
٦	إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ...	٨٥
١١	فاستفتهم أهم أشد خلقا ...	٨٨
٢٢	احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ...	٩٤
٤٠	إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم ...	١٠١
٥٠	فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ...	١٠٥
٦٣	أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ...	١٠٩
٧٥	ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ...	١١٤
٨٣	وإن من شيعته لإبراهيم ...	١١٧
١١٣	ولقد مننا على موسى وهارون ...	١٣٤
١٢٣	وإن إلياس لمن المرسلين ...	١٣٦
١٣٣	وإن لوطا لمن المرسلين ...	١٣٨
١٣٩	وإن يونس لمن المرسلين ...	١٣٩
١٤٩	فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ...	١٤٣
١٧٠	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ...	١٥٠

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة ص

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتى جمهورية مصر العربية

(الجزء الثالث والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾

« صدق الله العظيم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

١ – سورة « ص » هى السورة الثامنة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « القمر » وهى من السور المكية الخالصة . ويقال لها سورة « داود » .

قال الآلوسى : هى مكية – كما روى عن ابن عباس وغيره – وهى ثمان وثمانون آية فى المصحف الكوفى . وست وثمانون فى الحجازى والبصرى والشامى .... وهى كالمتممة لسورة الصافات التى قبلها ، من حيث إنه ذكر فيها مالم يذكر فى تلك من الأنبياء ، كداود وسليمان ... »[1] .

٢ – وقد افتتحت سورة « ص » بقسم من الله – تعالى – ، بالقرآن الكريم ، على صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، فيما يبلغه عن ربه .

ثم حكى – سبحانه – ما قاله المشركون فيما بينهم ، لإنكار نبوة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، ولإنكار يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، ورد عليهم بما يثبت جهلهم وغفلتهم واستكبارهم عن قبول الحق ..

قال – تعالى – : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦٠

أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ... » .

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه منهم من أذى وكيد ، فحكت له أن أقوام الرسل السابقين قد قابلوا رسلهم بالتكذيب ، وأمرته بالصبر على جهالاتهم ، وساقت جانبا من قصة داود - عليه السلام - ، فذكرت بعض النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه ، كما ذكرت مادار بينه وبين الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب ..

قال - تعالى - : « كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق . وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب . أصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ...

٤ - وبعد هذا الحديث الذى فيه شىء من التفصيل عن وجوه النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عبده داود ، وعن لون من ألوان الامتحانات التى امتحنه - تعالى - بها ، وعن الإرشادات الحكيمة التى أرشده الله - عز وجل - إليهـــا ...

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، وبين أن حكمته قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والفجار ...

قال - تعالى - : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب ... » .

٥ - ثم أثنى - سبحانه - بعد ذلك على نبيه . سليمان - عليه السلام - وبين بعض النعم التى منحها له ، كما بين موقفه مما اختبره - تعالى - به ...

قال - تعالى - : ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب. قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص ...

٦ - ثم مدح - سبحانه - نبيه أيوب - عليه السلام - على صبره، وعلى كثرة تضرعه إلى ربه، وكيف أنه - تعالى - قد كافأه على ذلك بما يستحقه..

قال - تعالى - : واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب. اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب: ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث، إنا وجدناه صابرا، نعم العبد، إنه أواب».

٧ - ثم أثنى - سبحانه - على أنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وإسماعيل واليسع وذا الكفل، وبين ما أعده لهم ولأمثالهم من عباده الأخيار كما بين ما توعد به الفجار من عذاب أليم..

قال - تعالى - : «هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب. جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب. هذا ماتوعدون ليوم الحساب. إن هذا لرزقنا ما له من نفاد، هذا، وإن للطاغين لشر مآب»..

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن قصة آدم وإبليس وكيف أن الملائكة جميعا سجدوا لآدم إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله - تعالى -.

٩ - ومن هذا العرض المجمل لسورة «ص» نرى أنها قد اهتمت اهتماما واضحا، بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، وعلى صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن يوم القيامة حق، كما اهتمت

بحكاية شبهات المشركين ثم الرد عليها ، كما ذكرت جانبا من قصص بعض الأنبياء. ليعتبر بقصصهم كل ذى عقل سليم، كما أنها قد اهتمت ببيان حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات : وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة ـ مدينة نصر — د . محمد سيد طنطاوى

الخميس ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

٨ / ٨ / ١٩٨٥ م

قال تعالى :

« ص . والقرآن ذى الذكر (١) بل الذين كفروا فى عزة وشقاق (٢) كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص (٣) وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (٤) أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب (٥) وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد (٦) ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق (٧) أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب (٨) أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب (٩) أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب (١٠) جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب (١١) » .

سورة « ص » من السور القرآنية التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن بينا بشىء من التفصيل آراء العلماء فى هذه المسألة ، عند تفسيرنا لسور البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ...

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله

ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو فى الإتيان بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله .

فعجزوا وانقلبوا خاسرين . وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

والواو فى قوله - تعالى - : « والقرآن ذى الذكر » للقسم . والمقسم به القرآن الكريم .

وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه .

والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أى : صاحب شرف ونباهة .

ومنه قوله - تعالى - : « وإنه لذكر لك ولقومك » .

ويطلق ويراد به التذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على المواعظ والأحكام وقصص الأنبياء . وغير ذلك مما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم ...

وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن ، فيكون المعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف العظيم ، وذى التذكير الحكيم المشتمل على ماينفع الناس فى دنياهم وآخرتهم ...

قال بعض العلماء ماملخصه : اعلم أنهم اختلفوا فى تعيين الشىء الذى أقسم الله - تعالى - عليه فى قوله : « والقرآن ذى الذكر » .

فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله - تعالى - : « إن ذلك

لفى تخاصم أهل النار » أو قوله - تعالى - « إن هذا لرزقنا ماله من نفاد » أو قوله - تعالى - كم أهلكنا من قبلهم من قرن . . .

والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط .

وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا فى تقديره ، فقال صاحب الكشاف : التقدير : « والقرآن ذى الذكر » إنه لمعجز . وقدره ابن عطيه فقال : والتقدير : « والقرآن ذى الذكر » ليس الأمر كما يقول الكفار ... »[1] .

وقوله - تعالى - : « بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » انتقال من القسم والمقسم به ، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد .

والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن إتباع الحق ، كما فى قوله - تعالى - : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد »[2] .

وليس المراد بها القهر والغلبة كما فى قوله - تعالى - « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يفقهون »[3] .

وأصل الشقاق المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكأن كل واحد منهما فى شق غير الذى فيه الآخر . والمراد به هنا : مخالفة المشركين لما جاءهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف وسمو القدر . إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبلغه عن ربك ، ولست كما يقول أعداؤك فى

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ٨ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٦
(٣) سورة المنافقون الآية ٨

شأنك . بل الحق أن هؤلاء الكافرين فى حمية واستكبار عن قبول الهداية التى جئتهم بها من عند ربك ، وفى مخالفته ومعارضته لكل مالا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة للأصنام، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة .

والتعبير بفى فى قوله « فى عزة وشقاق » للإشعار بأن ماهم عليه من عناد ومن مخالفته للحق قد أحاط بهم من كل جوانبهم ، كما يحيط الظروف بالمظروف .

ثم خوفهم - سبحانه - بما أصاب الأمم من قبلهم ، وحذرهم من أن يكون مصيرهم كمصير المكذبين السابقين فقال : « كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » .

« وكم » هنا خبرية . ومعناها : الإخبار عن عدد كبير . وهى فى محل نصب على أنها مفعول به لأهلكنا .

وصيغة الجمع فى أهلكنا للتعظيم . و « من » فى قوله « من قبلهم » لابتداء الغاية ، وفى قوله : « من قرن » مميزة لكم . والقرن : يطلق على الزمان الذى يعيش فيه جيل من الناس ، ومدته - على الراجح - مائة سنة والمراد به هنا أهل هذا الزمان.

والمراد بالنداء فى قوله تعالى - : فنادوا : الاستغاثة والضراعة إلى الله أن يكشف عنهم العذاب .

و « لات » هى لا المشبهة بليس - وهذا رأى سيبويه - ، فهى حرف نفى زيدت فيه التاء لتأكيد هذا النفى .

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس ، وأنها لا تعمل إلا فى الحين خاصة ، أو فى لفظ الحين ونحوه من الأزمنة ، كالساعة والأوان ، وأنها لابد أن يحذف اسمها أو خبرها ، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب .

والحين: ظرف مبهم يتخصص بالإضافة.

وقوله: مناص، مصدر ميمى بمعنى الفرار والخلاص. يقال: ناص فلان من عدوه - من باب قال - فهو ينوص نوصا ومناصا، إذا فر منه وهرب من لقائه.

أو بمعنى النجاة والفوت: يقال: ناصه ينوصه إذا فاته ونجا منه:

والمراد بقوله - تعالى -: «أهلكنا» الشروع فى الإهلاك، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك «فنادوا»، إذ من المعروف أن من هلك بالفعل لا يستغيث ولا ينادى.

والمعنى: إن هؤلاء الكافرين المستكبرين عن طاعتنا وعبادتنا، قد علموا أننا أهلكنا كثيراً من السابقين أمثالهم، وأن هؤلاء السابقين عندما رأوا أمارات العذاب ومقدماته، جاروا إلينا بالدعاء أن نكشفه عنهم، واستغاثوا استغاثة جاءت فى غير وقتها، ولقد قلنا لهم عندما استغاثوا بنا عند فوات الأوان: «ولات حين مناص».

أى: ليس الوقت الذى استغثتم بنا فيه وقت نجاة وفرار من العقاب، بل هو وقت تنفيذ العقوبة فيكم، بعد أن تماديتم فى كفركم، وأعرضتم عن دعوة الحق بدون إنابة أو ندم.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ...»[1]

وقوله - سبحانه -: «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون»[2].

---

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٦٤، ٦٥.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أكاذيب المشركين الناتجة عن استكبارهم وشقاقهم فقال : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . . . . » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها: أن جماعة من قريش اجتمعوا فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب ، لنكلمه فى شأن ابن أخيه . . . فلما دخلوا على أبي طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فره فليكف عن شتم آلهتنا . وندعه وإلهه .

فقال أبو طالب للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يابن أخي هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : ياعم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال: وإلام تدعوهم ؟ قال: أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم .

فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك ؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها .

فقال - صلى الله عليه وسلم - تقولون : « لا إله إلا الله » .

فنفر أبو جهل وقال . سلنا غير هذا .

فقال - صلى الله عليه وسلم - لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها فى يدي ، ما سألتكم غيرها » .

فقاموا غضابا ، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا . . . (١) .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٤٦ .

وقوله - تعالى - : « وعجبوا . . . » مأخوذ من العجب، وهو تغير فى النفس من أمر لا ترتاح إليه، وتخفى لديها أسبابه .

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من مجىء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك . ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

« وقال » هؤلاء « الكافرون » عندما دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الدين الحق .

« هذا ساحر كذاب » أى : قالوا هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - سبحانه - أرسله إلينا .

وقال - سبحانه - : « وقال الكافرون » بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم . وللإيذان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما هو منزه عنه من السحر والكذب .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل، أقوالا أخرى لا تقل عن غيرها فى البطلان والفساد . فقالوا - كما حكى القرآن - : « أجعل الآلهة إلها واحدا » .

والاستفهام للإنكار . أى : أجعل محمد - صلى الله عليه وسلم - الآلهة المتعددة ، إلها واحداً . وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة ؟

« إن هذا الشئ عجاب » أى : إن هذا الذى طلبه منا ، ودعانا إليه ، لشىء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل .

و « عجاب » أبلغ من عجيب . لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول : هذا رجل طويل ، بينما تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد المعقول فى الطول : هذا رجل طوال .

فلفظ « عجاب » صيغة مبالغة سماعية ، وقد حكاها - سبحانه - عنهم، للإشعار بأنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو شىء قد تجاوز الحد فى العجب والغرابة .

واسم الإشارة يعود إلى جعله صلى الله عليه وسلم - الآلهة إلها واحدا، لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام .

ثم صور سبحانه حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق . تصويرا بديعا ، فقال : وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم .

أى : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد أن سمعوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أغضبهم وخيب آمالهم .

انطلقوا يقولون : أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها آباؤكم، واصبروا على عبادة آلهتكم مهما هون محمد - صلى الله عليه وسلم - من شأنها، ومهما نهى عن عبادتها .

« إن هذا لشيء يراد » أى : إن هذا الذى يدعوا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - من عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة آلهتنا لشيء يراد من جهته هو ، وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على دعوته ، بتصميم منا على عبادة آلهتنا .

وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى ما يدعوهم إليه النبى - صلى الله عليه وسلم - من عبادة الله وحده .

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم ، فيكون المعنى : إن هذا الدين الذى نحن عليه لشيء يراد لنا ، وقد وجدنا عليه آباءنا ، وما دام الأمر كذلك فلن نتركه مهما كرهنا فيه محمد - صلى الله عليه وسلم .

قال الآلوسى: قوله : «إن هذا لشيء يراد» تعليل الأمر بالصبر. والإشارة إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى - صلى الله عليه وتصلبه فى أمر التوحيد، ونفى ألوهية آلهتهم . .

أى : إن هذا الشيء عظيم يراد من جهته - صلى الله عليه وسلم -

إمضائه وتنفيذه . فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم . . وقيل : إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر .

وقيل : إن هذا أى : دينكم يطلب لينتزع منكم ويطرح ويراد إبطاله ..[1].

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . . . » أى : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - فى الملة الآخرة وهى ملة عيسى - عليه السلام - فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء به عيسى .

وعلى هذين القولين يكون قوله « فى الملة الآخرة » متعلق بسمعنا .

ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - كائنا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان وأهل الكتاب .

وعلى هذا الرأى يكون قوله « فى الملة الآخرة » حالا من اسم الإشارة ، وليس متعلقا بسمعنا .

ثم أكدوا نفيهم لعدم سماعهم لما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقولهم : « إن هذا إلا اختلاق » .

أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وخرص اختلقه من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .

يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، أن يكون له أصل من الواقع .

ثم صرحوا فى نهاية المطاف بالسبب الحقيقى الذى حال بينهم وبين الإيمان ،

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦٧ .

و الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة ،
- كما حكى القرآن عنهم - : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ... » .

الاستفهام للإنكار والنفي . أي : كيف يدعى محمد - صلى الله عليه وسلم -
أنزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظماء وهو دوننا
ع ؟ إننا ننكر وننفي دعوة النبوة من بيننا .

ال صاحب الكشاف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم
اثهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : « لو لا نزل هذا القرآن
جل من القريتين عظيم » وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم
لسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم »[1] .

لقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبي - صلى الله عليه وسلم -
ت كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله - تعالى - : « وإذا
م آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث
رسالته ... » .

لقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - فعند ما سأله
، أتظن محمداً على حق أم على باطل ؟ كان جوابه : إن محمدا لعلى
ولكن متى كنا لبني هاشم تبعا . أي : متى كانت أسرتنا تابعة
هاشم !! .

في رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا
نا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ،
كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك
والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

---

١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٤

وقوله - سبحانه - : « بل هم فى شك من ذكرى » إضراب عن كلام يفهم من السياق . وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى .

أى : هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى فى شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ماجئتهم به ، ولم يستندوا فى أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر . . . ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك .

وقوله - سبحانه - : « بل لما يذوقوا عذاب » إضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .

أى : لاتحزن - أيها الرسول الكريم - من مسالكهم الخبيثة . وأقوالهم الفاسدة . فإنهم مافعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابه بعد ، فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم . وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لايحوم حوله حق .

وفى التعبير بقوله « لما » إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول .

ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه - صلى الله عليه وسلم - للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تهكمى فقال - تعالى - : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » .

أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك . أيها الرسول الكريم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عمن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة صناديدهم ويترفعوا بها عنك . . .

وإنما المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزيز - الذى لا يغلبه غالب -
اب ، أى : الكثير العطاء لعباده .

والمراد بالعندية فى قوله « عندهم » : الملك والتصرف . وتقديم الظرف
ـد ، لأنه محل الإنكار . وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمير
اد إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، تشريف وتكريم له - صلى الله عليه
لم - .

وجىء بصفة « العزيز » ، للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وآلهتهم
ترفع وتكبر ،

كما جىء بصفة « الوهاب » ، للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى -
يختاره من عباده ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله - عز وجل - : « أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ... »
يد لما أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشىء من خزائن الله
الى - .

أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك - أيها الرسول الكريم -
سوا بمالكين شيئا - أى شىء - من هذه العوالم العلوية أو السفلية ، وإنما
خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير .

وقوله - سبحانه - : « فليرتقوا فى الأسباب » تعجيز لهم ، وتهكم بهم ،
ستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم . والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل
لى غيره من حبل أو نحوه .

والفاء جواب لشرط محذوف . والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا
لهم شىء من ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا فى الطرق التى
سلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ويدبروا أمره وينزلوا الوحى على
يختارونه للنبوة من أشرافهم وصناديدهم .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على نهاية التعجيز لهم ، والتهكم بهم وبأقوالهم حيث بين - سبحانه - أنهم أدعياء فيما يزعمون ، وأنهم يعرفون بما لا يعرفون . . .

ثم بشر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالنصر عليهم فقال : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » .

ولفظ « جند » خبر لمبتدأ محذوف . و « ما » مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو قولك : أكلت شيئا ما . أى شيئا قليلا ، وقيل : هى للتكثير والتهويل كقولهم : لأمر ما جدع قصير أنفه .

أى : لأمر عظيم . . . وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لا وزن لهم بجانب قدرة الله - تعالى - .

و « هنالك » صفة لجند ، أو ظرف لمهزوم . وهو إشارة إلى المكان البعيد .

و « مهزوم » خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل الهزم : غمز الشىء اليابس حتى يتحطم ويكسر .

يقال : تهزمت القربة ، بمعنى يبست . وتكسرت . وهزم الجيش ، بمعنى غلب وكسر .

والمعنى : هؤلاء المشركون - أيها الرسول الكريم - لا تهتم بأمرهم ، ولا تكترث بجموعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا التى لا يقف أمامها شىء ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين فى مواطن متعددة .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال - تعالى - : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

قال صاحب الكشاف : قوله : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله ، مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث لما به يهذون ، و « ما » مزيدة، وفيها معنى الاستعظام ... إلا على إنه على سبيل الاستهزاء بهم . و « هنالك» إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك »(١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوال المشركين ، وردت عليها رداً يكبتهم ويزهق باطلهم ، وختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .

* * *

ثم ساق - سبحانه - جانبا مما أصاب السابقين من دمار حين كذبوا رسلهم لكي يعتبر المشركون المعاصرون للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم ، فقال - تعالى - :

« كَذَّبَتْ قبلَهُم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتادِ (١٢) وثمودُ وقومُ لوطٍ وأصحابُ الأيكةِ أُولئكَ الأحزَابُ (١٣) إنْ كُلٌّ إلاَّ كذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وما ينظُرُ هَؤلاءِ إلاَّ صَيحةً وَاحدةً مالهاَ مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وقالُوا رَبَّنَا عَجِّل لنا قِطَّنَا قبلَ يومِ الحسابِ (١٦) ».

فقوله - تعالى - : « كذبت قبلهم قوم نوح ... استئناف مقرر لوعيد قريش بالهزيمة . ولوعد المؤمنين بالنصر . وتأنيث قوم باعتبار المعنى ، وهو أنهم أمة وطائفة .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٥ .

أى : ليس قومك - يا محمد - هم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقهم إلى هذا التكذيب قوم نوح ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان .

وسبقهم - أيضاً - إلى هذا التكذيب قوم عاد ، فقد كذبوا نبيهم هودا ، فكانت عاقبتهم الإهلاك بالريح العقيم . التى ما أتت على شىء إلا جعلته كالرميم .

وقوله : « وفرعون ذو الأوتاد » معطوف على ما قبله ، أى : وكذب - أيضاً - فرعون رسولنا موسى - عليه السلام -

وقوله : « ذو الأوتاد » صفة لفرعون . والأوتاد : جمع « وتد » وهو ما يدق فى الأرض لتثبيت الشىء وتقويته .

والمراد بها هنا : المبانى الضخمة العظيمة ، أو الجنود الذين يثبتون ملكه كما تثبت الأوتاد البيت ، أو الملك الثابت ثبوت الأوتاد .

قال الآلوسى ما ملخصه : والأصل إطلاق ذى الأوتاد على البيت المشدود والمثبت بها ، فشبه هنا فرعون فى ثبات ملكه . . . ببيت ثابت ذى عماد وأوتاد . . .

أو المراد بالأوتاد الجنود : لأنهم يقوون ملكه كما يقوى الوتد الشىء .

أو المراد بها المبانى العظيمة الثابتة .

ويصح أن تكون الأوتاد على حقيقتها . فقد قيل إنه كان يربط من يريد قتله بين أوتاد متعددة ، ويتركه مشدوداً فيها حتى يموت . . . »[1] .

أى : وفرعون صاحب المبانى العظيمة ، والجنود الأقوياء ، والملك

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٧٠ .

الوطيد . . . كذب رسولنا موسى - عليه السلام - ، فكانت عاقبة هذا التكذيب أن أغرقناه ومن معه جميعا من جنوده الكافرين.

وكذب - أيضاً . قوم ثمود نبيهم صالحاً ، وقوم لوط نبيهم لوطا، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب . كذبوه كذلك - فكانت نتيجة هذا التكذيب الإهلاك لهؤلاء المكذبين - كما قال - تعالى - : « فكلا أخذنا بذنبه . فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»(١)

والإشارة فى قوله - تعالى - : « أولئك الأحزاب » تعود إلى هؤلاء الأقوام المكذبين لرسلهم وسموا بالأحزاب ، لأنهم تحزبوا ضد رسلهم ، وانضم بعضهم إلى بعض فى تكذيبهم ، ووقفوا جميعا موقف المحارب لهؤلاء الرسل الكرام.

وقوله - سبحانه - : « إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » استئناف مقرر لما قبله من تكذيب هؤلاء الأقوام لرسلهم ، وبيان للأسباب التى أدت إلى عقاب المكذبين .

و « إن » هنا نافية ، ولا عمل لها لانتقاض النفى بإلا . و « إلا » أداة استثناء مفرغ من أعم الصفات أو الأحكام : وجملة « كذب الرسل » فى محل رفع خبر « كل » .

أى : ليس لهؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل . فكانت نتيجة هذا التكذيب أن حل بهم عقابى وثبت عليهم عذابى . الذى دمرهم تدميراً .

والإخبار عن كل حزب من هذه الأحزاب بأنه كذب الرسل ، إما لأن تكذيب كل حزب لرسوله يعتبر من باب التكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠

واحدة ، وإما من قبيل مقابلة الجمع بالجمع ، والمقصود تكذيب كل حزب لرسوله .

وقد جاء تكذيبهم فى الآية السابقة بالجملة الفعلية « كذبت قبلهم ... » وجاء فى هذه الآية بالجملة الإسمية : لبيان إصرارهم على هذا التكذيب ، ومداومتهم عليه ، لإعراضهم عن دعوة الرسل لهم إعراضا تاما .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق » بيان للعذاب المعد المشركين المعاصرين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بعد بيان العقاب الذى حل بالسابقين .

والمراد بالصيحة هنا . النفخة الثانية التى ينفخها إسرافيل فى الصور فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء :

وقيل المراد بها النفخة الأولى وضعف هذا القول بأنهم ان يكونوا موجودين وقتها حتى يصعقوا بها .

وينظرون هنا بمعنى ينتظرون . وجعلهم ـ سبحانه ـ منتظرين العذاب مع أنهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة ـ للاشعار بتحقق وقوعه ، وأنهم بصدد اقانه ، فهم لذلك فى حكم المنتظرين له .

أى : وما ينتظر هؤلاء المشركون الذين هم أمثال المهلكين من قبلهم ، «إلا صيحة واحدة» أى: نفخة واحدة، ينفخها إسرافيل « فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » ، وهذه النفخة، مالها من فواق، أى : ليس لها من توقف وانتظار حتى ولو بمقدار فواق ناقة وهو الزمن ، الذى يكون بين الحلبتين أو الزمن الذى يكون فيه رجوع اللبن فى الضرع بعد الحلب .

والمقصود بيان أن هذه الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها ان تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط يتم بعدها كل شىء يتعلق بالبعث والجزاء .

قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله : « ما لها من فواق » يجوز أن يكون قوله « لها » رافعا لقوله . « من فواق » على الفاعلية لاعتماده على النفى .

وأن يكون جملة من مبتدأ وخبر ، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لصيحة ، ومن مزيدة . . .

والفواق ـ بفتح الفاء وضمها ـ الزمان الذى بين حلبتى الحالب ورضعى الراضع . والمعنى : ما لها من توقف قدر فواق ناقة . وفى الحديث : العبادة قدر فواق ناقة . . »(1) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الكريمة ، ببيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جهالات وسفاهات ، حيث تعجلوا العقاب قبل وقوعه بهم ، فقال ـ تعالى ـ : « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » .

والقط : النصيب والقطعة من الشىء . مأخوذ من قط الشىء إذا قطعه وفصله عن غيره .

فهم قد أطلقوا القطعة من العذاب على عذابهم ، باعتبار أنها مقتطعة من العذاب الكلى المعد لهم ولغيرهم .

أى : وقال هؤلاء المشركون الجاهلون يا ربنا « عجل لنا قطنا » أى : عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب .

وتصدير دعائهم بنداء الله ـ تعالى ـ بصفة الربوبية ، يشعر بشدة استهزائهم بهذا العذاب الذى توعدهم الله ـ تعالى ـ به ، على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ونسب ـ سبحانه ـ القول إليهم جميعا مع أن القائل هو النضر بن الحارث ، أو أبو جهل . . . ، لأنهم قد رضوا بهذا القول ، ولم يعترضوا على قائله . .

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦٤ .

وقيل المراد بقوله - تعالى - : « عجل لنا قطنا .. » أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب .

وقيل المراد به : نصيبهم من الجنة ، أى : عجل لنا نصيبنا من الجنة التى وعد رسولك بها أتباعه ، وأعطنا هذا النصيب فى الدنيا قبل يوم الحساب لأننا لا نؤمن بوقوعه .

وعلى جميع الأقوال ، فالمراد بيان أنهم قوم قد بلغ بهم التطاول والغرور منتهاه ، حيث استهزءوا بيوم الحساب ، وطلبوا تعجيل نزول العذاب بهم فى الدنيا ، بعد أن سمعوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن عقوبتهم مؤجلة إلى الآخرة ...

قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »(١) .

وقال - سبحانه - : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »(٢) .

• • •

ثم واصلت السورة الكريمة تسليتها للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث أمرته بالصبر ، وذكرت له - بشىء من التفصيل - قصص بعض الأنبياء - عليهم السلام - وبدأت بقصة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الملك والنبوة ، قال - تعالى - :

«اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ،وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣ .
(٢) سورة الحج الآية ٤٧ .

إنَّا سَخَّرْنَا الجبالَ معهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشراق (١٨) والطيرَ محشُورَةً كُلٌّ لهُ أوابٌ (١٩) وشددْنَا مُلكَهُ وآتيناهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخطابِ (٢٠) وهَلْ أتاكَ نبأُ الخَصْمِ إذْ تسوَّرُوا المحرابَ (٢١) إذْ دخَلُوا عَلَى داودَ فَفزِعَ مِنهم، قالُوا لا تَخَفْ، خَصْمانِ بَغَى بَعْضُنا عَلَى بَعْضٍ فاحكُم بيْنَنَا بالحقِّ ولا تُشطِط واهدِنَا إلَى سواءِ الصِّراطِ (٢٢) إنَّ هـذا أخِي لهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نعجةً وَلِي نعجةٌ واحـدةٌ، فقالَ اكفِلْنِيها وعزَّنِي في الخطابِ (٢٣) قالَ لقد ظلَمَكَ بسؤالِ نَعجتِكَ إلى نعاجِهِ، وإنَّ كثيراً من الخُلطاءِ لَيبغي بَعْضُهم عَلَى بعضٍ إلاَّ الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ وَقليل ما هُمْ، وظنَّ داود أنَّما فتنَّاهُ فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكِعاً وأنابَ (٢٤) فغفَرْنَا لهُ ذلكَ وإنَّ لهُ عِندَنَا لزُلفَى وحسن مآبٍ (٢٥) يا داوُدُ إنَّا جعَلْنَاكَ خَليفةً في الأرضِ، فاحكُمْ بَيْنَ النـاسِ بالحقِّ ولا تتَّبِـعِ الهوَى فيُضلَّكَ عنْ سَبيلِ اللهِ، إنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عنْ سبيلِ اللهِ لهُم عذابٌ شـديدٌ بمَـا نَسُوا يومَ الحِسَابِ (٢٦)».

والخطاب في قوله - تعالى -: «اصبر على ما يقولون ...» للنبي - صلى الله عليه وسلم -.

أي: اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما قاله أعـداؤك فيك وفي دعوتك. لقد قالوا عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر ... وقالوا عن القرآن الكريم: إنه أساطير الأولين ... وقالوا في شأن دعوتك إياهم إلى

وحدانية الله - تعالى - « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هـذا إلا اختلاق» ...

وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذى سلكه كل نبى من قبلك ...

وقال - سبحانه - ، أصبر على ما يقولون ، بصيغة المضارع ،لاستحضار الصورة الماضية . وللإشعار بأن ما قالوه فى الماضى سيجدونه فى الحاضر وفى المستقبل . فعليه أن يعد نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل ، بينه وبينهم .

وقوله - تعالى - : « وأذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » معطوف على جملة (اصبر ...) .

وداود - عليه السلام - : هو ابن يسى من سبط (يهـوذا) بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم . وكانت ولادة داود فى حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد . وقد منحه الله - تعالى - النبوة والملك .

وقوله - تعالى - : (ذا الأيد) صفة لداود . والأيد : القوة . يقال : آد الرجل يئيد أيدا وإيادا ، إذا قوى وأشتد عوده ، فهو أيد . ومنه قولهم فى الدعاء : أيدك الله . أى : قواك و (أواب) صيغة مبالغة من آب إذا رجع .

أى : أصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك حتى يحكم بينك وبينهم واذكر - لتزداد ثباتا وثقة - قصة وحال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة فى عبادتنا وطاعتنا وفى دحر أعدائنا .. (إنه أواب) أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا .

ثم بين - سبحانه بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود

ـ عليه السلام ـ فقال : (إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والإشراق ...) .

والعشى: الوقت الذى يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح. والإشراق : وقت إشراق الشمس، أى سطوعها وصفاء ضوئها، قالوا :وهو وقت الضحى...

فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس . وهو يسبق الإشراق.

أى : إن من مظاهر فضلنا على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به ، فتسبح بتسبيحه فى أوقات العشى والإشراق .

وقال ـ سبحانه ـ (معه) للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به فى ذلك .

أى : أنها إذا سمعته يسبح الله ـ تعالى ـ ويقدسه وينزهه ، رددت معه ما يقوله .

وهذا التسبيح من الجبال لله ـ تعالى ـ ، إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو ـ عز وجل ـ ، بدليل قوله ـ سبحانه ـ : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا(١) » .

والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمور منها: المخالفة لما تدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

تقييد التسبيح بكونه بالعشى والإشراق . وبكونه مع داود ، يدل على أنه تسبيح بلسان المقال ، إذ التسبيح بلسان الحال موجود منهما فى كل وقت ، ولا يختص بكونه فى هذين الوقتين أو مع داود .

وخص - سبحانه - وقتى العشى والإشراق بالذكر . الإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما .

وقوله - تعالى - : (والطير محشورة ...) معطوف على الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة . وهى حال من الطير . والعامل قوله (سخرنا).

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبيح مع داود عند تسبيحه لنا، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .

والتعبير بقوله « محشورة» يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى لكأنها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى - وتقديسه .

وجملة « كل له أواب » مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير .

واللام فى « له » للتعليل والضمير يعود إلى داود - عليه السلام - .

أى : كل من الجبال والطير - من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح . ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله - تعالى - بما يرضيه .

وقوله - تعالى - : « وشددنا ملكه » أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة ..

« وآتيناه الحكمة » أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق .

« وفصل الخطاب » أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل ، وبالحزم الذى لا يشوبه تردد أو تراجع .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد لعبده داود بذلك فقال : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » .

والاستفهام للتعجيب والتشويق لما يقال بعده، لكونه أمرا غريبا تتطلع إلى معرفته النفس .

والنبأ : الخبر الذى له أهمية فى النفوس . . .

والخصم : أى المتخاصمين أو الخصماء. وهو فى الأصل مصدر خصمه أى: غلبه فى المخاصمة والمجادلة والمنازعة، ولكونه فى الأصل مصدرا صح إطلاقه على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث . . . قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخصم الآخر .

أى : بجانبه . . .

والظرف فى قوله : « إذ تسوروا المحراب » متعلق بمحذوف. والتسور: اعتلاء السور ، والصعود فوقه، إذ صيغة التفعل تفيد العلو والتصعد . كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذا علا فوق سنامه .

والمحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود - عليه السلام - للتعبد وذكر الله - تعالى -

والمعنى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم . الذين تسلقوا على داود غرفته، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدومهم . . .

إن كان هـــذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فها نحن نقصه عليك .

وقوله : « إذ دخلوا على داود ففزع منهم .. » بدل مما قبله . والفزع : انقباض فى النفس يحدث للإنسان عند توقع مكروه .

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته . . .

ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة .

قال القرطبى : فإن قيل : لم فزع داود وهو نبى ، وقد قويت نفسه بالنبوة واطمأنت بالوحى ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات . وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ، ومنهما كان يخاف .

ألا ترى إلى موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ كيف قالا : « إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ـ أى : فرعون ـ ، فقال الله لهما : « لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ... »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفزع فقال : « قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ... » .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ١٧٠ .

والبغى : الجور والظلم ... وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .
والشطط : مجاوزة الحق فى كل شىء . يقال : شط فلان على فلان فى الحكم واشتط ... إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

وقوله : «خصمان» خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان . والجملة استئناف معلل للنهى فى قولهم : «لا تخف» .

أى : قالوا لداود : لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوزه إلى غيره ، وأهدنا إلى سواء الصراط ، أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .

وإضافة سواء الصراط ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ثم أخذا فى شرح قضيتهما فقال أحدهما : «إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب» .

والمراد بالأخوة هنا : الأخوة فى الدين أو فى النسب أو فيهما وفى غيرهما كالصحبة والشركة .

والنعجة : الأنثى من الضأن . وتطلق على أنثى البقر .
وقوله : «أكفلنيها» أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون تحت كفالتى وملكيتى كبقية النعاج التى عندى ، ليتم عددها مائة .

وقوله : «وعزنى فى الخطاب» أى : غلبنى فى المحاجة والمخاطبة لأنه أفصح وأقوى منى .

يقال : فلان عز فلانا فى الخطاب ، إذا غلبه . ومنه قولهم فى المثل : من عز بز . أى : من غلب غيره سلبه حقه .

أى : قال أحدهما لداود - عليه السلام - : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى .

وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى وقال لى : « أكفلنيها » أى : ملكنيها وتنازل لى عنها « وعزنى فى الخطاب » .

أى : وغلبنى فى مخاطبته لى ، لأنه أقوى وأفصح منى .

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ، وعدم اعتراضه على قوله ... أمام كل ذلك . لم يلبث أن قال داود فى حكمه : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ... » .

واللام فى قوله : « لقد ... » جواب لقسم محذوف .

وإضافة « سؤال » إلى « نعجتك » من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والفاعل محذوف .

أى : بسؤاله ، كما فى قوله - تعالى - : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير » أى : من دعائه .

وقوله « نعاجه » متعلق بسؤال على تضمينه معنى الضم .

أى : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما أدعاه - والله إن كان ماتقوله حقا - أيها المدعى - فإن أخاك فى هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

وإنما قلنا إن داود - عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضى لا يحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصمين ، حتى يتمكن من الحكم بالعدل .

ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه بعد سماع كلام

المدعى عليه . لأنه مقرر ومعروف فى كل الشرائع ، وحذف ماهو مقرر ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .

ثم أراد داود - عليه السلام - وهو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب - أراد أن يهون المسألة عن نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ماقاله أخوه الغنى له وما فعله معه ، فقال : وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ... » .

أى : قال داود للمشتكى - على سبيل التسلية له - : وإن كثيرا من الخلطاء ، أى الشركاء - جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره .

« ليبغى بعضهم على بعض » أى : ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم فى مال الآخر « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فإنهم لا يفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل ما لا يرضى خالقهم . فالجملة الكريمة منصوبة المحل عن الاستثناء ، لأن الكلام قبلها تام موجب .

وقوله : « وقليل ما هم بيان لقلة عدد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون فى أحكامهم .

ولفظ « قليل » خبر مقدم و « ما » مزيدة للإبهام وللتعجيب من قلتهم . و « هم » مبتدأ مؤخر .

فكأنه - سبحانه - يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على إعطاء كل ذى حق حقه . والجملة الكريمة اعتراض تذييلى .

وبهذا نرى أن داود - عليه السلام - قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل .

ثم بين - سبحانه - ما حاك بنفس داود - عليه السلام - بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : « وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » .

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

وفتناه : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه ، مأخـوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .

أى : وظن داود ـ عليه السلام ـ أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة، إنما هو لأجل الاعتداء عليه . وأن ذلك لون من ابتلاء الله ـ تعالى ـ له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ؛ « وخر راكعا » أى : ساجدا لله ـ تعالى ـ وعبر عنه بالركوع لأنه فى كل منهما اغناء وخضوع لله ـ عز وجل ـ « وأناب » أى : ورجع داود إلى الله ـ تعالى ـ بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة.

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : « فغفرنا له ذلك . . . » يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنهما حضر إليه فى خصومة بينهما ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق، فغفر الله ـ تعالى ـ له.

فقوله ـ تعالى ـ « فغفرنا له ذلك » أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه . « وإن له عندنا لزلفى » أى : لقربة منا ومكانة سامية « وحسن مآب » أى : وحسن مرجع فى الآخرة وهو الجنة.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة ، والآداب القويمة ، التى وجهها ـ سبحانه ـ إلى كل حاكم فى شخص داود ـ عليه السلام ـ فقال ـ : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . . . »

والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه . فهو فعيل بمعنى فاعل، والتاء فيه للمبالغة.

أى : يا داود إنا جعلناك ـ بفضلنا ومنتنا ـ خليفة ونائبا عنا فى الأرض، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدهم إلى الصراط المستقيم.

والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقها . أى : فغفرنا له ذلك ، وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . ويصح أن تكون مستأنفة لبيان مظاهر الزلفى والمكانة الحسنة التى وهبها - سبحانه - لداود ؟ حيث جعله خليفة فى الأرض .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ... » للتفريع ، أو هى جواب لشرط مقدر . والهوى : ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك . فاحكم - يا داود - بين الناس بالحكم الحق الذى أرشدك الله - تعالى - إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان والأحوال : ولا تتبع هوى النفس وشهواتها ، فإن النفس أمارة بالسوء .

وقوله - سبحانه - فيضلك عن سبيل الله ...» بيان للمصير السوء الذى يؤدى إليه اتباع الهوى فى الأقوال والأحكام .

وقوله « فيضلك » منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، على أنه جواب للنهى السابق .

أى : ولا تتبع الهوى ، فإن اتباعك له ، يؤدى بك إلى الضلال عن طريق الحق ، وعن مخالفة شرع الله - تعالى - ودينه .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : « إن الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » :

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم للهوى ، لهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - . لأنهم تركوا الاستعداد ليوم الحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ — سمو منزلة داود - عليه السلام - عند ربه ، فقد افتتحت هذه

الآيات ، بأن أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتذكر ما حدث لأخيه داود . ليكون هذا التذكر تسلية له عما أصابه من المشركين، وعونا له على الثبات والصبر .

ثم وصف - سبحانه - عبده داود بأنه كان قويا فى دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه ، وأنه - سبحانه - قد وهبه نعما عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ثم ختمت هذه الآيات - أيضا - بالثناء على داود - عليه السلام - ، حيث قال - سبحانه - : . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، ، وببيان أنه - تعالى - قد جعله خليفة فى الأرض .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضله - عليه السلام - ما أخرجه البخارى فى تاريخه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا ذكر داود، وحدث عنه قال : « كان أعبد البشر » .

وأخرجه الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا ينبغى لأحد أن يقول إنى أعبد من داود » .

٣ - أن قصة الخصمين اللذين تسوروا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس فى شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التى حكاها القرآن الكريم، فزع منهما داود - عليه السلام - وظن أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله - تعالى - يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث . . .

فلما تبين لداود بعد ذلك ، أن الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه، وإنما يريدان التحاكم إليه فى مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق - أى ظن الاعتداء عليه - فغفر الله - تعالى - له . . .

والذى يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا فى تأييد هذا المعنى

قال أبو حيان ما ملخصه - بعد أن ذكر جملة من الآراء - : «والذى أذهب إليه مادل عليه ظاهر الآية، من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس. دخلوا عليه من غير المدخل، وفى غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يقتالونه، إذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا فى حكومته، وبرز منهم إثنان للتحاكم . . . وأن ما ظنه غير واقع، استغفر من ذلك الظن، حيث اختلف ولم يقع مظنونه، وخر ساجدا منيبا إلى الله - تعالى - فغفر له ذلك الظن، ولذلك أشار بقوله: «فغفرنا له ذلك»، ولم يتقدم سوى قوله - تعالى - : «وظن داود أنما فتناه» ويعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا، ولا يمكن وقوعهم فى شىء منها، ضرورة أننا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع، ولم نثق بشىء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم، فما حكى الله - تعالى - فى كتابه، يمر على ما أراده - تعالى - ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة، طرحناه . . .»(١).

٣ - ومع أن ما ذكرناه سابقا، وما نقلناه عن الإمام أبى حيان. هو المعنى الظاهر من الآيات، وهو الذى تطمئن إليه النفس، لأنه يتناسب مع مكانة داود - عليه السلام - ، ومع ثناء الله - تعالى - عليه وتكريمه له. . .

أقول مع كل ذلك، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب، يذكرون قصصا فى نهاية النكارة، وأقوالا فى غاية البطلان والفساد . .

فمثلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : «أن داود - عليه السلام - كان يصلى فى محرابه . . ثم تطلع من نافذة المكان الذى كان يصلى فيه، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته، فسألها عن زوجها، فأخبرته بأن زوجها، اسمه «أوريا» وأنه خرج مع الجيش الذى يحارب الأعداء . .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٧ ص٣٩٣ .

فأمر داود - عليه السلام - قائد الجيش أن يجعله في المقدمة لكي يكون عرضة للقتل ... وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة ... »[1] .

ونرى صاحب الكشاف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله : « فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء ... » .

نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصها : « أن داود - عليه السلام - لم يعمل على قتل « أوريا » ، وإنما سأله أن يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها .. أو أنه خطبها بعد أن خطبها « أوريا » . فآثر أهلها داود على « أوريا » ...

قال صاحب الكشاف : كان أهل زمان داود - عليه السلام - يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها .... فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له « أوريا » .

فأحبها ، فسأله النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان - عليه السلام - .... وقيل : خطبها « أوريا » ثم خطبها داود ، فآثر أهلها داود على « أوريا » ... »[2] .

والذى نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها ، عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها ...

ينكرها النقل لأنها لم تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكذوبة ...

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٣ ص ٩٣ . والقرطبى جـ ١٥ ص ١٦١

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٠

قال ابن كثير : وقد ذكر المفسرون ها هنا قصة، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي ، عن أنس ، ويزيد - وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ... »(١) .

وقال السيوطي : القصة التي يحكونها في شأن المرأة وأنها أعجبته ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفي إسناده ابن لهيعة ، وخالد معروف - عن ابن صخر ، عن يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف ... » .

وقال البقاعي : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود . وقد أخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه(٢) .

إذا فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن رواتها معروفون بالضعف ، وبالنقل عن الإسرائيليات .

ويروى أن الإمام عليا - رضي الله عنه - قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء(٣) .

وهي غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح في أول الآيات وفي آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق ، أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته .

(١) تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٥١
(٢) راجع تفسير القاسمي حـ ١١ ص ٥٠٨٨
(٣) راجع تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٨١

إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء، هو داود - عليه السلام -، الذي مدحه الله - تعالى - بالقوة في دينه، وبكثرة الرجوع إلى مايرضي الله - تعالى -، وبأنه - سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب، وبأن له عند ربه « زلفى حسن مآب »..

والخلاصة: أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة، لأنه لم يقم عليه دليل أو مايشبه الدليل، بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا، لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء، الذين صانهم الله - تعالى - من إرتكاب ما يخدش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها.

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه: « ماحكاه الله - تعالى - عن داود، قول صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود.

وإنما كان ذلك الخصم قوما من بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم.

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء، فقد كذب على الله - تعالى -، ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه.. لأن الله - تعالى - يقول: « وهل أتاك نبأ الخصم »، فقال هو: لم يكونوا خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة ولا قال له: أكفلنيها.. »[1].

٤ - هذا، وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات، منها: أن استغفار داود - عليه السلام - إنما كان سببه أنه قضى

(١) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٨٨.

لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : «لم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة - التي جعلت داود يستغفر ربه - إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ... » فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الخصم مخالفا للصواب ، فعند هذا إشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل . »[1] .

والذي نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ، ولا يتناسب مع منزلة داود - عليه السلام - الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأولياته ، أن لا يحكم القاضي بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعا ، فكيف يقال بعد ذلك أن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام آخر .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت: كيف سارع داد إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه ؟

قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد إعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ... »[2] .

ومنهم من يرى ، أن إستغفار داود - عليه السلام - كان سببه : أن قوما من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب، فلما دخلوا عليه لقصد قتله وجدوا عنده أقواما . فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٨٢

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٧

عما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الإنتقام[1] .

وهذا القول - وإن كان لا بأس به من حيث المعنى - إلا أن الرأى الذى سقناه سابقا ، والذى ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر عن معنى الآيات .

وملخصه : أن الخصـومة حقيقية بين إثنين من البشر ، وإستغفار داود - عليه السلام - سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتياله ولإيذائه ، وأن هذا إبتلائه من الله - تعالى - إبتلاه به ، ثم تبين له بعد ذلك أنهم ما جاؤا الاعتداء عليه وإنما جاؤا ليقضى بينهم فى خصومة . فاستغفر ربه من ذلك الظن ، فغفر الله - تعالى - له .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، التى ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين إختارهم الله - تعالى - لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته ، وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال .

ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق السموات والأرض عبثا ، وأن حكمته إقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار ، وأن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - لتدبر آياته ، وللعمل بتوجيهاته فقال - تعالى - :

« وماَ خلقْناَ السَّماء والأرضَ وما بينَهما باطِلاً ظنُّ الذينَ كفرُوا فويلٌ للذينَ كفرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أم نجعَل الذينَ آمنُوا وعملُوا

---

(١) تفسير الآلوسى ج٢٣ ص ١٨٦ .

الصَّالحاتِ كالمفسِدينَ فى الأرض ، أم نجعلُ المتقينَ كالفُجّار (٢٨) كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مبارَكٌ ، ليدَّبَّرُوا آياته وليتذكَّرَ أولُوا الألبابِ (٢٩) » .

والمراد بالباطل فى قوله - تعالى - : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا . . » العبث واللهو واللعب وما يخالف الحق . والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير أن يوم القيامة حق ، وأن كفر الكافرين به ضلال وجهل . وقوله « باطلا » صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لأجله .

أى : وما خلقنا - بقدرتنا التى لا يعجزها شىء - السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - ... وما خلقنا ذلك خلقا باطلا لا حكمة فيه ، أو ما خلقناه من أجل متابعة الهوى وترك العدل والصواب .

وإنما خلقنا هذا الكون خلقا مشتملا على الحكم الباهرة ، وعلى المصالح الجة ، والأسرار البليغة ، والمنافع التى لا يحصيها العد ، والهيئات والكيفيات التى تهدى من يتفكر فيها إلى اتباع الحق والرشاد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : « ذلك ظن الذين كفروا . . » يعود إلى ما نفاه - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما بينهما على سبيل اللهو والعبث .

أى : نحن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة ... ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أننا خلقنا هذه الكائنات من أجل الباطل واللهو واللعب . . وسبب هذا الظن والاعتقاد

الفاسـد منهم، كفرهم بالحق، وجحودهم ليوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هدايات وإرشادات.

وقوله ـ تعالى ـ: «فويل للذين كفروا من النار» بيان للعاقبة السيئة التى حلت بهم بسبب هذا الظن الفاسد... فالفاء: للتفريع على ظنهم الباطل والويل: الهلاك والدمار:

و«من» إبتدائية أو بيانية أو تعليلية.

أى: القول بأن خلق هذا الكون خال من الحكمة، هو ظن وإعتقاد الذين كفروا وحدهم، وما دام هذا ظنونهم ومعتقدهم فهلاك لهم كائن من النار التى نسلطها عليهم فتحرق أجسادهم، وتجعلهم يذوقون العذاب المهين.

وقال ـ سبحانه ـ «فويل للذين كفروا...» بالإظهار فى مقام الإضمار، للإشعار بعلية صلة الموصول للحكم أى: أن هذا الويل والهلاك كائن لهم بسبب كفرهم.

وقال ـ سبحانه ـ: «فويل للذين كفروا» ولم يقل للذين ظنوا للإشارة إلى أن ظنهم القبيح هذا، ما هو إلا نتيجة كفرهم وجحودهم للحق.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن حكمته قد اقتضت إستحالة المساواة بين الأخيار والفجار، فقال ـ تعالى ـ: «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار».

و«أم» فى الآية الكريمة منقطعة بمعنى بل الإضرابية، والهمزة للاستفهام الإنكارى.

والإضراب هنا إنتقالى من تقرير أن هذا الكون لم يخلقه الله ـ تعالى ـ عبثا إلى تقرير استحالة المساواة بين المؤمنين والكافرين؛

والمعنى : وكما أننا لم نخلق هذا الكون عبثا ، كذلك إقتضت حكمتنا وعدالتنا ... إستحالة المساواة أيضا بين المتقين والفجار .

وذلك لأن المؤمنين المتقين ، قد قدموا لنا فى دنياهم ما يرضينا ، فكافأناهم على ذلك ما يرضيهم ، ويسعدهم ويشرح صدورهم ، ويجعلهم يوم القيامة خالدين فى جنات النعيم .

أما المفسدون والفجار ، فقد قدموا فى دنياهم مايغضبنا ويسخطنا عليهم فجازيناهم على ذلك بما يستحقون من عذاب السعير .

وربك - أيها العاقل - « لا يضيع أجر من أحسن عملا » « ولا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

فالمقصود بالآية الكريمة إعلان إستحالة التسوية فى الآخرة بين المؤمنين والكافرين ، لأن التسوية بينهما ظلم ، وهو محال عليه - تعالى - ، وما كان البعث والجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة إلا ليجزى - سبحانه - الذين أساؤا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

ومن الآيات التى تشبه فى معناها هذه الآية قوله - تعالى - : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون » (١)

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وبين حكمة إنزاله ، فقال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

وقوله : « كتاب » خبر لمبتدأ محذوف . والمقصود به القرآن الكريم .

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢١ .

أي : هذا كتاب « أنزلناه إليك » بقدرتنا ورحمتنا ـ أيها الرسول الكريم ومن صفاته أنه « مبارك » أي : كثير الخيرات والبركات ...

وجعلناه كذلك « ليدبروا آياته » أي : ليتفكروا فيما اشتملت عليه آياته من أحكام حكيمة ، وآداب قويمة ، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ...

« وليذكر أولوا الألباب » أي : وليتعظ أصحاب العقول السليمة بما جاء فيه من قصص وعبر عن السابقين ، كما قال ـ سبحانه ـ : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

* * *

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من قصة سليمان ـ عليه السلام ـ فمدحه لكثرة رجوعه إلى الله ، وذكر بعض النعم التي منحها إياه ، كما ذكر اختياره له ، وكيف أن سليمان ـ عليه السلام ـ طلب من ربه المغفرة والملك ، فأعطاه ـ سبحانه ـ ما طلبه . قال ـ تعالى ـ :

« وَوَهَبنا لداود سليمانَ نِعم العبدُ إنَّهُ أوَّابٌ (٣٠) إذْ عرضَ عليه بالعَشِيّ الصَّافِناتُ الجيادُ (٣١) فقالَ إنِّي أحبَبْتُ حبَّ الخيرِ عن ذكرِ ربي حتى توارتْ بالحجاب (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فطفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعناقِ (٣٣) ولقد فتنَّا سليمانَ وألقَينا على كُرسيِّهِ جسداً ثم أنابَ (٣٤) قالَ ربِّ اغفرْ لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ .

بعدى إنك أنت الوهاب (٣٥) فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء
حيث أصاب (٣٦) والشياطين كل بناء وغواص (٣٧) وآخرين
مقرنين فى الأصفاد (٣٨) هـذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير
حساب (٣٩) وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (٤٠) » .

فى هـذه الآيات الكريمة مسألتان ذكر بعض المفسرين فيهما كلاما غير مقبول .

أما المسألة الأولى فهى مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان والمقصود به .

وأما المسألة الثانية فهى مسألة المقصود بقوله ـ تعالى ـ : « ولقد فتنا سليمان . . . » .

وسنسير فى تفسير هذه الآيات على الرأى الذى تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض الأقوال التى قيلت فى هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منها ، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ :

المخصوص بالمدح فى قوله ـ تعالى ـ : « نعم العبد » محذوف ، والمقصود به سليمان ـ عليه السلام ـ .

أى : ووهبنا ـ بفضلنا وإحساننا ـ لعبدنا داود ابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ ونعم العبد سليمان فى دينه وفى خلقه وفى شكره لخالقه ـ تعالى ـ .

وجملة « إنه أواب » تعليل لهذا المدح من الله ـ تعالى ـ لسليمان ـ عليه السلام ـ أى : إنه رجاع إلى مايرضى الله ـ تعالى ـ مأخوذ من آب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها .

و « إذ » فى قوله : « إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد » منصوب

بفعل تقديره : اذكر، و « عليه » متعلق بعرض. و « العشى » يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار . وقيل إلى مطلع الفجر .

والصافنات : جمع صافن، والصافن من الخيل: الذى يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها .

والجياد : جمع جواد، وهو الفرس السريع العدو، الجيد الركض، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، يقال : جاد الفرس يجود جودة فهو جواد ، إذا كان سريع الجرى ، فاره المظهر . .

أى : اذكر - أيها العاقل - ما كان من سليمان - عليه السلام - وقت أن عرض عليه بالعشى الخيول الجميلة الشكل ، السريعة العدو . . .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : ما معنى وصفها بالصفون؟ قلت : الصفون لا يكاد يوجد فى الهجن ، وإنما هو فى الخيل العراب الخاص. وقيل: وصفها بالصفون والجودة، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين: واقفة وجارية ، يعنى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها . . . »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال استعراضه للخيول الصافنات الجياد على سبيل الشكر لربه، فقال - تعالى - : « فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب »

والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما فى قوله - تعالى - : « وإنه لحب الخير لشديد » .

والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة، والعرب تسمى الخيل خيرا، لتعلق

---

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ٩١ .

الخير بها ، روى البخارى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

و « عن » هنا تعليلية . والمراد « بذكر ربى » طاعته وعبادته والضمير فى قوله « حتى توارت » يعود إلى الخيل الصافنات الجياد والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذى يحجب الرؤية .

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إنى أحببت استعراضه الصافنات الجياد. وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربى وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال فى سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام الذى يحجب الرؤية « ردوها على » ، أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافنات الجياد على مرة أخرى ؛ لأزداد معرفته بها ، وفهما لأحوالها . . .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق . و « طفق » فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان . و « مسحا » مفعول مطلق لفعل محذوف . والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات الجياد على ، فردوا عليه . فأخذ فى مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها ، وسرورا بما هى عليه من قوة هو فى حاجة إليها للجهاد فى سبيل الله ـ تعالى ـ .

هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه عن كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

ولكن كثيرا من المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان ـ عليه السلام ـ جلس يوما يستعرض خيلا له ، حتى غابت الشمس

دون أن يصلى العصر ، لحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة، فأخذ فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قربة لله - تعالى -.

فهم يرون أن الضمير فى قوله - تعالى - « حتى توارت بالحجاب » يعود إلى الشمس . أى : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

وأن المراد بقوله - تعالى - « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » الشروع فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر.

قال الجمل : « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » أى : جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين »(١) .

ولم يرتض الإمام الرازى - رحمه الله - هذا التفسير الذى عليه أكثر المفسرين ، وإنما ارتضى أن الضمير فى « توارت » يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود بقوله - تعالى - : « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » الإعجاب بها والمسح عليها بيده حبا لها ...

فقد قال ما ملخصه : « إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين الإسلام ، ثم إن سليمان - عليه السلام - احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله : « عن ذكر ربى » .

ثم إنه - عليه السلام - أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره .

ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها .

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٧٣ وغيرها من كتب التفسير .

والغرض من ذلك: التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو ... وإظهار أنه خبير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض...»(١).

وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم: «تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة، خرافة موضوعة... قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها. وإتلاف مال منتفع به بلا معنى. ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها...

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها.

ثم أمر بردها. فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده، برا بها، وإكراما لها، هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره. وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل، وتعطيل الصلاة...»(٢).

والحق أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر. وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها... لا دليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم...

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازى والإمام ابن حزم، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى -: «فطفق مسحا بالسوق والأعناق» إنما هو تكريمها...

وأن الضمير فى قوله: «حتى توارت» يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور.

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج٧ ص١٩٢ فقد أفاض وأجاد فى تفسير الآيات.
(٢) راجع تفسير القاسمى ج١٤ ص ٥١٠١.

ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه السلام - فقال - تعالى - : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ... ».

وقوله : « فتنا » من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان . تقول: فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعلم جودته ...

قال الآلوسى : « وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله - تعالى - ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا ، وفيه: «فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا » .

ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين . وأن الملك قال له : قل إن شاء الله ، فلم يقل - اى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان ...

والمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولده . ومعنى إلقائه على كرسيه :وضع القابلة له عليه ليراه »(١) .

وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال: « تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله » على سبيل التمنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة فى سبيل الله.

ومعنى « فلم يقل » أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه ، إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمومنزلته اعتبرذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك « رب اغفرلى ... ».

وقوله :« لأطوفن الليلة .. » كناية عن الجماع . قالوا : ولعل المقصود . طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة، ولامانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال.

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقيق ما طلبه .

(١) تفسير الآلوسى جـ٢٣ ص ١٩٨ .

وهذا الرأى فى تقديرنا هو الرأى الصواب فى تفسير الآية الكريمة. لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت فى الصحيحين وفى غيرهما ، ولأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان ـ الذى لا يترتب عليه ترك شىء من التكاليف التى كلفهم الله ـ تعالى ـ بها جائز عليهم

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله . . . ، أن الوحى مكث فترة لم ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأنه نسى أن يقول ـ عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء إن شاء الله ، وقال سأجيبكم على ما سألتمونى عنه غدا .. (١) .

ومن العلماء من آثر عدم تعيين الفتنة التى اختبر الله ـ تعالى ـ بها سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ، بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : « وجائز أن تكون هذه الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال ..

ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان ، كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء . . . » (٢) .

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأى السابق لاستناده فى استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح .

هذا ، وهناك أقوال أخرى ذكروها فى المقصود بفتنة سليمان وبالجسد الذى ألقاه الله على كرسى سليمان ، وهى أقوال ساقطة ، تتنافى مع عصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ .

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص ٥٣

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ١٠٠

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان . عبارة عن شيطان تمثل له فى صورة إنسان، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذى كان يصرف به ملكه . وقعد ذلك الشيطان على كرسى سليمان . ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذى قتله سليمان فى إحدى الحروب . وقد بقيت على هذه الحال هى وجواريها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه وله ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته . ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسى سليمان ، فاستغفر سليمان ربه لأنه لم يعتمد عليه فى حفظه ابنه . إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التى تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتتنافى - أيضا - مع كل عقل سليم ، ولا مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصاص الذين يأتون بقصص ما أنزل الله بها من سلطان(١).

قال أبو حيان - رحمه الله - : «نقل المفسرون فى هذه الفتنة وفى إلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها فى كتبهم، وهى مما لا يحل نقلها، وهى إما من أوضاع اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ما هى ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان .

وأقرب ما قيل فيه ، أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال فيه : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ... والجسد الملقى هو المولود شق رجل ...»(٢).

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج٢٣ ص ١٠١ . والآلوسى ج٢٣ ص ٢٠٠ وغيرهما

(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٨ ص ٣٩٧ .

وقوله ـ سبحانه ـ : «قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ...» بيان لما قاله سليمان ـ عليه السلام ـ بعد الابتلاء والاختبار من الله ـ تعالى ـ له .

أى : قال سليمان ـ عليه السلام ـ : يارب اغفرلى ما فرط منى من ذنوب وزلات ...

«وهب لى ملكا» عظيما «لا ينبغى لأحد من بعدى» أى : لا يحصل مثله لأحد من الناس من بعدى «إنك أنت» يا إلهى «الوهاب» أى: الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .

وقدم سليمان ـ عليه السلام ـ طلب المغفرة على طلب الملك، للإشارة إلى أنها هى الأهم عنده .

قال الإمام الرازى ـ رحمه الله ـ : «دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة، وأيضا الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله ـ تعالى ـ سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة ...»(١) .

ولا يقال كيف طلب سليمان ـ عليه السلام ـ الدنيا والملك مع حقارتهما إلى جانب الآخرة وما فيها من نعيم دائم .

لأن سليمان ـ عليه السلام ـ ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج . وتنفيذ شرع الله ـ تعالى ـ على الوجه الأكمل .

فهو ـ عليه السلام ـ لم يطلب الملك للظلم أو البغى .. وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ شريعة الله ـ تعالى ـ فى الأرض .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩٦ .

ولقد وضح الإمام القرطبى هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله - تعالى - ... ؟

فالجواب : أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته .. ... وحوشى سليمان - عليه السلام - أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ، لأنه هو والأنبياء، أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .

ومعنى قوله « لا ينبغى لأحد من بعدى » أى أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة ... »(١).

والفاء فى قوله - تعالى - : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب » للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . والتسخير : التذليل والإنقياد .

أى : دعانا - سليمان - عليه السلام - والتمس منا أن نعطيه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه ، وذللنا له الريح ، وجعلناها منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينة ، إلى حيث يريدها أن تجرى .

وقوله : « تجرى » حال من الريح . وقوله « بأمره » من إضافة المصدر لفاعله . أى : بأمره إياها .

ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ... » لأن المقصود من الآيتين بيان أن الريح تجرى بأمر سليمان ، فهى تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفة وفى كلتا الحالتين هى تسير بأمره ورغبته .

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٢٠٤ .

وقوله : « والشياطين كل بناء وغواص » معطوف على الريح أى : سخرنا له الريح تجرى بأمره . . وسخرنا له الشياطين. بأن جعلناهم منقادين لطاعته فمنهم من يقوم ببناء المبانى العظيمة التى يطلبها سليمان منهم ، ومنهم الغواصون الذين يغوصون فى البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التى إشتملت عليها البحار .

وقوله - سبحانه - : « وآخرين مقرنين فى الأصفاد » معطوف على كل بناء داخل معه فى حكم البدل من الشياطين .

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البناءون ، وكان منهم الغواصون ، وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .

فمعنى « مقرنين » : مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود . والأصفاد : جمع صفد وهو ما يوثق به الأسير من قيد وغل .

ثم بين - سبحانه - أنه أباح لسليمان - عليه السلام - أن يتصرف فى هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : « هذا عطاؤنا » أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان - عليه السلام - وقلنا له : هذا عطاؤنا لك «فامنن أو أمسك بغير حساب » أى : فأعط من شئت منه . وأمسك عمن شئت . فأنت غير محاسب منا لا على العطاء ولا على المنع .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لسليمان - عليه السلام - فى الآخرة ، فقال : « وإن له عندنا » أى فى الآخرة « لزلفى » لقربى وكرامة « وحسن مآب » أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أيوب - عليه السلام - فذكرت نداءه لربه ، وإستجابة الله - تعالى - له وماوهبه من نعم جزاء صبره ، فقال - تعالى - :

﴿واذكُرْ عبْدَنا أيوبَ إذْ نادَى ربَّهُ ، أنِّى مَسَّنِي الشيطانُ بنُصْبٍ وعذَابٍ (٤١) اركُضْ برجلِكَ هـذَا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ (٤٢) وَوَهَبنَا لهُ أهلَه ومثلَهُم معَهُم رحمةً منَّـا وذِكْرى لأولِى الألبَابِ (٤٣) وخُذْ بيدِكَ ضِغْثًا فاضْرِب به ولاتَحْنَثْ ، إنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نعمَ العبدُ إنه أوَّابٌ (٤٤) ﴾ .

قال الإمام الرازى : « اعلم أن قصة أيوب هى القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا من أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء . والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار .

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا انتظام لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ... » [1] .

وأيوب ـ عليه السلام ـ هو ابن أموص برزاح ، وينتهى نسبه إلى إسحاق ابن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وكانت بعثته ـ على الراجح ـ بين موسى ويوسف ـ عليهما السلام ـ .

وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد .. فابتلى فى ماله وولده وجسده وصبر على كل ذلك صبرا جميلا ، فكافأه الله ـ تعالى ـ على صبره ، بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ...

وقوله ـ سبحانه ـ : « واذكر عبدنا أيوب ... » معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : « واذكر عبدنا داود ... » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٩٨ .

و « النصب » ـ بضم فسكون ـ وقرأ حفص ونافع ـ بضم النون والصاد ـ التعب والمشقة مأخوذ من قولهم أنصبني الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه . والعذاب : الآلام الشديدة التي يحس بها الإنسان في بدنه .

أي : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ حال أخيك أيوب ـ عليه السلام ـ حين دعا ربه ـ تعالى ـ فقال : يارب أنت تعلم أني قد مسني الشيطان بالهموم الشديدة ، وبالآلام المبرحة التي حلت بجسدي ، فجعلتني في نهاية التعب والمرض .

وجمع ـ سبحانه ـ في بيان ما أصابه بين لفظي النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التي كانت بين يديه ، وهو ما يشير إليه لفظ النصب والألم الكثير الذي حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام ، والعلل ، وهو ما يشير إليه لفظ العذاب .

ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان ، تأدبا منه مع ربه ـ عز وجل ـ حيث أبى أن ينسب الشر إليه ـ سبحانه ـ ، وإن كان الكل من خلق الله ـ تعالى ـ .

وفي هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذ اكتفى في تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على خالقه ـ عز وجل ـ شيئا معينا ، أو يطلب شيئا معينا .

قال صاحب الكشاف : « ألطف أيوب ـ عليه السلام ـ في السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة . . .

ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان ـ أي فئران ـ بيتي على العصي ! !

فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لاجرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا . . . »(١) .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا فى غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان تناثرت من جسده ، وأن لحمه قد تمزق(٢) . . .

وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله - تعالى - عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة ، التى تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم ، سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية . . .

والذى يجب اعتقاده أن الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لا تتنافى مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل فى الصبر ، فكانت عاقبة صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه .

وقوله - سبحانه - : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه ، أو مقول لقول محذوف معطوف على قوله « نادى » .

وقوله : « اركض » بمعنى الدفع والتحريك للشىء . يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها .

والمغتسل : اسم للمكان الذى يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذى يغتسل به .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٣٠

(٢) راجع على سبيل المثال تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٣٠٦ ، والقرطبى جـ ١٥ ص ٢٠٨

وقوله : « هذا مغتسل » مقول لقول محذوف .

والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه إلى الدواء ، بأن قلنا له : إركض برجلك أى : أضرب بها الأرض فضربها فنبعت من تحت رجله عين من الماء ، فقلنا له : هـــذا الماء النابع من العين إذا إغتسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرىء بإذننا من كل داء .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه بفضله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال ـ تعالى ـ : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . . »

والآية الكريمة معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق . أى : إستجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله ، جمعناهم معه بعد أن كانوا متفرقين ، أو شفيناهم بعد أن كانوا مرضى . . . ووهبنا له « مثلهم معهم » أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .

وذلك كله « رحمة منا » أى . من أجل رحمتنا به « وذكرى لأولى الألباب» أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجأوا إلى الله ـ تعالى ـ كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : « ووهبنا له أهله » الجمهور على أنه ـ تعالى ـ أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشتت منهم . وقيل ـ وإليه أميل ـ وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم

العيش ، فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان . والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا ... »(١) .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من المنن التى من بها على عبده أيوب فقال: « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : « إركض » أو على « وهبنا » بتقدير : وقلنا له .

والضغث فى اللغة : القبضة من الحشيش إختلط فيها الرطب باليابس . وقيل : هى قبضة من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد .

والحنث : يطلق على الإثم وعلى الحلف فى اليمين .

والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد حلف أن يضرب شيئا وأن عدم الضرب يؤدى إلى حنثه فى يمينه . أى: إلى عدم وفائه فيما حلفه عليه فنهاه الله - تعالى - عن الحنث فى يمينه ، وأوجد له المخرج الذى يترتب عليه البر فى يمينه دون أن يتأذى المضروب بأى أذى يؤلمه .

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب ، وسبب هذا الضرب، روايات لعل أقربها إلى الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته فى حاجة له ، فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برىء من مرضه ليضربنها مائة ضربة ، وبعد شفائه رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة - وهى المعبر عنها بالضغث - وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه، وبين الرحمة بزوجته التى كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه خير قيام ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٧

والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه خذ بيدك حزمة صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة ، بذلك تكون غير حانث فى يمينك .

هذا ، وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة ، أهى خاصة بأيوب ، أم هى عامة للناس ؟

فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذى جاء فى الآية لأن شرع من قبلنا شرع لنا .

وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب - عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن الخطاب إليه وحده ، لأن الله - تعالى - لم يبين لنا فى الآية كيفية اليمين، ولا من يقع عليه الضرب،(١) .

ثم بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره وكثرة رجوعه إلى ما يرضيه - تعالى - فقال: « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب».

أى : إنا وجدنا عبدنا أيوب صابرا على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو ، أنه كثير الرجوع إلينا فى كل أحواله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه .

* * *

وبعد أن عرض - سبحانه - قصص سليمان وأيوب بشىء من التفصيل ، أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فقال - تعالى -

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١١٢ ، وتفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٠٨

« واذكُرْ عبادَنَا إبراهيمَ وإسْحاقَ ويعقوبَ أُولِي الأيدِي والأبصارِ (٤٥) وإنَّا أخلَصْناهُمْ بخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدارِ (٤٦) وإنَّهم عندنا لمِنَ المُصْطَفينَ الأخيارِ (٤٧) واذكُرْ إسماعيلَ واليَسَعَ وذَا الكِفْلِ وكلٌّ من الأخيارِ (٤٨) » .

أي : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال عبادنا إبراهيم وإسحاق ، ويعقوب ، أصحاب القوة في الطاعة ، وأصحاب البصيرة المشرقة الواعية في أمور الدين .

فالأيدي مجاز مرسل عن القوة . والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة على سبيل المجاز - أيضا - ويصح أن يكون المراد بقوله : « أولي الأيدي والأبصار ، أي : أصحاب الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة ، فيكون ذكر الأيدي من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر لأن عن طريقها تكون العلوم النافعة .

قال صاحب الكشاف : « قوله : « أولي الأيدي والأبصار » يريد : أولي الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ، ولا يستبصرون ، كأن هؤلاء في حكم الزمنى - أي المرضى - الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم . والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستنصرين في دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل ، مع كونهم متمكنين منهما ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - أسباب وصفهم بتلك الأوصاف الكريمة ، فقال تعالى : « وإنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ... » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٩

ومعنى : « أخلصناهم » : خالصين لطاعتنا وعبادتنا . والباء فى قوله « بخالصة » للسببية ، وخالصة اسم فاعل . والتنوين فيها للتفخيم ، وهى صفة لمحذوف .

و « ذكرى الدار » بيان لها بعد إبهامها للتفخيم . ومحلها النصب بإضمار أعنى ، أو الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : هى .

و « ذكرى » مصدر مضاف لمفعوله ، وتعريف الدار للعهد . أى : الدار الآخرة .

والمعنى : إنا جعلنا هؤلاء العباد وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، خالصين لطاعتنا وعبادتنا ، متبعين لأوامرنا ونواهينا ، لاتصافهم بخصلة خالصة من كل مالا يرضينا ، وهى تذكرهم للدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

وقرأ نافع « بخالصة » بدون تنوين على الإضافة لذكرى ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أو المصدر لفاعله إن جعلت خالصة مصدرا كالعافية . أى : أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

ثم أثنى عليهم - سبحانه - بثناء آخر فقال : « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » .

أى : وإن هؤلاء العباد لهم عندنا من اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، واخترناهم لتبليغ دعوتنا ، ومن العباد الأخيار . أى : الذين يفضلون على غيرهم فى المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة . جمع خير - بإسكان الياء - أفعل تفضيل .

ثم أثنى - سبحانه - على عدد آخر من عباده الصالحين فقال : « واذكر إسماعيل واليسع وذو الكفل وكل من الأخيار » .

وإسماعيل هو ابن إبراهيم - عليهما السلام - ، ولم يذكر فيما سبق مع أبيه ومع أخيه إسحاق ، ومع ابن أخيه يعقوب ، اعتناء بشأنه ، وللإشارة إلى عراقته فى الصبر وفى تحمل الشدائد .

واليسع : هو ابن شافاط أو أخطوب : قيل استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه الله ـ تعالى ـ النبوة . وكانت وفاته فى حوالى سنة ٨٤ ق م . ودفن بالسامرة .

وذا الكفل : قيل هو ابن أيوب . بعثه الله ـ تعالى ـ بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام . والأكثرون على أنه نبي لذكره معهم .

وقيل : هو رجل صالح من بنى إسرائيل ، ولم يكن نبيا ، وسمى بذلك لأنه تكفل لأحد أنبيائهم بالقيام بالطاعات فوفى بذلك .

والتنوين فى قوله ـ تعالى ـ : « وكل من الأخيار » عوض عن المضاف إليه . أى : وكل هؤلاء العباد الذين ذكرناهم ، من أهل الخير والفضل والصلاح والصبر على الأذى .

* * *

ثم عقبت السورة الكريمة على ذلك ، بعقد مقارنة بين عاقبة المؤمنين الصادقين ، وعاقبة الكافرين الجاحدين ، وذكرت جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات . . فقال ـ تعالى ـ :

« هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ

معكم لامَرْحبًا بهمْ إنّهم صالُوا النّارِ (٥٩) قالُوا بلْ أنتُم لامرحبًا بكُم ، أنتُم قدمْتموهُ لنَا فبئسَ القرارُ (٦٠) قالُوا ربنّا مَن قدّمَ لنَا هذا فزِدْهُ عذابًا ضِعفًا فى النـارِ (٦١) وقالُوا مالنَا لا نرى رجالًا كنَّا نَعُدُّهم من الأشرَار (٦٢) اتّخذنَاهُمْ سِخْريًّا أم زَاغَتْ عنهُم الأبصارُ (٦٣) إنّ ذَلِكَ لحقٌ تخاصُمُ أهْلِ النّارِ (٦٤) » .

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : « هـــذا ذكر » يعود إلى ماذكره ـ سبحانه ـ فى الآيات السابقة، عن هؤلاء الأنبياء من ثناء وتكريم. والذكر: الشرف والفضل.

أى : هذا الذى ذكرناه عن هؤلاء الأنبياء شرف لهم ، وذكر جميل يذكرون به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال الآلوسى : « هذا » إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم « ذكر » ، أى : شرف لهم ... والمراد أن فى ذكر قصصهم ... شرف عظيم لهم .

أو المعنى : هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذى هو القرآن ، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر ، كما يقول الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع فى باب آخر .

ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر : هذا ، وكان كيت وكيت ، ويحذف على ماقيل الخبر فى مثل ذلك كثيرا ، وعليه « هذا وإن للطاغين لشر مآب ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢١٢ .

وقوله - تعالى - : «وإن للمتقين لحسن مآب» بيان لما أعدوهم - سبحانه - فى الآخرة من عطاء جزيل، وثواب عظيم.

والمآب: اسم مكان من آب فلان يؤوب إذا رجع. والمراد بالمتقين: كل من تحققت فيه صفة التقوى والخوف من الله - تعالى -، وعلى رأسهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لتبليغ رسالته

أى: وإن المتقين فى الآخرة لمنزل كريم يرجعون إليه فى الآخرة، فيجدون فيه مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم فصل - سبحانه - ما أعده لهم فى الآخرة من تكريم فقال: «جنات عدن مفتحة لهم الأبواب».

والعدن فى اللغة: الإقامة الدائمة فى المكان. يقال: عدن فلان بمكان كذا، إذا أقام به إقامة دائمة. وجنات: بدل اشتمال من قوله: «حسن مآب»

أى: هؤلاء المتقون أكرمناهم فى الدنيا بالذكر الحسن، ونكرمهم فى الآخرة بأن ندخلهم جنات عظيمة دخولا دائما مؤبدا، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم، والحفاوة بقدومهم.

«متكئين فيها..» أى: فى تلك الجنات. وانتصب لفظ «متكئين» على الحال من ضمير «لهم» والعامل فيه قوله «مفتحة».

وقوله: «يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب» استئناف لبيان حالهم فى الجنات، أو حال - أيضا - من ضمير «لهم».

أى: أن المتقين لهم جنات عظيمة، فاتحة لهم أبوابها على سبيل التكريم، ويجلسون فيها جلسة الآمن المطمئن المنعم: حيث يتكئون ويستندون على الأرائك، ويطلبون أنواعا كثيرة من الفاكهة اللذيذة، ومن الشراب الطيب، فيلبى طلبهم فى الحال.

ثم يضاف إلى هذه الفاكهة والشراب، وما بينه - سبحانه - فى قوله: «وعندهم قاصرات الطرف أتراب».

أى : وعندهم فضلا عن كل ما تقدم نساء ذوات حياء ، قد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم ، ولشدة محبتهن لهم ، وهن متساويات فى السن والجمال والأخلاق الكريمة .

فمعنى أتراب : أنهن متساويات فى السن والجمال والشباب . مأخوذ من التراب ، لأن التراب يمسهن فى وقت واحد لاتحاد مولدهن : أو من الترائب وهى عظام الصدر المتماثلة .

ثم بين - سبحانه - أن هذا العطاء العظيم مقابل عملهم الصالح فى الدنيا فقال : « هذا ما توعدون ليوم الحساب » .

واللام فى قوله « ليوم » للتعليل ، أى : هذا الذى ذكرناه لكم من نعيم الجنات ، هو جزاء إيمانكم وعملكم الصالح من أجل يوم الحساب .

ثم ختم - سبحانه - جزاءهم ببيان أنه جزاء خالد لاينقطع ولا ينقص فقال : « إن هذا لرزقنا ماله من نفاد » .

أى : إن هذا الذى ذكرناه لكم - أيها المتقون - من الجنات وما اشتملت عليه من نعيم ، هو رزقنا الدائم لكم ، وليس له من نفاد أو انقطاع أو انتقاص . يقال نفد الشىء نفادا ونفدا ، إذا فنى وهلك وذهب .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » . أى غير مقطوع .

وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور عن المؤمنين وحسن عاقبتهم . جاء الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم - كما هى عادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب - فقال - تعالى - : « هذا وإن للطاغين لشر مآب » .

واسم الإشارة هنا خبر لمبتدأ محذوف . أى الأمر هذا . أو مبتدأ محذوف الخبر أى : هذا للمؤمنين .

وجملة « وإن للطاغين لشر مآب» معطوفة على جملة هذا على التقديرين .

أى : الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ بالنسبة للمتقين ، أما الطاغون الذين تجاوزوا الحدود فى الكفر والجحود والإعراض عن الحق، فإن مرجعهم إلينا سيكون شر مرجع ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

« جهنم يصلونها فبئس المهاد » أى : إذا كان المتقون يدخلون الجنات التى فتحت لهم أبوابها ، فإن الطاغين تستقبلهم جهنم بسعيرها ولهيبها فيلقون فيها ويفترشون نارها ، وبئست هى فراشا ومهادا .

« هذا فليذوقوه حميم وغساق » واسم الإشـارة هنا مرفوع على الابتداء ، وخبره قوله « حميم وغساق » ، وما بينهما اعتراض .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة . والغساق : صديد يسيل من أجساد أهل النار . مأخوذ من قولهم غسق الجرح ـ كضرب وسمع ـ غسقانا إذا سال منه الصديد وما يشبهه .

أى : هذا هو عذابنا الذى أعددناه لهم ، يتمثل فى ماء بلغ الغاية فى الحرارة ، وفى قيح وصديد يسيلان من أجسادهم ، فليذوقوا كل ذلك جزاء كفرهم وجحودهم .

« وآخر من شكله أزواج » أى : ليس عذابهم مقصورا على الحميم والغساق، بل لهم أنواع أخرى من العذاب ، تشبه فى شكلها وفى فظاعتها وفى شدتها ، الحميم والغساق .

فقوله « وآخر » مبتدأ ، وقوله « من شكله » صفته ، وقوله : « أزواج » خبره .

والآية الكريمة معطوفة على الآية التى قبلها .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل

الندم والتحسر والتقريع، فقال: «هذا فوج مقتحم معكم، لا مرحبابهم إنهم صالوا النار».

والفوج: الجمع الكثير من الناس، والاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها. يقال: قحم فلان نفسه فى الأمر، إذا رمى نفسه فيه من غير روية.

أى: قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلق النار معهم، أو قالت الملائكة لهم على سبيل التقريع والتأنيب: «هذا فوج» أى جمع كثير من أتباعكم وإخوانكم فى الضلال.

«مقتحم معكم» أى: داخل معكم النار كرها وعلى غير إختيار منه، وإنما يساق إليها سوقا فى ذلة ومهانة.

وهنا يقول زعماء الكفر: «لا مرحبابهم إنهم صالوا النار» أى: لا مرحبا ولا أهلا بهؤلاء الداخلين فى النار معنا، لأنهم سيصلون سعيرها مثلنا، ولن يستطيعوا أن يدفعوا شيئا من حرها عنا...

فقوله «مرحبا» مفعول به لفعل محذوف وجوبا، والتقدير: أتوا معنا لامرحبا بهم. والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى: لا أتوا مكانا رحبا بل ضيقا، وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول: «قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم...».

أى: قال الداخلون فى النار وهم الأتباع لرؤسائهم: بل أنتم الذين لا مرحبا بكم، وإنما الضيق والهلاك لكم.

«أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار» أى: لا مرحبا بكم لأنكم أنتم أيها الزعماء الذين تسببتم لنا دخول النار معكم، إذ دعوتمونا فى الدنيا إلى الكفر فأتبعناكم، فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم.

فالجملة الكريمة تعليل لأحقية الرؤساء بدخول النار، ويقولها الأتباع على سبيل التشفي منهم.

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم: «ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار».

أي: ياربنا من كان سببا في نزول هذا العذاب بنا، فزده عذابا مضاعفا في النار. لأننا لولا هؤلاء الرؤساء وإضلالهم لنا، لما صرنا إلى هذا المصير الأليم.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عنهم: «وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا».

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أئمة الكفر، عندما يدورون بأعينهم في النار، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا فقال: «وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار...».

أي: وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتعجب وهم ملقون في النار مالنا لا نرى معنا في جهنم رجالا من فقراء المؤمنين، كنا نعدهم في الدنيا من الأراذل الأخساء، لسوء حالهم، وقلة ذات يدهم.

قال القرطبي: «قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - أبو جهل: أين بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك في الفردوس، واعجبا لأبي جهل يقول! مسكين أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو. قال:

ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا   وموضع رجلى منه أسود مظلم»(١)

ثم حكى القرآن ماساله هؤلاء المشركون لأنفسهم عندما تلفتوا في النار،

(١) تفسير القرطبي جـ ١٥ ص ٢٢٤

فلم يجدوا أحدا من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم من الأشرار فقال: «أتخذناهم سخريا، أم زاغت عنهم الأبصار».

أى: أنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يديرون بأعينهم فيها فلم يروا المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا، فقالوا فيما بينهم: ما بالنا لا نرى الرجال الذين كنا نسخر منهم فى الدنيا، ألم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها ولكن أبصارنا لا تراهم وزاغت عنهم؟.

فهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم فى النار، وليس معهم من كانوا يسخرون منهم فى الدنيا وهم فقراء المؤمنين.

قال صاحب الكشاف: وقوله: «أتخذناهم سخريا» قرىء بلفظ الإخبار على أنه صفة لقوله «رجالا» مثل قوله «كنا نعدهم من الأشرار». وقرىء بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم.

وقوله: «أم زاغت عنهم الأبصار» له وجهان من الاتصال: أحدهما: أن يتصل بقوله: «مالنا».

أى: مالنا لا نراهم فى النار؟ كأنهم ليسوا فيها، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار، إلا أنهم خفى عليهم مكانهم.

الوجه الثانى: أن يتصل باتخذناهم سخريا... على معنى أن الفعلين فعلنا بهم: الاستسخار منهم، أم الازدراء بهم والتحقير، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم، على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم...»[1].

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ: «إن ذلك لحق تخاصم أهل النار» يعود إلى التخاصم الذى حكى عنهم.

وقوله: «لحق» خبر إن. وقوله: «تخاصم» خبر لمبتدأ محذوف، والجملة بيان لاسم الإشارة، وفى الإبهام أولا والتبيين ثانيا، زيد تقرير له.

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ١٠٢

أى إن ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من تخاصم أهل النار فيما بينهم وتلاعنهم ... حق لاشك فيه، وثابت ثبوتا لا يختلف عليه عاقلان .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت بأبلغ بيان ما أعده الله - تعالى - للمتقين من ثواب، وما أعده للطاغين من عقاب .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة، بتلقين رسوله - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يرد به على المشركين المعترضين على دعوته، وببيان موقف إبليس من أمر الله - تعالى - له بالسجود لآدم. وببيان ما أعده - سبحانه - لإبليس وجنده من عذاب . فقال - تعالى - :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي

إلى يَوْمِ يُبعثُونَ (٧٩) قالَ فإنَّكَ من المنظرينَ (٨٠) إلى يوم الوقتِ المعْلُوم (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغوِينَّهُم أجْمَعِينَ (٨٢) إلاَّ عبادكَ مِنهُمُ المخلَصِينَ (٨٣) قالَ فالحقُّ والحقَّ أقولُ (٨٤) لأمْلأنَّ جَهَنَّم مِنكَ ومِمَّنْ تَبِعكَ مِنهم أجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ ما أسألُكم عليهِ مِنْ أجْرٍ وما أنا من المتكلِّفِينَ (٨٦) إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ للعالَمِينَ (٨٧) ولتعلمُنَّ نَبأهُ بعدَ حِينَ (٨٨) » .

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين : إنما وظيفتى الإنذار والتخويف لكم من عذاب شديد ، إذا بقيتم على كفركم ، وأعرضتم عن دعوتى .

واقتصر على الإنذار مع أنه مبشر ـ أيضا ـ ، لأنه المناسب لردعم عن شركهم ، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه كاهن ... الخ .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » نفى لكل شريك مع الله ـ تعالى ـ فى ذاته ، أو صفاته ، أو فى خلقه لهذا الكون .

أى : ليس هنالك من إله سوى الله ـ تعالى ـ فى هذا الكون ، وهو ـ سبحانه ـ الواحد الأحد ، القاهر فوق عباده ، الموجد للسموات والأرض وما بينهما ، الغالب لكل شىء ، الكثير المغفرة لمن يشاء من عباده .

فأنت ترى أنه ـ سبحانه ـ قد وصف ذاته فى هاتين الآيتين بخمس صفات ؛ تليق بذاته وببيان أن الشرك به ـ سبحانه ـ فى العبادة أو الطاعة ظلم عظيم ، وجهل فاضح .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم أن ما جاءهم به من عند ربه أمر عظيم، لا يليق بعاقل أن يعرض عنه فقال: «قل هو نبأ عظيم. أنتم عنه معرضون».

أى: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: إن ما جئتكم به من عند ربى من قرآن كريم، ومن هدايات بها تسعدون فى دنياكم وآخرتكم، هو خبر عظيم، يجب أن تلقوا إليه أسماعكم، وأن تهيؤا نفوسكم لقبوله... ولكنكم قابلتموه بالإعراض والصدود، لفرط غفلتكم، وشدة جهالتكم، وتماديكم فى كفركم.

فالآية الأولى دعوة هامة لهم لكى يقلعوا عن شركهم، والآية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث تركوا ما ينفعهم، وعكفوا على ما يضرهم.

ثم نفى - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه أن يكون عنده علم بشىء من أخبار الملأ الأعلى، إلا عن طريق الوحى فقال - كما حكى القرآن عنه -: «ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون».

والمراد بالملأ الأعلى: عالم السموات وما فيه من ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

قال القرطبى: «الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدى. اختصموا فى أمر آدم حين خلق، فقالوا: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...» وقال إبليس: «أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين».

وفى هذا بيان أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن قصة آدم وغيره وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى...»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: «ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون» أى: لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى. يعنى فى شأن آدم، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه...»[2].

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٢٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٧٠

فالآية تنفى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - علم شىء من أخبار الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى .

وجملة « إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين » معترضة بين إيراد اختصامهم على سبيل الإجمال ، ثم إيراده فى الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل

و « إن » نافية . ونائب فاعل « يوحى » ضمير تقديره هو يعود على المفهوم مما سبق . وهو شأن الملأ الأعلى ، و « أنما » بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل .

أى : ليس لى من علم بما يدور فى الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى ، وهذا الوحى لا ينزل على إلا من أجل أنى رسول من عند الله - تعالى - أنذركم بما يكلفنى به إنذارا واضحا بينا .

ثم فصل - سبحانه - هذا التخاصم الذى أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك فى قوله : « ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » ، فقال : إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ... » .

و « إذ » فى قوله « إذ قال ربك ... » بدل من قوله « إذ يختصمون » ، لاشتمال ما فى خبرها على تفصيل تلك الخصومة وقيل هى منصوبة بتقدير اذكر .

قالوا : والمراد بالملائكة هنا ، مايشمل إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع ، وأنهم جميعا امتثلوا لأمر الله - تعالى - ماعدا إبليس .

والمراد بالبشر : آدم - عليه السلام - مأخوذ من مباشرته للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرة ، أى الجلد والهيئة .

أى : لم يكن لى من علم بالملأ الأعلى وقت اختصامهم ، حين قال الله - تعالى - للملائكة ومعهم إبليس : « إنى خالق بشرا من طين » هو آدم - عليه السلام - .

فإذا صورته على صورة البشر ، وأفضت عليه ما به الحياة من الروح التي هي من أمري - ولا علم لأحد بها سواي - ، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم .

ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين ، وبين وصفه في آيات أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، فإن المادة التي خلق منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة ، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة .

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته، للإشعار بأن هذه الروح لا يملكها إلا هو - تعالى - ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ ، مما استأثر - سبحانه - به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال - تعالى - : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والفاء في قوله : « فقعوا له ... » جواب إذا . والمراد بالوقوع : السقوط أي : فاسقطوا وخروا له حالة كونكم ساجدين له بأمري وإذني ، على سبيل التحية له ، لأن السجود بمعنى العبادة .

ثم بين - سبحانه - ما كان بعد ذلك فقال : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » .

أي : امتثل الملائكة لأمر الله - تعالى - فسجدوا جميعا لآدم في وقت واحد ، إلا إبليس فإنه أبى الامتثال لأمر ربه ، واستكبر عن طاعته ، وصار بسبب ذلك من الكافرين الجاحدين لأمر الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : « ولفظ « كل » للإحاطة . وأجمعون : للاجتماع . فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ، ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا في وقت واحد ، غير متفرقين في أوقات .

فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ؟ قلت : الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل ، فلا يأباه العقل ، إلا أن يعلم الله تعالى فيه مفسدة فينهى عنه » (1) .

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٠٥

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لإبليس حين عصى أمره فقال: «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ...»

وما فى قوله «لما خلقت» مصدرية، ويراد من المصدر وهو الخلق اسم المفعول. أى: المخلوق بيدى. أو موصولة، وخلقت صلتها، والعائد محذوف، أى: للذى خلقته بيدى.

ومذهب السلف فى مثل هذا التعبير، أن اليد - مفردة أو غير مفردة - إذا وصف الله تعالى بها ذاته، فهى صفة ثابتة له، على الوجه الذى يليق بكماله، مع تنزهه - سبحانه - عن مشابهته للحوادث.

ومذهب الخلف: تأويل اليد بالقدرة أو النعمة. والتثنية فى يدى، للتأكيد الدال على مزيد القدرة فى خلقه.

أى: قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع: يا إبليس ما الذى منعك عن السجود لآدم الذى خلقته بيدى؟

«أستكبرت أم كنت من العالين» أى: أمنعك عن السجود لآدم تكبرك من غير موجب لهذا التكبر، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق؟ الاستفهام للتوبيخ والإنكار.

«قال أنا خير منه» أى: قال إبليس فى الجواب على ربه تعالى: أنا خير من آدم.

«خلقتنى من نار وخلقته من طين» فهو - لعنه الله - يرى أن النار أفضل من الطين، ولا يصح سجود الفاضل للمفضول.

ولا شك أن هذا التعليل من إبليس فى نهاية سوء الأدب، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضى صحة المدعى، لأن النار ليست خيرا من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل، إذ النار يطفئها الطين ...

وقد رد - سبحانه - على هذا التطاول من إبليس بقوله : « فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » .

والفاء في قوله « فاخرج » لترتيب الأمر بالطرد على ما حدث منه . والضمير في « منها » يعود إلى السماء ، أو إلى الجنة ، لأنه كان فيهما .

أي : قال - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر : ما دمت يا إبليس قد عصيت أمري ، فاخرج من الجنة ومن كل مكان فيه تكريم لك ، فإنك رجيم أي : مطرود من رحمتي . وإن عليك لعنتي وغضبي إلى يوم القيامة ، فإذا ماجاء هذا اليوم إزدادت لعنتي عليك .

« قال رب فأنظرني » أي : فأمهلني « إلى يوم يبعثون » أي : فأخرني ولا تمتني إلى يوم البعث ، لأتمكن من إغواء ذرية آدم .

« قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » أي : قال - سبحانه - قد أجبت لك ما تقتضيه حكمتي ، وهو أني سأؤخر إهلاكك إلى الوقت الذي حددته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذي طلبه إبليس .

« قال » أي : إبليس « فبعزتك » أي : فبحق سلطانك وقهرك « لأغوينهم أجمعين » أي : لأغوين بني آدم جميعا بالمعاصي ، ولأضلنهم ولأمنينهم « إلا عبادك المخلصين » فلا يتأثرون بإغوائي ، لأني لاقدرة لي عليهم .

« قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » وقوله « فالحق » مبتدأ محذوف الخبر أي : فالحق قسمي لأملأن . . .

وقوله : « والحق أقول » لفظ الحق منصوب هنا على أنه مفعول لأقول ، قدم عليه لإفادة الحصر .

والجملة من الفاعل والمفعول معترضة بين القسم والمقسم عليه لتقرير مضمون الجملة القسمية .

أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى ويمينى - ولا أقول إلا الحق - ، لأملأن جهنم من جنسك يا إبليس ، وممن تبعك من الناس جميعا ، لأن هذا جزاء من عصانى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين للناس ، أنه لا يريد من وراء دعوته عرضا زائلا من أعراض الدنيا فقال « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين وغيرهم : إنى لا أسألكم أجرا على تبليغكم ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذى لا يحسنونه ، بل أنا رسول من عند الله وصادق فيما أبلغه عنه .

وما هذا القرآن الذى جئتكم به من عند ربى إلا وعظ بليغ للثقلين ، وشرف عظيم لهما فى إتباع أوامره ونواهيه .

ولتعلمن - أيها الناس - صدق ما أخبركم به من وعد ومن وعيد بعد وقت محدد فى علم الله - تعالى - .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « ص » نسأل الله تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - صباح الثلاثاء ٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٩٨٥/٨/٢٠ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة ص»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	١٥٩
١	ص والقرآن ذى الذكر . . .	١٦٣
١٢	كذبت قبلهم قوم نوح . . .	١٧٦
١٧	اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود . . .	١٨١
٢٧	وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا . . .	١٩١
٣٠	ووهبنا لداود سليمان نعم العبد . . .	٢٠٣
٤١	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه . . .	٢٠٥
٤٥	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب . . .	٢٢١
٤٩	هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب . . .	٢١٣
٦٥	قل إنما أنا منذر ومامن إله إلاالله . . .	٢٣١

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الزمر

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الثالث والرابع والعشرون)

١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

١ — سورة « الزمر » هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثامنة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة سبأ .

وقد ذكر صاحب الإتقان أنها تسمى - أيضاً - بسورة «الغرف»، لقوله - تعالى - : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ... ».

٢ — ويرى المحققون أن السورة بكاملها مكية .

قال الآلوسي. عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ولم يستثن ، وأخرج النحاس عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ، وهي قوله - تعالى - : « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .... » .

٣ — وآياتها خمس وسبعون آية في المصحف الكوفي ، وثلاث وسبعون في المصحف الشامي ، واثنتان وسبعون في غيرهما ....»[١].

٤ — وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - الذي أنزل القرآن بالحق على نبيه - صلى الله عليه وسلم -: «والذي خلق السموات والأرض بالحق والذي خلق الناس جميعاً من نفس واحدة»، قال- تعالى-: «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص .... » .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٣ ص ٢٣٢

٥ - ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن حالة الإنسان عندما ينزل به الضر وعن الجزاء الحسن الذى أعده - سبحانه - للصابرين، وعن العقاب الأليم الذى أعده للخاسرين .

« قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين ... » .

٦ - ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى هذا الكون عن طريق إنزاله الماء من السماء ، وعن طريق إنزاله أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ...

قال - تعالى - : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما . إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ... »

٧ - ثم دعا - سبحانه - الناس بعد ذلك إلى تدبر آيات القرآن ، المشتمل على الهدايات والإرشادات والأمثال ، وإلى اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى جاءهم بالصدق ، لأن هذا الاتباع يؤدى إلى تكفير سيئاتهم ، ورفع درجاتهم عند ربهم ...

قال - تعالى - : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ... » .

٨ - وبعد أن عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله

- تعالى - فى قبضه للأرواح ، وفى كشفه الضر عن خلقه ... أتبعت ذلك بمحاجة المشركين ، وببيان ماهم عليه من ضلال ، وببيان أحوالهم عند مايذكر الله - تعالى - وحده ، وببيان سوء عاقبتهم ...

قال - تعالى - : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون . قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ... » .

٩ - ثم ساق - سبحانه - لعباده مايدل على سعة رحمته بهم ، ودعاهم إلى الإنابة إليه ، من قبل أن يأتى اليوم الذى لا ينفع فيه الندم ...

قال - تعالى - : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ... » .

١٠ - ثم تحدثت السورة فى أواخرها عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، وعن أهوال هذا اليوم ...

قال - تعالى - : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ... » .

وختمت ببيان ما أعده - سبحانه - للكافرين من شديد للعقاب ، وما أعده للمتقين من كريم الثواب ...

قال - تعالى - : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

١١ — هذا ، والمتأمل فى سورة « الزمر » بعد هذا العرض المجمل لها ، يراها قد اشتملت على مقاصد متنوعة من أهمها ما يأتى :

(ا) إقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، تارة عن طريق خلق السموات والأرض ، وتكوير الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ... وتارة عن طريق لجوء المشركين إليه وحده عند الشدائد ، وتارة عن طريق توفى الأنفس حين موتها ، وتارة عن طريق ضرب الأمثال ، كما فى قوله - تعالى - : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » .

(ب) تذكير الناس بأهوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب . وبعث ونشور ، وفرح يعلو وجوه المتقين ، وكآبة تجلل وجوه الكافرين ...

نرى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ، وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » .

وفى مثل قوله - تعالى - : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ... » .

(ج) تلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحجج والإجابات التى يرد بها على شبهات المشركين ، وعلى دعاواهم الباطلة ، فقد تكرر لفظ « قل » فى هذه السورة كثيراً ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

« قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » . « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ... » .

« قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون »

« قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون » .

(د) الإكثار من المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار، بأسلوب يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكارى ، الذى حذف فيه الخبر للعلم به من سياق الكلام ..

ومن ذلك قوله -تعالى- : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا قائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »!

وقوله - تعالى - : « أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار » .

وقوله — سبحانه - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ..... » .

وقوله - عز وجل - : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » .

هذه بعض المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يدركها القارىء لهذه السورة الكريمة بتدبر وتفكر . . .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة — مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ ١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال تعالى :

« تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العزيزِ الحكيم (١) إنّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبُدِ اللهَ مخلِصًا لهُ الدِّينَ (٢) ألا للهِ الدِّينُ الخالِصُ، والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلياءَ ما نَعبدهُمْ إلاَّ ليقرِّبُونا إلى اللهِ زُلفَى إنَّ اللهَ يحكُم بَينَهم فى مَا همْ فيهِ يختلِفُونَ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كفَّارٌ (٣) لوْ أرادَ اللهُ أنْ يتخِذَ وَلداً لاصْطَفى ممَّا يخلُقُ ما يَشَاء ، سُبحانَه هُوَ اللهُ الواحِد القَهّار (٤) » .

أفتتحت سورة « الزمر » بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان مصدره ، قال ـ تعالى ـ : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

أى : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم ، قد نزل عليك ـ يا محمد ـ من لدن الله ـ تعالى ـ « العزيز » أى : الغالب على كل شىء « الحكيم » فى كل تصرفاته وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولا مفترى كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى .

والذى يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى أن الله ـ تعالى ـ إذا ذكر تنزيله لكتابه ، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة لصفاته الجليلة .

ففى أول سورة غافر نجد قوله ـ تعالى ـ : « حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » .

وفى أول سورة الجاثية نجد قوله - تعالى - : «حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ...» .

وفى أول سورة الأحقاف نجد مثل هذا الافتتاح .

وفى أول سورة فصلت نجد قوله - تعالى - : «حم تنزيل من الرحمن الرحيم ...» .

وفى صدر سورة «يس» نجد قوله - سبحانه - : «تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما أنذر آباؤهم ...» .

ولا يخفى أن ذكره - سبحانه - لبعض أسمائه الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل هذا القرآن على قلب رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فيه مافيه من الثناء على القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله - تعالى - وحده ؛ الذى له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك مايدعو الناس إلى قبول هذا الكتاب ، وإلى العمل بهداياته ، فقال - تعالى - : «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق..» .

أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله - تعالى - الغالب على كل شىء ، والحكيم فى أقواله وأفعاله ، وقد أنزله - سبحانه - عليك - يامحمد - تنزيلا ملتبسا بالحق الذى لايحوم حوله باطل ، أو مايشبه الباطل ، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل مافيه ..

قال الآلوسى : «قوله - تعالى - : «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...» ، ولكونه نازلا بالحق ، وتوطئة لما يذكر بعد ... أو شروع فى بيان المنزل إليه ، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل ... والباء متعلقة بالإنزال ، وهى للسببية . أى : أنزلناه بسبب الحق . أى : إثباته وإظهاره . أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وهى للملابسة . أى : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب .

والمراد أن كل مافيه موجب للعمل والقبول حتما ..»(١) .

والفاء في قوله - تعالى - : «فاعبد الله مخلصا له الدين» لترتيب ما بعدها على ماقبلها . والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود - عز وجل - والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم بعبادته وقوله وعمله وجه الله - تعالى - .

أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذا الكتاب بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وما دام الأمر كذلك فعليك أن تخلص لربك عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصا تاما ، لايحوم حوله رياء أو تفاخر ، أو غير ذلك مما يتنافى مع إخلاص الخضوع لله - تعالى - وحده .

قال الشوكانى: «وفى الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب لأن الإخلاص من الأمور القلبية التى لاتكون إلا بأعمال القلب وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال والأفعال النية ، كما فى حديث: «إنما الأعمال بالنيات ..» وحديث : «لاقول ولاعمل إلا بنية »(٢) .

وجملة «ألا لله الدين الخالص» مؤكدة ومقررة لمضمون ماقبلها من وجوب إفراد العبادة والطاعة لله - تعالى - وزادها تأكيدا وتقريرا لما قبلها تصديرها بأداة الاستفتاح «ألا» ، واشتمالها على أسلوب القصر .

أى : ألا إن لله - تعالى - وحده - وليس لأحد سواه - ، الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء ، والعبادة لوجهه وحده ، والخضوع لقدرته التى لا يعجزها شىء ...

ثم بين - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال : «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم ...» .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٣٣ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٤٨ .

فالمراد بالموصول المشركون ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله - تعالى - بعد ذلك : « إن الله يحكم بينهم » وجملة « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فى محل نصب على الحال بتقدير القول . والاستثناء مفرغ من أعم العلل . والزلفى : إسم أقيم مقـــام المصدر الذى يتلاقى معه فى المعنى . والمأخوذ من قوله « ليقربونا » .

أى : لله - تعالى - وحـــده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد على من ينهاهم عن ذلك : إننا ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل بها ، لكى تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن .

« إن الله يحكم بينهم » أى: بين هؤلاء المشركين وبين غيرهم من المؤمنين الذين أخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة « فيما هم فيه يختلفون » من أمر التوحيد والشرك ، بأن يجازى المؤمنين بحسن الثواب ، ويجازى الكافرين بسوء العقاب .

« إن الله » - تعالى - « لا يهدى » أى : لا يوفق للاهتداء للحق « من هو كاذب كفار » .

أى : من كان دائم الكذب على دين الله ، شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته ، وعلى أنه لا رب لهذا الكون سواه .

ثم أبطل - سبحانه - كل تصور للشرك والشركاء ، بأن نزه - تعالى - ذاته من إتخاذ الولد فقال : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار » .

أى : لو أراد الله - تعالى - على سبيل الفرض والتقدير - أن يتخذ ولدا ، لاختار من خلقه ما يريده الضالون ، لكنه - سبحانه - لم يختر أحدا ليكون

ولدا له ، فدل ذلك على بطلان زعم الزاعمين بأن الملائكة بنات الله ، أو بأن عزيرا ابن الله ، أو بأن المسيح ابن الله .

« سبحانه هو الله الواحد القهار » أى : تنزه - عز وجل - عن شىء من ذلك ، فإنه هو الله الواحد فى ذاته وفى صفاته ، القهار لكل مخلوقاته .

قال الإمام ابن كثير : بين - تعالى - فى هذه الآية أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى فقال : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء » أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون .

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » ، وكما قال : « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » .

كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم »(١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : إرادة إتخاذ الولد هنا ممتنعة ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات . وإتخاذ الولد محال ، كما ثبت بالبرهان القطعى فتستحيل إرادته . وجعلها فى الآية شرطا وتعليق الجواب عليها ، لا يقتضى إمكانها فضلا عن وقوعها . وقد عرف فى فصيح الكلام : تعليق المحال على المحال جوازا ووقوعا .

على أن الوالدية تقتضى التجانس بين الوالد والمولود ، إذ هو قطعة منه ، وقد ثبت أن كل ما عداه - سبحانه - مخلوق له ، فيلزم بموجب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٧٥

التجانس أن يكون المخلوق من جنس الخالق، وهو يستلزم حدوث الخالق، أو قدم المخلوق، وكلاهما محال ...»(1).

* * *

ثم أقام - سبحانه - المزيد من الأدلة على وحدانيته وقدرته، عن طريق التأمل فى ملكوت السموات والأرض، وفى ظاهرة الليل والنهار، وفى تسخير الشمس والقمر، وفى خلق بنى آدم من نفس واحدة ... فقال - تعالى - :

« خَلَقَ السموات والأرضَ بالحقِّ، يكوِّرُ الليلَ عَلَى النَّهارِ ويكوِّرُ النَّهـارَ عَلَى اللَّيل، وسخَّر الشَّمْسَ والقمرَ كلٌّ يَجْرِى لأجَلٍ مسمًّى، ألاَ هوَ العزيزُ الغفارُ (٥) خلقكُم من نَفْس وَاحِدَة ثمَّ جَعَل منها زَوْجَها وأنزلَ لـكُم مِنَ الأنعام ثمانيَةَ أزوَاجٍ يَخلقـكُم فى بُطُونِ أمَّهاتِـكُم خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فى ظلماتٍ ثلاثٍ ذلـكُم اللهُ رَبُّكُم لهُ المُلك، لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ فأنَّى تصرَفُونَ (٦) إنْ تَكفُروا فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنـكُم وَلاَ يرضَى لعبادِهِ الـكُفرَ، وإنْ تَشكُروا يَرضَهُ لـكُم، وَلاَ تزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرَى، ثم إلى رَبِّكُم مَرجعكُم فَيُنَبِّئُـكُم بمـا كُنتُم تعمَلُونَ إنَّه عليمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ (٧)».

فقوله - تعالى - : « خلق السموات والأرض بالحق » تفصيل لبعض أفعاله الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقدرته.

أى : الله وحده هو الذى أوجد هذه السموات وتلك الأرض، إيجادا

---

(1) صفوة البيان جـ ٢ ص ٢٤٩ لفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف.

ملتبساً بالحق والحكمة والمصلحة التى تعود عليكم - أيها الناس - بالخير والمنفعة ومن كان شأنه كذلك ، استحال أن يكون له شريك أو ولد .

ثم ساق - سبحانه - دليلا ثانيا على وحدانيته فقال : « يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل » .

والتكوير فى اللغة : طرح الشىء بعضه على بعض . يقال : كور فلان المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة . أى . انضمام بعض أجزائها على بعض .

والمقصود أن الليل والنهار كلاهما يكر على الآخر فيذهبه ويحل محله ، بطريقة متناسقة محكمة لا اختلال معها واضطراب . .

قال صاحب الكشاف : « والتكوير: اللف واللى . يقال : كار العمامة على رأسه وكورها .

وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويأتى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه ، فكأنما ألبسه ولف عليه ، كما يلف اللباس على اللابس .

ومنها : أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه فى تغييبه إياه بشىء ظاهر لف عليه ماغيبه عن مطامح الابصار .

ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض . . . »(1) .

وقال بعض العلماء ماملخصه : « والتعبير بقوله « يكور . . . » تعبير عجيب ، يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية الأرض فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض . فالأرض الكروية تدور

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١٣ .

حول نفسها فى مواجهة الشمس ، فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لايثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذى كان عليه النهار . وهذا السطح مكور ، فالنهار كان عليه مكورا ، والليل يتبعه مكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا حركة دائبة « يكور ـ سبحانه ـ الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها ، يفسران هذا التعبير تفسيرا أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية ... »[1] .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ دليلا ثالثا على وحدانيته وقدرته فقال : « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » .

والتسخير : التذليل والانقياد والطاعة التامة . أى : وجعل ـ سبحانه ـ الشمس والقمر منقادين لأمره إنقيادا تاما وكلاهما يجرى فى مداره إلى الوقت المحدد فى علم الله ـ تعالى ـ لنهاية دورانه ، وإنقطاع حركته .

وهما فى جريانهما يسيران بنظام محكم دقيق غاية الدقة ، كما قال ـ تعالى ـ : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون » .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله « ألا هو العزيز الغفار » .

وفى تصدير الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » إشارة إلى كمال الاعتناء بمضمونها ، وإلى وجوب التدبر فيما اشتملت عليه .

أى : ألا إن الله ـ تعالى ـ وحده هو الخالق لكل تلك المخلوقات ، وهو

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ١٢٢ .

وحده المتصرف فيها، والمهيمن عليها، وهو وحده «العزيز» الغالب على كل ما سواه، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين إليه توبة نصوحا.

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته فقال: «خلقكم من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها ...».

أى: خلقكم - سبحانه - من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ثم خلق من هذه النفس الواحدة، زوجها وهى أمكم حواء.

قال الشوكانى: «والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم. للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم، أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة لأن آدم هو على عادة الله المستمرة فى خلقه. وخلق حواء على الصفة المذكورة لم تجر به عادة، لكونه - تعالى - لم يخلق أنثى من ضلع رجل غيرها[1]».

وقال الجمل: «فإن قلت كيف عطف بثم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه؟ أجيب بأن ثم هنا للترتيب فى الإخبار لا فى الإيجاد. أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة، فثم عاطفة عليه لا على خلقكم فمعناه خلقكم، من نفس واحدة أفردت بالإيجاد، ثم شفعت بزوج. أو هو معطوف على خلقكم، لكن المراد بخلقهم، خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعة لا على هذا الخلق الذى هم فيه الآن بالتوالد والتناسل...»[2].

وقوله - تعالى -: «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ...» بيان لبعض آخر من أفعاله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته. والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها وهى قوله: «وخلقكم».

أى: وأنزل لكم من كل من الإبل والبقر والغنم والمعز زوجين: ذكر وأنثى يتم بهما التناسل وبقاء النوع.

---

(١) تفسير فتح القدير ج٤ ص٤٥٠.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٥٩٠.

قالوا: وعبر - سبحانه - عن الخلق بالإنزال ، لما يروى أنه - تعالى - خلق هذه الأنواع فى الجنة ثم أنزلها ، فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة .

أو أن الكلام على سبيل المجاز ، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله من نبات ، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكأن الأنعام نازل من السماء، لأن سبب سببها منزل منها . . أو أن أنزل هنا بمعنى أنشأ وأوجد ، أو لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء .

وقوله - تعالى - « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . . . » بيان لكيفية خلق ما خلقه من الأناسى والأنعام بتلك الطريقة العجيبة . . .

أى أنه - تعالى - يخلقكم - أيها الناس - بقدرته فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، بأن يحولكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظام مكسوة باللحم ، ثم يحولكم بعد ذلك إلى خلق آخر . وهذه المراحل كلها تتم وأنتم فى ظلمات بطون أمهاتكم ، وظلمات الأرحام التى بداخل البطون وظلمات الغشاء الذى بداخل الأرحام والبطون ، وذلك كله من أقوى الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، ورعايته لخلقه .

وصدق الله إذ يقول : ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون » .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - « ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنى تصرفون » يعود إليه - سبحانه - باعتبار أفعاله السابقة . وتصرفون : من الصرف بمعنى الابتعاد عن الشىء إلى غيره . .

أى : ذلكم العظيم الشأن الذى ذكرنا لكم بعض مظاهر قدرته ، هو الله الذى له ملك كل شىء ، والذى لا معبود بحق سواه ، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ وكيف تزعمون أن له شريكا أو ولدا . . . مع توفر الأدلة على بطلان ذلك .

والمتأمل فى هاتين الآيتين يراهما قد ذكرتا ألوانا من البراهين على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . كخلق السموات والأرض بالحق ، وتكوير الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الناس ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ، ورعايتهم بلطفه وإحسانه فى مراحل حياتهم، وإيجاد الأنعام التى تنفعهم فى شئونهم المختلفة .

ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن خلقه ، وأنهم هم الفقراء إليه فقال : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم . . . . . . »

أى : إن تكفروا - أيها الناس - بعد أن سقنا لكم من الأدلة ما سقنا على صحة الإيمان وفساد الكفر ، فإن الله - تعالى - غنى عنكم وعن إيمانكم وعبادتكم وعن الخلق أجمعين .

ومع ذلك فإنه - سبحانه - لرحمته بكم ، لا يرضى لعباده الكفر ، أى : لا يحبه منهم ولا يحمده لهم ، ولا يجازى الكافر المجازاة التى يجازى بها المؤمن فإن المؤمن له جنات النعيم ، أما الكافر فله نار الجحيم .

وإن تشكروا الله على نعمه - أيها الناس - بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا نعمه فيما خلقت له ، يرض لكم هذا الشكر ، ويكافئكم عليه مكافأة جزيلة ، بأن يزيدكم من نعمه وإحسانه وخيره .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » أى : ولا تحمل نفس يوم القيامة حمل أخرى ، وإنما كل نفس تجازى على حسب أعمالها فى الدنيا .

« ثم إلى ربكم مرجعكم » يوم القيامة « فينبئكم » أى : فيخبركم « بما كنتم تعملون » فى دنياكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

« إنه » ـ سبحانه ـ « عليم بذات الصدور » أى : عليم بما تخفيه الصدور من أسرار ، وبما تضمره القلوب من أقوال وأفعال . . . لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قال الجمل فى حاشيته : «قوله : « ولا يرضى لعباده الكفر » معنى عدم الرضا به ، لا يفعل فعل الراضى ، بأن يأذن فيه ، ويقر عليه ، ويثبت فاعله ويمدحه بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ، ويذم عليه ، ويعاقب مرتكبه ، وإن كان بإرادته ، إذ لا يخرج شىء عنها .

أو المعنى : ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله ـ تعالى ـ فى شأنهم : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فيكون الكلام عاما فى اللفظ خاصا فى المعنى ، كقوله ـ تعالى ـ : « عينا يشرب بها عباد الله » أى بعض العباد . . » [1] .

وبذلك نرى هذه الآية الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى كمال قدرته ، وعلى أن من شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه ، فإن عاقبة هذا الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل ، أما من جحد نعم الله ـ تعالى ـ وأشرك معه فى العبادة غيره ، فإن عاقبة هذا الجحود ، تعود على الجاحد بالشر الوبيل ، وبالشقاء فى الدنيا والآخرة .

° ° °

وبعد أن أقام ـ سبحانه ـ الأدلة المتعددة على وحدانيته وكمال قدرته ، أتبع ذلك بالحديث عن طبيعة الإنسان فى حالتى السراء والضراء ، ونفى ـ سبحانه ـ المساواة بين المؤمنين والكافرين ، والعلماء والجهلاء فقال ـ تعالى ـ :

« وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩١ .

نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إليهِ مِنْ قبلُ، وجَعَلَ للهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عن سَبيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفرِكَ قليلاً إنَّكَ من أصحَابِ النَّار (٨) أَمْ مَنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يعلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُونَ ، إنَّما يتذكرُ أُولُوا الألبَابِ (٩) » .

والمراد بالإنسان هنا : الكافر ، بدليل قوله ـ تعالى ـ « وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله . . . » .

والمراد بالضر : مايصيب الإنسان من مصائب فى نفسه أو ماله أو أهله .

أى : وإذا نزل بالإنسان ضر من مرض أو غيره من المكاره ، دعا ربه منيبا إليه ، أى:أسرع إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء والإنابة والتضرع ، وترك الآلهة التى كان يدعوها فى حالة الرخاء .

كما قال ـ تعالى ـ : « بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون » .

وقوله ـ تعالى ـ : « ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل . . . » بيان لحالة هذا الإنسان بعد أن كشف الله ـ تعالى ـ عنه الضر .

وخوله من التخويل بمعنى الإعطاء مرة بعد أخرى ، ومنه الحديث الشريف : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا » أى : يتعهدنا بها وقتا بعد وقت .

و « ما » فى قوله « نسى ما كان يدعو إليه من قبل » موصولة مراد بها الضر أو مراد بها البارى ـ عز وجل ـ .

أى : هذا هو حال ذلك الإنسان عند نزول الضر به ، فإذا ما كشفنا عنه

ضره، وأعطيناه نعما عظيمة على سبيل التفضل منا ... نسى الضر الذي كان يتضرع إلينا من قبل لنزيله عنه، أو نسى الخالق - عز وجل - الذي كشف عنه بقدرته ذلك الضر.

ولم يكتف بهذا النسيان، بل «جعل لله - تعالى - أندادا» أي: أمثالا وأشباها ونظائر يعبدها من دونه.

واللام في قوله - تعالى -: «ليضل عن سبيله» للتعليل. أي فعل ما فعل من جعله شركاء لله - تعالى - في العبادة، ليضل الناس بذلك الفعل عن سبيل الله وعن دينه الذي إرتضاه لعباده.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «ليضل» بفتح الياء. أي: ليزداد ضلالا على ضلاله.

وقوله - تعالى -: «قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار» بيان لسوء عاقبة هذا الإنسان المشرك.

أي: قل - أيها الرسول الكريم - لهذا الإنسان الذي جعل لله شركاء في العبادة... قل له تمتع بكفرك تمتعا قليلا، أو زمانا قليلا. إنك من أصحاب النار الملازمين لها، والخالدين فيها.

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هذا الإنسان المشرك وبين الإنسان الملازم لطاعة ربه فقال: «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه...».

وكلمة «أمن» أصلها «أم» التي بمعنى بل وهمزة الاستفهام. و «من» التي هي إسم موصول وهي هنا مبتدأ وخبره محذوف. والقانت: من القنوت بمعنى ملازمة الطاعة والمواظبة عليها بخشوع وإخلاص.

وآناء الليل: ساعاته: والاستفهام للإنكار والنفي.

أى : بل أمن هو قائم ساعات الليل لعبادة الله - تعالى - ساجدا وقائما يحذر عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، كمن هو جاعل لله - تعالى - شركاء فى العبادة ؟

مما لاشك أنهما لايستويان فى عرف أى عاقل ، وفى نظر أى ناظر .

ويصح أن تكون « أم » متصلة ، وقد حذف معادلها ثقة بدلالة الكلام عليه ، فيكون المعنى :

أهذا الكافر الذى جعل لله أندادا ليضل عن سبيله أحسن حالا ، أم الذى هو ملازم للطاعات آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟

ووصف القنوت بأنه فى آناء الليل ، لأن العبادة فى تلك الأوقات أقرب إلى القبول وقدم السجود على القيام ، لأن السجود أدخل فى معنى العبادة .

قال الآلوسى ماملخصه : « وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، وقيل فى عمار بن ياسر . . . . والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ، ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت ، وفيها دليل على فضل الخوف والرجاء .

وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أنس قال : دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رجل وهو فى الموت ، فقال له : كيف تجدك ؟ قال : أرجو وأخاف . فقال - صلى الله عليه وسلم - : لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذى يرجو ، وآمنه الذى يخاف »[1] .

ثم نفى - سبحانه - أيضا المساواة بين العالم والجاهل فقال : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . . . » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أندادا :

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٤٧

إنه لا يستوى عند الله - تعالى - المشرك والمؤمن ، ولا يستوى عنده - أيضا - الذين يعلمون الحق ، ويعملون بمقتضى علمهم ، والذين لا يعلمونه ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم ، ويعرضون عن كل من يدعوهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إنما يتذكر أولوا الألباب » أى : إنما يعتبر ويتعظ بهذه التوجيهات والإرشادات ، أصحاب العقول السليمة والمدارك القويمة ...

• • •

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر المؤمنين بأن يواظبوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأن يهاجروا إلى الأرض التى يتمكنون فيها من نشر دينه وإعلاء كلمته ، وأن ينذر المشركين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وضلالهم ... فقال - تعالى - :

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) » .

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لعبادى المؤمنين الصادقين: داوموا على الخوف من ربكم ، وعلى صيانة أنفسكم من كل مايغضبه .

وفى التعبير بقوله ـ تعالى ـ : « قل يا عبادى الذين آمنوا . . . » دون قوله : قل لعبادى الذين آمنوا . . . تكريم وتشريف لهم ، لأنه ـ سبحانه أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يناديهم بهذا النداء الذى فيه ما فيه من التكريم لهم ، حيث أضافهم إلى ذاته ـ تعالى ـ ، وجعل وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هى التبليغ عنه ـ عز وجل ـ .

قال الآلوسى : « قوله ـ تعالى ـ : « قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم » : أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة ، إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب ، وفيه إيذان بأنهم هم .

أى : قل لهم قولى هذا بعينه ، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله تعالى ـ أدخل فى إيجاب الامتثال به . . »[1] .

وجملة « الذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » تعليل لوجوب الامتثال لما أمروا به من تقوى الله ـ تعالى ـ والاستجابة لإرشاداته .

وقوله « للذين أحسنوا » متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وقوله « فى هذه الدنيا » متعلق بقوله : أحسنوا . وقوله « حسنة » مبتدأ مؤخر .

أى : للذين أحسنوا فى هـــذه الدنيا أقوالهم وأعمالهم . . . . حسنة عظيمة فى الآخرة ، ألا وهى جنة عرضها السموات والأرض .

وقوله ـ تعالى ـ : « وأرض الله واسعة » جملة معترضة لإزاحة ما عسى أن يتعللوا به من أعذار ، إذا ما حملهم البقاء فى أوطانهم على التفريط فى أداء حقوق الله .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٢٤٨ .

قال صاحب الكشاف: «ومعنى: «وأرض الله واسعة»: أن لاعذر للمفرطين فى الإحسان ألبتة، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة، وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز، وتحولوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم...»(١).

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى -: «ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون».

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الصابرين فقال: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» أى: إنما يوفى الصابرون على مفارقة الأوطان، وعلى تحمل الشدائد والمصائب فى سبيل إعلاء كلمة الله ..... يوفون أجرهم العظيم على كل ذلك بغير حساب من الحاسبين. لأنهم لا يستطيعون معرفة ما أعده - سبحانه - لهؤلاء الصابرين من عطاء جزيل، ومن ثواب عظيم، وإنما الذى يعرف ذلك هو الله - تعالى - وحده.

قال الإمام الشوكانى: «أى: يوفيهم الله أجرهم فى مقابلة صبرهم بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسبانه حاسب...

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شىء يدخل تحت الحساب فهو متناه، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه. وهى فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة، تقتضى أن على كل راغب فى ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١١٧

بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيرا قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع . . . »[١] .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين للناس ما أمره به خالقه فقال : « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » .

أي : قل لهم يا محمد إني أمرت من قبل الله - عز وجل - أن أعبده عبادة خالصة لا مجال معها للشرك أو الرياء ، أو غير ذلك مما يتنافى مع الطاعة التامة لخالق - سبحانه - .

« وأمرت لأن أكون أول المسلمين » أي : أمرني ربي بأن أخلص له العبادة إخلاصا تاما وكاملا ، لكي أكون على رأس المسلمين وجوههم له ، حتى يقتدي بي الناس في إخلاصي وطاعتي له - عز وجل - .

قال تعالى - : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

وقوله - سبحانه - : « قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » بيان لسوء عاقبة الشرك والمشركين .

أي : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إني أخاف إن عصيت ربي ، فلم أخلص له العبادة والطاعة ، عذاب يوم عظيم الأهوال ، شديد الحساب ، وهو يوم القيامة ، ولذلك فأنا لشدة خوفي من عذاب خالقي ، أكثرهم إخلاصا له - عز وجل - وامتثالا لأمره ، ومحافظة على طاعته .

« قل الله أعبد مخلصا له ديني » أي : وقل لهم - أيضا - : الله - تعالى - وحده هو الذي أعبده عبادة لا يحوم حولها شرك ، ولا يخالطها شيء من الرياء أو التكلف .

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٥٤

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن للناس بأساليب متنوعة، أنه لن يتراجع عن طاعته التامة لربه، وأن عليهم أن يتأسوا به فى ذلك.

قال الجمل: «أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولا ـ بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها، وثانيا: بأن يخبرهم بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم، وثالثا: بأن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان. ورابعا: بأن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله ـ تعالى ـ وأخلص له الدين على أبلغ وجه وآكده، إظهارا لتصلبه فى الدين، وحسما لأطماعهم الفارغة، وتمهيدا لتهديدهم بقوله: «فاعبدوا ماشئتم من دونه ....»[1].

فالأمر فى قوله ـ تعالى ـ: فاعبدوا ماشئتم من دونه ....» للتهديد والتقريع والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها.

والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ـ أيها المشركون ـ من أنى أول المسلمين وجوههم لله ـ تعالى ـ وحده، فاعبدوا ماشئتم أن تعبدوه من دونه ـ عز وجل ـ فسترون عما قريب سوء عاقبة شرككم وجحودكم لنعم الله ـ تعالى ـ.

وقوله: «قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة» بيان لسوء عاقبة من أعرض عن دعوة الحق وقوله: «الذين خسروا ..» خبر إن.

أى: قل يامحمد لهؤلاء المشركين: ليس الخاسرون هم الذين أخلصوا عبادتهم لله ـ تعالى ـ وحده ـ كما زعمتم ـ وإنما الخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بسبب إلقائهم فى النار، وحرمانهم من النعيم الذى أعده الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين.

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٥٩٤

وقال - سبحانه - خسروا أنفسهم وأهليهم ، للإشعار بأن هؤلاء المشركين لم يخسروا أنفسهم فقط بسبب دخولهم النار ، وإنما خسروا فوق ذلك أهليهم لأنهم حيل بينهم وبين أهليهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده .

وجملة : « ألا ذلك هو الخسران المبين » مستأنفة لتأكيد ما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه ، للإشعار بأن هــذا الخسران الذى حل بهم قد بلغ الغاية والنهاية فى بابه .

وقوله - سبحانه - : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل... » تفصيل لهذا الخسران بعد تهويله عن طريق الإبهام والإجمال .

والظلل : جمع ظلة ، وأصلها السحابة التى تظل ما تحتها ، والمراد بها هنا طبقات النار التى تكون من فوقهم ومن تحتهم . وأطلق عليها هذا الاسم من باب التهكم بهم ، إذ الأصل فى الظلل أنها تقى من الحر ، بينما الظلل التى فوق المشركين وتحتهم محرقة .

أى : لهؤلاء المشركين طبقات من النار من فوقهم ، وطبقات أخرى من النار من تحتهم ، فهم محاطون بهـا من كل جانب ، ولا يستطيعون التفلت منها .

قال الجمل فى حاشيته : « فإن قلت : الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلة ؟

قلت : فيـه وجوه : الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر . الثانى : أن الذى تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته فى النار لأنها دركات . الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة الفوقانية فى الإيذاء والحرارة ، سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة »(١) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٤

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك الذى يخوف الله به عباده . . . » يعود إلى العذاب الشديد الذى أعده - سبحانه - لأولئك المشركين .

أى : ذلك العذاب الشديد يخوف الله - تعالى - به عباده ، حتى يحذروا مايوصل إليه ، ويجتنبوا كل قول أو فعل من شأنه أن يفضى إلى النار .

وقوله - تعالى - : « ياعباد فاتقون » نداء منه - تعالى - للناس يدل على رحمته بهم ، وفضله عليهم أى : عليكم ياعبادى أن تلتزموا طاعتى ، وتجتنبوا معصيتى ، لكى تنالوا رضائى وجنتى ، وتبتعدوا عن سخطى ونارى .

وإلى هنا نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت الصابرين بالعطاء الذى لايعلم مقدار فضله إلا الله - تعالى - ، وأمرت بإخلاص العبادة لله - سبحانه - بأساليب متنوعة ، وحذرت المشركين من سوء المصير إذا ما استمروا فى شركهم وكفرهم .

* * *

وبعد أن بين - سبحانه - ماأعده للخاسرين من عذاب أليم ، أتبع ذلك ببيان ماأعده للمتقين من نعيم مقيم ، فقال - تعالى - :

« والذينَ اجتنبُوا الطاغوتَ أنْ يعبُدوهاَ وأنابُوا إلى الله لهُم البُشْرَى فبشِّر عبادِ (١٧) الذين يستمِعونَ القولَ فيتَّبِعونَ أحْسَنَهُ ، أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ ، وأولئِكَ هُمْ أولُوا الألبابِ (١٨) أفمن حقَّ عليه كلمةُ العذابِ أفأنتَ تُنقِذُ من فى النَّارِ (١٩) لـكِنِ الذينَ اتقَوا ربَّهم لهُم غرَفٌ من فوقِها غرفٌ مَبنِيةٌ تجرِى مِنْ تحتِهاَ الأنهارُ ، وعْدَ اللهِ لا يخلِفُ اللهُ الميعادَ (٢٠) » .

والطاغوت : يطلق على كل معبود سوى الله - تعالى - كالشيطان والأصنام

وما يشبههما ، مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد فى كل شىء . ويستعمل فى الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

والاسم الموصول مبتدأ . وجملة « أن يعبدوها » بدل اشتمال من الطاغوت ، وجملة « لهم البشرى » هى الخبر .

والمعنى : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وكرهوا عبادة غير الله ـ تعالى ـ أيا كان هذا المعبود ، وأقبلوا على الخضوع والخشوع له وحده ـ عز وجل ـ .

أولئك الذين يفعلون ذلك ، لهم البشرى ، العظيمة فى حياتهم ، وعند مماتهم ، وحين يقفون بين يدى الله ـ تعالى ـ للحساب يوم القيامة .

وقوله ـ تعالى ـ : « فبشر عباد » أى : فبشر ـ أيها الرسول الكريم ـ عباد الذين هذه مناقبهم ، وتلك صفاتهم . . .

ثم وصفهم ـ سبحانه ـ بما يدل على صفاء عقولهم ، وطهارة قلوبهم ، فقال : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . . » .

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بالقول الذى يتبعون أحسنه ، مايشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة .

والمراد بالأحسن الواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن .

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز ، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل ، كما قال ـ تعالى ـ « وإن تعفوا أقرب للتقوى . . . » .

وكما قال ـ سبحانه ـ : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

فيكون المعنى : الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا . . .

ومنها : أن المراد بالقول هنا مايشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة ، فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة ، فيتبعون الطيب منها ، وينبذون غيره .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : « قوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . . » هم الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة . . . وأراد أن يكونوا نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب ومندوب ، اختاروا الواجب . . . فهم حريصون على فعل ماهو أكثر ثوابا عند الله . . .

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها ، نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء . . .

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء ، فيحدث بأحسن ماسمع ، ويكف عما سواه . . . »[1] .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة .

وقوله ـ سبحانه ـ : « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » ثناء آخر من الله ـ تعالى ـ على هؤلاء المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأخلصوا لله ـ تعالى ـ العبادة .

أى : أولئك الذين هداهم ـ تعالى ـ إلى دينه الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والمدارك القوية ، والقلوب الطاهرة ، النقية . . .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣١

قال الآلوسى : « وفى الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض، ولذا قيل :

شمر وكن فى أمور الدين مجتهدا ولا تكن مثل عير قيد فانقادا .

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله - تعالى - وقبول النفس لها .... »(١) .

ثم بين - سبحانه - أن من أحاطت به خطيئته ، لن يستطيع أحد إنقاذه من العذاب ، فقال - تعالى - « أفمن حقت عليه كلمة العذاب ، أفأنت تنقذ من فى النار » .

والاستفهام للنفى ، والتقدير : أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على كفره حتى النهاية ، أفتستطيع أنت - أيها الرسول الكريم - أن تنقذه من هذا المصير الأليم ؟ لا - أيها الرسول الكريم - إنك لا تستطيع ذلك ، لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار ، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان، لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها .

وقوله - تعالى - : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ... » بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة من حقت عليهم كلمة العذاب ..

والغرف جمع غرفة ، وتطلق على الحجرة التى تكون مرتفعة عن الأرض .

أى : هذا حال الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أما حال الذين اتقوا ربهم فيختلف اختلافا تاما عن غيرهم ، فإن الله - تعالى - قد أعد لهم - على سبيل التكريم والتشريف - غرفا من فوقها غرف أخرى مبنية ..

ووصفت بذلك للإشارة إلى أنها معدة ومهيأة لنزولهم فيها ، قبل أن يقدموا عليها ، زيادة فى تكريمهم وحسن لقائهم .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٥٤ .

وهذه الغرف جنتها «تجرى من تحتها الأنهار» ليكون ذلك أدعى إلى زيادة سرورهم.

وقوله - تعالى - «وعد الله لا يخلف الله الميعاد» تذييل مؤكد لمضمون ما قبله من كون المتقين لهم تلك الغرف المبنية. ولفظ «وعد» مصدر منصوب بفعل مقدر.

أي: وعدهم الله - تعالى - بذلك وعدا لا يخلفه؛ لأنه - سبحانه - ليس من شأنه أن يخلف الموعد الذي يعده لعباده.

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»(١).

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت المتقين بأحسن البشارات وأكرمها، وتوعدت المصرين على كفرهم وفجورهم باستحالة إنقاذهم من عذاب النار.

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسرعة زوال الحياة الدنيا، وقرب اضمحلال بهجتها، كما بين حال من شرح الله صدره للإسلام فقال - تعالى -:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)».

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٨١

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء . . . » للتقـرير .

والينابيع : جمع ينبوع ، وهو المنبع أو المجرى الذى يكون فى باطن الأرض ، والذى يحمل الكثير من المياه الجارية أو المخزونة فى جوف الأرض .

والمعنى : لقد علمت ـ أيها العاقل ـ أن الله ـ تعالى ـ أنزل من السحب المرتفعة فى جو السماء ، ماء كثيرا ، فأدخله بقدرته فى عيون ومسارب فى الأرض ، هذه العيون والمسارب تارة تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون فى باطنها ، وكل ذلك من أعظم الأدلة على قدرة الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا آخر من مظاهر قدرته فقال : « ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه . . . » .

أى : هذا الماء الذى أنزله ـ سبحانه ـ بقدرته من السماء ، قد سلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج بسبب هذا الماء زرعا مختلفا فى ألوانه وفى أشكاله ، فمنه ماهو أخضر ومنه ماهو أصفر ، ومنه ما ليس كذلك مما يدل على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ .

وقوله ـ تعالى ـ : « ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما » بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته ـ عز وجل ـ .

والفعل « يهيج » مأخوذ من الهيج بمعنى اليبس والجفاف . يقال : هاج النبات هيجا وهياجا ، إذا يبس واصفر . أو مأخوذ من الهيج بمعنى شدة الحركة . يقال : هاج الشىء يهيج ، إذا ثار لمشقة أوضرر ، ثم ، ثم يعقب ذلك الهيجان الجفاف واليبس ..

أى : ثم يصاب هذا الزرع المختلف الألوان بالجفاف والضمور ، فتراه مصفرا من بعد اخضراره ونضارته ، ثم يجعله ـ سبحانه ـ حطاما ، أى : فتاتا متكسرا . يقال : حطم ـ من باب تعب ـ إذا تكسر وتفتت وتحطم .

« إن فى ذلك » الذى ذكرناه من إنزال الماء من السماء ، ومن سلكه ينابيع فى الأرض ، ومن إخراج النبات المختلف الألوان بسببه « لآيات » عظيمة « لأولى الألباب » .

أي : لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

والمقصود من هذه الآية الكريمة ، التحذير من الانهماك فى الحياة الدنيا ومتعها ، حيث شبهها - سبحانه - فى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبـدو مخضرا وناضرا . . . ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال .

وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدى والضال ، فقال : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه . . . » .

أى : أفمن شرح الله - تعالى - صدره للاسلام ، وجعله مستعدا لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه ، كمن قسا قلبه وغلظ ، وأصبح أسيرا للظلمات والأوهام . . .

لا شك أنهما لا يستويان فى عقل أى عاقل . . .

فالاستفهام للإنكار والنفى . و « من » اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف لدلالة قوله - تعالى - « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » عليه .

أى : فهلاك وخزى لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله - تعالى - ، الذى من شأنه أن تلين له القلوب . ولكن هؤلاء الكافرين

(١) سورة الكهف الآية ٤٥

إذا ماذكر الله - تعالى - ، اشمأزت قلوبهم ، وقست نفوسهم ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

ومنهم من جعل «من» في قوله «من ذكر الله» بمعنى عن . أى : فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته .

قال صاحب الكشاف : «قوله : «من ذكر الله» أى : من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا ، وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله - تعالى - : «فزادتهم رجسا إلى رجسهم» وقرىء : عن ذكر الله .

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن فى هذا ؟ قلت : إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه . وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظايره : سقاه من العيمة . أى : من أجل عطشه . وسقاه عن العيمة ، إذا أرواه حتى أبعده عن العطش»(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مآل هؤلاء الذين قست قلوبهم فقال : «أولئك فى ضلال مبين» .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة فى ضلال واضح عن الصراط المستقيم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون»(٢).

* * *

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص١٢٢

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢

ثم مدح - سبحانه - كتابه مدحا يليق به، وبين حال المؤمنين الصادقين عند سماعه، وسلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه. فقال - تعالى - :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ».

وقوله - تعالى - : « مثانى » جمع مثنى من التثنية بمعنى التكرير والإعادة ولذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثانى، لأنها تكرر وتعاد مع كل صلاة.

أى : الله - تعالى - نزل بفضله ورحمته عليك - يا محمد - أحسن الحديث « كتابا متشابها » أى : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته، وفى نظمه وإعجازه، وفى صحة معانيه وأحكامه، وفى صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ...

« مثانى » أى : تثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة التردد، وإنما يزداد المؤمنون حبا وتعلقا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة.

وسمى - سبحانه - كتابه حديثا ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه . فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم .

ولفظ « كتابا » بدل من قوله « أحسن الحديث » . وقوله : « متشابها مثانى » صفتان للكتاب . . .

ووصف بهما وهو مفرد وهما جمع ، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام . . .

أى : الله - تعالى - أنزل أحسن الحديث كتابا مشتملا على السور والآيات والمواعظ . . . التى يشبه بعضها فى الإعجاز . . . والتى تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار . . .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ماملخصه : « وإيقاع اسم الله مبتدأ ، وبناء « نزل » عليه ، فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث .

فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشىء هى جملته لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن سور وآيات ... كما تقول الإنسان عظام وعروق ، فإن قلت : مافائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفر شىء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات ، ليركزه فى قلوبهم ، كى يغرسه فى صدورهم . . . »(١) .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص١٢٢ .

وقوله - تعالى - : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . . » .

استئناف مسوق لبيان آثار هذا القرآن الكريم فى نفوس قارئيه وسامعيه بعد بيان أوصافه فى ذاته .

وقوله « تقشعر » من الاقشعرار ، وهو الإنقباض الشديد للبدن . يقال: اقشعر جسد فلان ، إذا انقبض جلده واهتز . . . وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله - تعالى - .

أى : أن هذا الكتاب العظيم عندما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر . . ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرءوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة .

قال الجمل : « فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولا ، ثم قرنت القلوب بها ثانيا ؟ .

قلت: ذكر الخشية التى تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب ، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم فى أول الأمر ، فإذا ذكروا الله - تعالى - ، وذكروا رحمته وسعتها ، استبدلوا بالخشية رجاء فى قلوبهم ، وبالقشعريرة لينا فى جلودهم . . » (١) .

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء فى رحمته ومغفرته ، إذ أن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد ، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح . وعدى الفعل « تلين » بإلى . لتضمينه معنى تسكن وتطمئن .

ومفعول « ذكر الله » محذوف للعلم به ، أى : ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ورحمته وثوابه وجنته .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٨

قال ابن كثير ما ملخصه : هؤلاء المؤمنون يخالفون غيرهم من وجوه :
أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات.
الثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا . بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، ولم يكونوا - كغيرهم - متشاغلين لاهين عنها.
الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها ... ولم يكونوا يتصارخون ويتكلفون ما ليس فيهم ..

قال قتادة عند قراءته لهذه الآية : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأنهم تقشعر جلودهم وتبكى أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا فى أهل البدع ، وهذا من الشيطان .... »(1) .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » يعود إلى الكتاب الذى مرت أوصافه ، وأوصاف القارئين له والمستمعين إليه .

أى ذلك الكتاب العظيم المشتمل على أحسن الإرشادات وأحكمها، هدى الله الذى يهدى بسببه من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم . ومن يضلله - سبحانه - عن طريق الحق ، فما له من هاد يهديه إلى هذا الطريق القويم .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هؤلاء الذين يخشون ربهم ، وبين غيرهم ممن قست قلوبهم ، وانحرفت نفوسهم عن الحق ، فقال - تعالى - : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ».

والاستفهام للنفى والإنكار، و« من » اسم موصول مبتدأ، والخبر محذوف.
أى : أفمن كان يوم القيامة مصيره إلى النار المحرقة التى يتقيها ويحاول درأها عن نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ... كمن يأتى يوم القيامة وهو آمن مطمئن بعيد عن النار وسعيرها؟

(1) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٨٥

والآية الكريمة مافيها من تهويل عذاب يوم القيامة ، إذ جرت عادة الإنسان أن يتق الآلام بيديه وجوارحه ، فإذا مااتقاها بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ، كان ذلك دليلا على أن مانزل به فى نهاية الفظاعة والشدة .

وفى قوله - تعالى - : «سوء العذاب» مبالغة أخرى ، إذ نفس العذاب سوء ، فإذا ماوصف بعد ذلك بالسوء . كان أشد فى الفظاعة والإهانة والألم .

وجملة : «وقيل للظالمين ...» عطف على «يتق ...» أى : هذا هو مصير الظالمين ، إنهم يتقون النار بوجوههم التى هى أشرف أعضائهم ، وهذا الاتقاء لن يفيدهم شيئا ، بل ستغشاهم النار بلهبها ، ويقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب ما كنتم تكسبون فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة .

«كذب الذين من قبلهم» من أمم الكفر والضلال «فأتاهم العذاب» المقدر لكل أمة من أمم الكفر .

«من حيث لا يشعرون» أى : من الجهة التى لاتخطر لهم على بال ، أن العذاب يأتيهم منها ، فيكون وقعه عليهم أشد وأفظع .

«فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا» أى : العذاب الذى يذلهم ويخزيهم فى الحياة الدنيا «ولعذاب الآخرة» .

المعد لهم «أكبر» كيفا وكما «لو كانوا يعلمون» أى : لو كانوا من أهل العلم والفهم لما ارتكبوا ما ارتكبوا من كفر وفسوق وعصيان ، أدى بهم إلى هذا العذاب المبين .

* * *

ثم كرر - سبحانه - مدحه للقرآن الكريم ، بأن بين أنه مشتمل على كل مثل نافع للناس ، وأنه لا لبس فيه ولا اختلاف ، وساق مثلا المشرك الذى يعبد آلهة كثيرة ، والمؤمن الذى يعبد إلها واحدا ، وبين أن جميع الناس سيعمهم الموت . وأنهم جميعا سيرجعون إلى الله للحساب ، فقال - تعالى - :

«ولقَدْ ضَربْنا للنَّاسِ فى هذا القرآنِ من كلِّ مثَلٍ لعلَّهم يتذكَّرُونَ (٢٧) قرآناً عربياً غيرَ ذِى عِوجٍ لعلَّهم يتقونَ (٢٨) ضربَ اللهُ مثلاً رَجلاً فيـهِ شركاءُ متشاكِسُونَ ، ورجلاً سلَماً لرَجُلٍ هَلْ يستويانِ مثلاً ؟ الحمدُ للهِ بلْ أكثرُهمْ لايَعلمُونَ (٢٩) إنكَ ميتٌ وإنَّهم ميتُونَ (٣٠) ثم إنـكُم يومَ القيامةِ عندَ ربِّكم تختصِمُونَ (٣١)» .

واللام فى قوله - تعالى - : «ولقد ضربنا للناس ...» موطئة للقسم .

أى : والله لقد ضربنا وكررنا بأساليب متنوعة فى هذا القرآن العظيم ، من كل مثل يحتاج إليه الناس فى أمورهم وشئونهم ، وينتفعون به فى دنياهم ودينهم .

وقوله - تعالى - : «لعلهم يتذكرون» تعليل لضرب المثل . أى فعلنا ذلك فى كتابنا الذى هو أحسن الحديث ، كى يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرناهم به ، أو نهيناهم عنه

فلعل هنا بمعنى كى التعليلية ، وهذا التعليل إنما هو بالنسبة إلى غيره - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : «قرآنا عربيا غير ذى عوج ...» ثناء آخر منه - تعالى - على كتابه الكريم .

والجملة الكريمة حال مؤكدة من قوله قبل ذلك : «هذا القرآن ...» .

أى : هذا القرآن قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض ...

قال صاحب الكشاف : « قوله : « قرآنا عربيا » حال مؤكدة كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا ، وإنسانا عاقلا. ويجوز أن ينتصب على المدح «غير ذى عوج » أى : مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف .

فإن قلت : فهلا قيل مستقيما ، أوغير معوج؟ قلت: فيه فائدتان : إحداهما: نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : « ولم يجعل له عوجا » . والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الأعيان ... وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب [1]

وقوله : « لعلهم يتقون» علة أخرى لاشتمال القرآن على الأمثال المتكررة المتنوعة .

أى : كررنا الأمثال النافعة فى هذا القرآن للناس ، كى يتقوا الله - تعالى - ويخشوا عقابه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا للعبد المشرك وللعبد المؤمن ، فقال: «ضرب الله مثلا ، رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . . . » .

وقوله « مثلا » مفعول ثان لضرب ، و « رجلا » مفعوله الأول . وأخر من المفعول الثانى للتشويق إليه ، وليتصل به ما هو من تتمته ، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن .

وقوله « متشاكسون » من التشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق يقال: رجل شكس وشكس - بفتح الشين مع إسكان الكاف أو كسرها وفعله من باب كرم - إذا كان صعب الطباع ، عسر الخلق .

وقوله « سلما » بفتح السين واللام - مصدر وصف به على سبيل المبالغة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «سالما»: أى خالصا لسيده، دون أن ينازعه فيه منازع.

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ١٢٥ .

والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد مملوك لجماعة متشاكسين متنازعين لسوء أخـلاقهم وطباعهم . وهـذا العبد موزع وممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معينا ، والثانى يطلب منه شيئا يباين ماطلبه الأول . والثالث يطلب منه مايتناقض مع ما طلبه الأول والثانى . . . وهو حائر بينهم جميعا ، لايدرى أيطيع ما أمره به الأول أم الثانى أم الثالث . . ؟ لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التى تمزق أفكاره وقواه .

هذا هو المشرك فى حيرته وضلاله وإنتكاس حاله . . .

أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، لأنه يعرف ماله وما عليـه ، وفى راحة تامة من الحيرة والمتاعب التى إنغمس فيها ذلك العبد الذى يملكه الشركاء المتشاكسون .

فالمقصود بهذين المثلين بيان ماعليه العبد المشرك منضلال وتحيروتمزق وما عليه العبد المؤمن من هداية وإستقرار وإطمئنان .

وإختار ـ سبحانه ـ الرجل لضرب المثلين ، لأنه أتم معرفة من غيره لما يتعبه ولما يريحه ، ولما يسعده ولما يشقيه .

قال صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهـذه الآية : « واضرب يا محمد لقومك مثلا وقل لهم : ماتقولون فى رجل من المماليك قد إشترك فيه شركاء ، بينهم إختـلاف وتنازع : كل واحـــد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجـاذبونه ، ويتعاورونه فى مهن شتى ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير فى أمره ، قد تشعبت الهموم قلبه ، وتوزعت أفـكاره ، لايدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته .

وفى آخر قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن وأجمل شأنا ؟

والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى .. ويبقى متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد، ومن يطلب رزقه ؟ فهمه شعاع - بفتح الشين أى : متفرق - ، وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه فى عاجله، مؤمل للثواب فى آجله »(1).

والإستفهام فى قوله - تعالى - : « هل يستويان مثلا » الإنكار والإستبعاد.

أى : لا يستوى الرجل الذى فيه شركاء متشاكسون، والرجل الذى سلم لرجل آخر، فى رأى أى ناظر، وفى عقل أى عاقل، فالأول فى حيرة من أمره، والثانى على بينة من شأنه.

وساق - سبحانه - هذا المعنى فى صورة الإستفهام، للإشعار بأن ذلك من الجلاء والوضوح بحيث لا يخفى على كل ذى عقل سليم.

وانتصب لفظ « مثلا » على التمييز المحول عن الفاعل ؛ لأن الأصل هل يستوى مثلهما وحالهما ؟

وجملة « الحمد لله » تقرير وتأكيد لما قبلها من نفى الاستواء وإستبعاده، وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص فى العبودية لله - تعالى - يستحق منهم كل شكر وثناء على الله - عز وجل - حيث وفقهم لذلك.

وقوله - تعالى - : « بل أكثرهم لا يعلمون » إضراب وإنتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور، إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون هذه الحقيقة مع ظهورها ووضوحها لكل ذى عينين يبصرهما، عقل يعقل به.

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن الموت سينزل به وبأعدائه الذين يتربصون به ريب المنون، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فقال : « إنك ميت وإنهم ميتون ».

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢١.

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - سيلحقك الموت كما أنه سيلحق هؤلاء المشركين لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فأى موجب لتعجل الموت الذى سيعم الخلق جميعا .

وجاء الحديث عن حلول الموت به - صلى الله عليه وسلم - وبأعدائه ، بأسلوب التأكيد ، للإيذان بأنه لا معنى لإستبطائهم لموته - صلى الله عليه وسلم - ولا للشماتة به - صلى الله عليه وسلم - إذا ما نزل به الموت ، إذ لا يشمت الفانى فى الفانى مثله .

ثم بين - سبحانه - ما يكون بينه وبينهم يوم القيامة فقال : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون .

أى : ثم إنكم جميعا يوم القيامة عند ربكم وخالقكم تختصمون وتحتكمون ، فتقيم عليهم - أيها الرسول الكريم - الحجة ، بأنك قد بلغت الرسالة ، وهم يعتذرون بالأباطيل والتعللات الكاذبة ، والأقوال الفاسدة ، وسينتقم ربك من الظالم للمظلوم ، ومن المبطل للحق .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار فقال ما ملخصه : ثم أن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة .

روى ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يارسول الله أتكرر علينا الخصومة ؟ قال : إن الأمر إذا الشديد .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والذى نفسى بيده أنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا » .

وقال ابن عباس : يخصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهدى الضال ، والضعيف المستكبر »(١)

* * *

ثم بين - سبحانه - أنه لا أحد أشد ظلما ممن كذب على الله - تعالى - ، وكذب بالصدق إذ جاءه ، وأن من صفات المتقين أنهم يؤمنون بالحق ، ويدافعون عنه ، وأنه - سبحانه - سيكفر عنهم سيئاتهم ... فقال - تعالى - :

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) » .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فمن أظلم ممن كذب على الله ... » لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للإنكار والنفى .

أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أنك ستموت وهم سيموتون ، وأنكم جميعا ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء .. فلا أحد

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٨٧

(٢) أول الجزء الرابع والعشرين

أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين كذبوا على الله ، بأن عبدوا من دونه آلهة أخرى ، ونسبوا إليه الشريك أو الولد ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل كذبوا بالأمر الصدق وقت أن جئتهم به من عند ربك .

والتعبير بقوله : « وكذب بالصدق إذجاءه » يدل على أنهم بادروا بتكذيب ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، بمجرد أن سمعوه ، ودون أن يتدبروه أو يفكروا فيه .

وتكذيبهم بالصدق ، يشمل تكذيبهم للقرآن الكريم ، ولكل ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والاستفهام فى قوله - تعالى - « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » للتقرير ، والمثوى : المكان مأخوذ من قولهم ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به . يقال : ثوى يثوى ثواء ، كمضى يمضى مضاء ...

أى : أليس فى جهنم مكانا يكفى لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم ؟ بل أن فيها لمكانا يذلهم ويذوقون فيه سوء العذاب .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة أهل الصدق والإيمان فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » .

والمراد بالذى جاء بالصدق : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمراد بالذى صدق به : ما يشمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويشمل كل من آمن به واتبعه فيما جاء به ، كأبى بكر الصديق وغيره من الصحابة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله - تعالى - : « والذى جاء بالصدق وصدق به » الموصول عبارة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ... والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية ، دخول الجند فى قولك : نزل الأمير موضع كذا ...

والجمع فى قوله - تعالى - : « أولئك هم المتقون » باعتبار دخول الأتباع

تبعا : ومراتب التقوى متفاوتة ، ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعلاها .... »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم فقال « لهم مايشاءون عند ربهم ... » .

أي: لهؤلاء المتقين كل مايشاءونه عند ربهم ومالك أمرهم، بسبب تصديقهم للحق، واتباعهم لما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - .

وفى قوله : « عند ربهم » تكريم وتشريف لهم .

وقوله : « ذلك جزاء المحسنين » أي : ذلك الذى ذكرناه من حصولهم على ما يشتهونه ، جزاء من أحسنوا فى أقوالهم وأفعالهم

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته بهم فقال : « ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » .

واللام فى قوله : « ليكفر ... » متعلقة بمحذوف أى : أعطاهم - سبحانه - ما أعطاهم من فضله ورحمته ليكفر عنهم أسوأ الذنوب التى عملوها ، كالكفر قبل الإسلام ، بأن يغفر لهم بذلك ولا يؤاخذهم عليه .

وإذا غفر الله - تعالى - لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم - بفضله ورحمته ماهو دونه بالطريق الأولى .

« ويجزيهم أجرهم » أى : ويعطيهم ثواب أعمالهم « بأحسن الذى كانوا يعملون » أى : يعطيهم فى مقابل عملهم الصالح فى الدنيا، جنات فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وعلى هذا التفسير يكون قوله - تعالى - « أسوأ وأحسن » أفعل تفضيل، حيث كفر - سبحانه - عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم بما هو أحسن منها وهو الجنة . .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٢

وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله - تعالى - لعباده المتقين، حيث عاملهم بالفضل ولم يعاملهم بالعدل .

ومنهم من يرى أن قوله «أسوأ وأحسن» بمعنى السيء والحسن، فيكون أفعل التفضيل ليس على بابه . وعلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذى عملوا ؟ وما معنى التفضيل فيهما ؟

قلت : أما الإضافة فما هى من إضافة أفعل إلى الجملة التى يفضل عليها، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل . كقولك : الأشج أعدل بنى مروان .

وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذى يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية . والحسن الذى يعملونه هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيها، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ، وحسنهم بالأحسن»(١) .

ثم بين - سبحانه - عصمته لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأبلغ وجه فقال : «أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه ...» .

وقراءة الجمهور : «عبده» بالإفراد وقرأ حمزة والكسائى : «عباده»، والاستفهام للتقرير .

قال القرطبى: «وذلك أنهم خوفوا النبى - صلى الله عليه وسلم مضرة الأوثان، فقالوا له : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تنته عن ذكرها لتصيبنك بالسوء .

وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها : أحذرك منها يا خالد، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها، وتخويفهم لخالد تخويف للنبى - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو الذى أرسله . ويدخل فى الآية تخويفهم النبى - صلى الله عليه وسلم - بكثرة جمعهم وقوتهم ...»(٢).

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٢٢٨ (٢) تفسير القرطبى حـ ١٥ ص ٢٥٨

والمعنى : أليس الله - تعالى - يكاف عبده محمدا - صلى الله عليه وسلم - من كل سوء ؟ وكاف عباده المؤمنين الصادقين من أعدائهم ؟ بلى إنه - سبحانه - لعاصم نبيه - صلى الله عليه وسلم - من أعدائه ، ولناصر عباده المتقين على من ناوأهم .

والحال أن هؤلاء المشركين يخوفونك - أيها الرسول الكريم - من أصنامهم التي يعبدونها من دونه - تعالى - ، مع أن هذه الآلهة الباطلة أتفه من أن تدافع عن نفسها فضلا عن غيرها .

« ومن يضلل الله » أى : من يضلله الله - تعالى - ، « فما له من هاد » يهديه إلى الصراط المستقيم .

« ومن يهد الله » أي: ومن يهده الله - تعالى - إلى طريق الحق والصواب .

« فما له من مضل » أى : فما له من أحد كائنا من كان يستطيع إضلاله .

« أليس الله بعزيز ذى إنتقام » بلى إنه - سبحانه - لعزيز إذ لا يغلبه غالب ، ولا يمانعه ممانع ، ولا ينازعه منازع . ولذو إنتقام شديد من أعدائه ، ولا يستطيع أحد أن يمنع إنتقامه منهم .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم . وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يهددهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم . . . فقال - تعالى - :

« ولَئِنْ سأَلْتَهُم من خلَقَ السَّموات ِ والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ ، قُل أفرأَيْتُم ماتدعُونَ من دُونِ اللهِ إنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هنَّ كاشِفاتُ ضُرِّه ، أو أرادَنِي برَحمةٍ هَلْ هنَّ ممسِكاتُ رَحمتِه ، قلْ حَسْبيَ اللهُ عليه يتوكَّلُ المتوكلُونَ (٣٨) قل يا قومِ اعمَلُوا على مكانَتِكُم إنِّى عامِلٌ فسوْفَ تَعلَمُونَ (٣٩) مَن يأتِيهِ عذَابٌ يُخزِيهِ ويَحِلُّ عليهِ

عذابٌ مُقيمٌ (٤٠) إنَّا أنزلنا عليكَ الكتابَ للنَّاس بالحقّ فمن اهتدَى فلنَفسه ومَنْ ضلَّ فإنَّما يضِلُّ عَلَيها وما أنتَ علَيهم بوكيلٍ (٤١) اللهُ يتَوفى الأنفُسَ حينَ مَوتِها ، والتى لم تمُتْ فى منامِها فَيمُسِكُ التى قضَى عليها الموتَ ، ويرسِلُ الأخرَى إلى أجَلٍ مسمّى ، إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لقَومٍ يتفكَّرُونَ (٤٢) أمِ اتَّخذُوا من دونِ اللهِ شُفعاء قُلْ أوَلوْ كانُوا لا يملكونَ شيئاً ولا يعقِلُونَ (٤٣) قُلْ للهِ الشفاعة جميعاً ، لهُ مُلكُ السَّموات والأرضِ ثمَّ إليهِ ترجَعونَ (٤٤) » .

والمعنى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين من الذى خلق هذه السموات التى ترونها بأعينكم ، وخلق هذه الأرض التى فوقها تعيشون . . .

لئن سألتهم هذا السؤال ، لا يملكون فى الإجابة عليه إلا أن يقولوا: خلقهن الله ، فلفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف .

وقولهم هذا دليل واضح على تناقضهم أنفسهم . لأنهم يعترفون بأن الخالق هو الله ، ولكنهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر . . .

ولذا أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم مبكتاً وموبخا : قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله . إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره . أو أرادنى برحمته هل هن ممسكات رحمته . . . ؟

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أن الخالق لهذا الكون هو الله ، فأخبرونى عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه - سبحانه - : أتستطيع أن تدفع ضرا أراده الله - تعالى -

بى ؟ أم تستطيع أن تمنع رحمته أو خيرا أعطاه الله إلى ؟ كلا إنها لا تستطيع شيئا من ذلك ، وعبادتكم لها إنما هى نوع من السفه والحماقة .

وقال - سبحانه - : « هل هن . » بالتأنيث على سبيل التحقير لتلك الآلهة المزعومة ، ولأنهم كانوا يسمونها بأسماء الإناث : كاللات ، والعزى ، ومناة ... الخ .

وقدم الضر لأن دفعه أهم . وعلق - سبحانه - إرادة الضر والرحمة بذاته - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن أرادنى الله بضر ... » ، ليرد عليهم ردا يخرس ألسنتهم ، حيث خوفوه - صلى الله عليه وسلم - منها ، وزعموا أنه لو استمر فى تحقيرها فإنها ستؤذيه ..

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم فرض المسألة فى نفسه دونهم ؟ قلت : لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم - أولا بأن خالق العالم هو الله وحده ، ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذى أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما ، هل هؤلاء اللاتى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره ، أو ممسكات رحمته حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم . حتى لا يحيروا ببنت شفة قال : « حسبى الله » ، كافيا لمعرة أوثانكم « عليه يتوكل المتوكلون » وفيه تهكم .

ويروى أنه - صلى الله عليه وسلم - سألهم فسكتوا ، فنزل : « قل حسبى الله ... » [1] .

أى : « قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد عليهم وفى سخرية من آلهتهم : الله - تعالى - الخالق لكل شىء ، كافينى فى جميع أمورى ، وعاصمنى من كيدكم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٩

وكيد من تتوهمون كيده، وعليه وحده لا على غيره يتوكل المتوكلون، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته وقدرته .

ثم أمره - سبحانه - مرة أخرى أن يتحداهم وأن يتهددهم فقال : « قل ياقوم إعملوا على مكانتكم .. » أى : وقل لهم للمرة الثالثة : اعملوا ماشئتم عمله من العداوة لى ، والتهديد بآلهتكم .

والمكانة مصدر مكن - ككرم - ، يقال : مكن فلان من الشيء مكانة، إذا تمكن منه أبلغ تمكن .

أى : اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى . والأمر للتهديد والوعيد .

« إنى عامل » أى : إنى سأقابل عملكم السيء بعمل أحسن من جانبي ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق .

« فسوف تعلمون » من منا الذى سينجح فى عمله ، ومن منا الذى سيأتيه عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة . فالمراد بالعذاب المخزى عذاب الدنيا ، والمراد بالعذاب المقيم عذاب الآخرة .

ولقد تحقق ما توعدهم - سبحانه - به ، حيث أنزل عليهم عقابه فى بدر وفى غيرها فأخزاهم وهزمهم ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، فقال - تعالى - : « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق . . . »

أى : إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - القرآن لأجل منفعة الناس ومصلحتهم ، وقد أنزلناه متلبسا بالحق الذى لايحوم حوله باطل .

« فمن إهتدى » إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحق المبين فهدايته تعود إلى نفسه « ومن ضل » عن الطريق المستقيم ، فإثم ضلاله ، إنما يعود على نفسه وحدها .

« وما أنت عليهم » يا محمد « بوكيل » أى : بمكلف بهدايتهم ، وبإجبارهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

ثم ساق سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته، ونفاذ مشيئته فقال ـ تعالى ـ : « الله يتوفى الأنفس حين موتها . . . » .

أى : الله ـ بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين إنتهاء آجالها بأن يقطع تعلقها بالأجسام قطعا كليا ، ويسلب عن هذه الأجسام والأبدان ما به قوام حياتها ، بأن تصير أجساما هامدة لا إدراك لها ، ولا حركة فيها .

وقوله ـ تعالى ـ : « والتى لم تمت فى منامها » معطوف على الأنفس، أى : يسلب الحياة عن الأنفس التى إنتهى أجلها سلبا ظاهرا وباطنا ويسلب الحياة منها سلبا ظاهرا فقط فى حال نومها . إذ أنها فى حالة النوم تشبه الموتى من حيث عدم التمييز والتصرف .

فالآية الكريمة تشير إلى أن التوفى للأنفس أعم من الموت ، إذ أن هناك وفاتين : وفاة كبرى وتكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن طريق النوم . كما قال ـ تعالى ـ «وهو الذى يتوفاكم بالليل . . . » أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت فى إنقطاع الإدراك والإحساس . . .

وقوله ـ تعالى ـ : « فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » بيان لحالة الأنفس التى انتهى أجلها ، والتى لم ينته أجلها بعد .

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذى يتوفى الأنفس حين الموت ، أما الأنفس التى انتهى أجلها فيمسك ـ سبحانه ـ أرواحها إمساكا تاما بحيث لا تعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التى لم يحن وقت موتها، فإن الله ـ تعالى ـ يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها ، وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى فى علمه ـ تعالى ـ فإذا ما انتهى أجلها الذى حدده ـ سبحانه ـ لها خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجا تاما ، كما هو الشأن فى الحالة الأولى .

ولا شك أن الله - تعالى - الذى قدر على ذلك ، قادر أيضا - على إعادة الأرواح إلى أجسادها عند البعث والنشور يوم القيامة .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان كمال قدرة الله - تعالى - ولبيان أن البعث حق ، وأنه يسير على قدرة الله التى لا يعجزها شىء .

ولا منافاة بين هذه الآية التى صرحت بأن الله - تعالى - هو الذى يتوفى الأنفس عند موتها ، وبين قوله - تعالى - : « قل يتوفاكم ملك الموت . . . » وقوله - تعالى - « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » ، لأن المتوفى فى الحقيقة هو الله - تعالى - وملك الموت إنما يقبض الأرواح بإذنه - سبحانه - ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ، ينتزعون الأرواح بأمره ، المستمد من أمر الله - عز وجل - .

قال القرطبى : « فإذا يقبض الله الروح فى حالين ، فى حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه فى حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف . فكأنه شىء مقبوض . وما يقبضه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة . . . .

وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته ، وإنفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيى ويميت ، ولا يقدر على ذلك سواه . . »(١) .

واسم الإشارة فى قوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » يعود إلى المذكور من التوفى والإمساك والإرسال .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من قدرتنا على توفى الأنفس وإمساكها وإرسالها ، لآيات بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يحسنون التأمل والتفكير والتدبر ، فيما أرشدناهم إليه ، وأخبرناهم به .

ثم نعى - سبحانه - على الكفار غفلتهم وعدم تفكرهم فقال : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء : قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون » .

---

(١) تفسير القرطبى حـ ٥ ص ٢٦١ .

و « أم » هنا بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام الإنكار ، والمراد بالشفعاء تلك الأصنام التى زعموا أنها ستشفع لهم يوم القيامة .

والمعنى : لقد ترك هؤلاء المشركون التفكر والتدبر فى دلائل وحدانيته وقدرته - سبحانه - ولم يلتفتوا إلى ماينفعهم ، بل اتخذوا الأصنام آلهة لينالوا بواسطتها الشفاعة عند الله .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - مرشدا ومنبها : أتفعلون ذلك ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا من أمرها ، ولا تعقل شيئا مما يتوجهون به إليها ؟

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم أن الله - تعالى - هو مالك الشفاعة كلها ، وأنه لن يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ، فقال : « قل لله الشفاعة جميعا . . . »

أى : قل لهم : الله - تعالى - هو المالك للشفاعة كلها ، وآلهتكم هذه لا تملك شيئا من ذلك ، بل أنتم وآلهتكم - أيها المشركون - ستكونون وقودا لنار جهنم .

وهو - سبحانه - : « له ملك السموات والأرض » ملكا تاما لا تصرف لأحد فى شىء منهما معه ، ولا شفاعة لأحد إلا بإذنه .

« ثم إليه ترجعون » يوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المشركين ، عندما يذكر - سبحانه - وحده دون أن تذكر معه آلهتهم ، كما بين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، وكيف أنهم يندمون ولا ينفعهم الندم ، وكيف أنهم لو ملكوا فى هذا اليوم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ، لقدموه فداء لأنفسهم من أهوال عذاب يوم القيامة . . فقال - تعالى - :

« وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بالآخرةِ ، وإذَا ذُكرَ الذينَ من دُونِه إذا هُمْ يَستبشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهمَّ فاطِرَ السَّموات والأرْض ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ ، أَنتَ تَحكُم بينَ عبادِكَ فيماَ كانُوا فيهِ يختلِفُونَ (٤٦) ولوْ أَنَّ للذينَ ظلَمُوا ما فى الأرْضِ جميعاً ومِثله معَهُ لافتَدَوا به من سوءِ العذَابِ يومَ القيامةِ ، وبَدا لهُم مِنَ اللهِ ما لم يكونُوا يحتَسِبونَ (٤٧) وبدَا لهُم سَيئاتُ ما كسَبُوا وحاقَ بهِمْ ما كانُوا به يَستهزِئونَ (٤٨) فإذَا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانَا ، ثم إذَا خوَّلْناه نِعمةً منَّا قالَ إنَّما أُوتيتُهُ عَلَى علمٍ بلْ هِيَ فتنَةٌ ولكنَّ أَكثَرهُم لا يَعلَمونَ (٤٩) قدْ قالهاَ الذينَ من قبلِهم فما أغنى عنهُم ما كانوا يكسِبُونَ (٥٠) فأصابَهُم سيئاتُ ما كسَبُوا ، والذينَ ظلَموا من هؤلاءِ سَيصيبُهم سَيئاتُ ما كسَبُوا وما هُمْ بمُعجِزينَ (٥١) أَوَلم يعلَمُوا أَنَّ اللهَ يبسُطُ الرِّزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِر ، إنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يؤمِنُونَ (٥٢) » .

وقوله - تعالى : « اشمأزت .. » أى : نفرت وانقبضت وذعرت ، مأخوذ من الشمز ، وهو نفور النفس مما تكرهه .

قال الإمام الرازى : «إعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة المشركين وهو أنك إذا ذكرت الله وحده ... ظهرت آثار النفرة فى وجوههم ... وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادة ، وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات ... »(١) .

أى : أنك - أيها الرسول الكريم - إذا ذكرت الله - تعالى - وحده ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٥٨

ونسبت إليه ما يليق به - سبحانه - من وحدانيته وقدره .. دون أن تذكر معه الأصنام ، اشمأزت وانقبضت وذعرت نفوس هؤلاء المشركين الجهلاء، أما إذا ذكرت الله - تعالى - معها أم لم تذكره ، إذا هم يستبشرون ويبتهجون ..

والتعبير بالاشمئزاز والاستبشار، يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية فى الأمرين، فهم عند ذكر الله - تعالى - تمتلىء قلوبهم إلى نهايتها غما وهما وانقباضا وذعرا، وعند ذكر أصنامهم تمتلىء قلوبهم إلى نهايتها - أيضا - بهجة وسرورا حتى لتظهر آثار ذلك على بشرتهم ...

وحالهم هذا يدل على أنهم قد بلغوا الغاية - أيضا - فى الجهالة والسفاهة والغفلة ...

وهذا الذى ذكرته الآية الكريمة من اشمئزاز الكافرين عند ذكر الله - تعالى - واستبشارهم عند ذكر غيره ، نرى ما يشبهه عند كثير من الناس ...

فكم من أناس إذا حدثتهم عن ذات الله - تعالى - وصفاته ، وعن سلامة دينه وتشريعاته ، وعن آداب قرآنه وهداياته ، وعن كل ما يتعلق بوجوب تنفيذ أوامره ونواهيه .. انقبضت نفوسهم، واكفهرت وجوههم، وتمنوا لو أنك تركت الحديث عن ذلك ..

أما إذا سمعوا ما يتعلق بالتشريعات وبالنظم التى هى مع صنع البشر .. استبشرت نفوسهم ، وابتهجت أساريرهم ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا. وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده، ولوا على أدبارهم نفورا».
قال الآلوسى : «وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التى وصف

الله - تعالى - بها المشركين ، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم .. وينقبضون من ذكر الله - تعالى - وحده - ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه - عز وجل - وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه إلى ما يكره .... »[1].

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يلتجىء إلى خالقه وحده من شرور هؤلاء المشركين، وأن يفوض أمره إليه، فقال - تعالى - «قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » .

ولفظ : « اللهم » أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء . عوض عنه بالميم المشددة التى فى آخره .

ولفظ « فاطر وعالم » منصوبان على النداء

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الاستعاذة والاعتزال لما عليه هؤلاء المشركون من جهل وسفه، يا الله ، ياخالق السموات والأرض وياعالم الغائب والمشاهد ، والخفى والظاهر من أمور خلقك ، أنت وحدك الذى تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا ، فتجازى كل نفس بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

وما دام الأمر كذلك ، فاهدنى إلى صراطك المستقيم ، وجنبنى الشرك والمشركين .

فالمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما فعله المشركون معه ، وإرشاده إلى ما يعصمه من كيدهم ، وتعليم العباد وجوب الالتجاء إلى الله - تعالى - وحده - لدفع كيد أعدائه .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ١١ .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها مارواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة : بأى شىء كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض . عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، هدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ... »(١) .

وقال صاحب الكشاف : « بعل - بكسر العين أى : دهش وفزع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من شدة شكيمتهم فى الكفر ، فقيل له : ادع الله بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم . وفيه وصف لحالهم ، وإعذار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتسلية له ، ووعيد لهم ... »(٢) .

وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، بين - سبحانه - لهؤلاء الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم ... بين لهم ما أعد لهم من سوء المصير فقال : « ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه ، لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ... » .

أى : أن العذاب المعد لهؤلاء المشركين شىء رهيب ، ولو أن لهم جميع مافى الأرض من خيرات ، ولهم - أيضا - مثل ذلك منضما إليه ، لقدموه فداء لأنفسهم ، أملا فى النجاة من سوء العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة .

فالآية الكريمة وعيد لهم ليس بعده وعيد ، وتيئيس لهم من النجاة ليس بعده تيئيس ، ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٩٦ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٢ .

« إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم »(١) .

ثم هددهم - سبحانه - بتهديد آخر فقال : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

أي : وظهر لهم يوم القيامة من ألوان العقوبات ، ومن فنون الآلام ، ما لم يكونوا في الدنيا يظنون أنه سيقع بهم ، وما لم يكن واردا في حسبانهم .

قال صاحب الكشاف : « وقوله - تعالى - « وبدا لهم من الله ... » وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدته ، وهو نظير قوله - تعالى - في الوعد : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ... » .

والمعنى : وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ، وما لم يحدثوا به أنفسهم .

وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هي سيئات .

وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء . ويل لأهل الرياء .

وجزع بعض الصالحين عند موته ، فسئل عن سبب ذلك فقال : أخشى أن يبدو لي من الله ما احتسبه ، ثم قرأ هذه الآية »(٢) .

ثم تهديد ثالث يتمثل في قوله تعالى - : « وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

والمراد بسيئات ما كسبوا : الأعمال السيئة التي اكتسبوها في دنياهم ، وهذا البدو والظهور يكون عند عرض صحائف أعمالهم عليهم . و « ما » موصولة أو مصدرية .

(١) سورة المائدة الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٣ .

أي: وظهر لهم عند عرض صحائف أعمالهم عليهم يوم القيامة ، الذي عملوه واكتسبوه في الدنيا من رذائل ، وحاق بهم ، أي : وأحاط ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في حياتهم ، ويتهكمون بمن كان يحذرهم منه في الدنيا .

وبعد هذا التصوير الرهيب لمصير هؤلاء المشركين يوم القيامة ، عادت السورة إلى بيان تناقضهم مع أنفسهم ، فهم إن سئلوا عن خالق السموات والأرض ، قالوا : إن خالقهما هو الله ، ومع ذلك يعبدون غيره ، وتشمئز قلوبهم عند ذكره وحده .

وهم يتقربون إلى آلهتهم بالطاعات ، ومع ذلك فهم عند نزول الشدائد بهم ، ينسون تلك الآلهة ، ويتجهون بالدعاء إلى الله - تعالى - وحده بالدعاء .

لنستمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي أحوالهم في السراء والضراء فتقول : « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم عندي . . . » .

والمراد بالإنسان هنا جنس الكافر ، بدليل سياق الآيات وسباقها ويصح أن يراد به جنس الإنسان عموما ، ويدخل فيه الكفار دخولا أوليا .

أي : فإذا أصاب الإنسان ضر ، من مرض أو فقر أو نحوهما ، دعانا قاعدا أو قائما ، لكي نكشف عنه ما نزل به من بلاء .

« ثم إذا خولناه نعمة منا . . . » أي : ثم إذا أجبنا لهذا الإنسان دعوته وكشفنا عنه الضر وأعطيناه على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا ، بأن حولنا مرضه إلى صحة ، وفقره إلى غنى » .

« قال » هذا الإنسان الظلوم الكفار « إنما أوتيته على علم » مني بوجوه المكاسب ، أو على علم مني بأني سأعطى هذه النعمة ، بسبب استعدادي واجتهادي وتفوقي في مباشرة الأسباب التي توصل إلى الغنى والجاه . . .

وقال ـ سبحانه ـ : « خولناه » لأن التخويل معناه العطاء بدون مقابل، مع تكراره مرة بعد مرة .

وجاء الضمير فى قوله « أوتيته » مذكرا مع أنه يعود إلى النعمة ، لأنها بمعنى الأنعام . أى : ثم إذا خولناه شيئا من الأنعام الذى تفضلنا به عليه ، قال إنما أوتيته على علم ونبوغ عندى .

وقوله ـ تعالى ـ « بل هى فتنة » رد لقوله ذلك ، وزجر لهذا الجاحد عما تفوه به .

أى : ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد ، فإننا ما أعطيناه هذه النعم بسبب علمه ـ كما زعم ـ وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان منا عليه ، وعلى سبيل الإبتلاء والإختبار له ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه ، وليتميز الشاكر من الجاحد .

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، ولا يفطن إليها إلا من استنارت بصيرته ، وطهرت سريرته .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله : « إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . . . » على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ، ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الآى اعتراض ... » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ المصير السىء للجاحدين السابقين، ليعتبر بهم اللاحقون فقال : « قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٢٤ .

والضمير فى قوله « قالها » يعود إلى ما حكاه - سبحانه - عن هذا الإنسان الجاحد من قوله : « إنما أوتيته على علم » .

فهذه الكلمة قد قالها قارون عندما نصحه الناصحون ، فقد رد عليهم بقوله « إنما أوتيته على علم عندى » فكانت نهايته . أن خسف الله به وبداره الأرض .

أى : قد قال هذه الكلمة الدالة على الجحود والغرور ، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك ، والذين يشبهونهم فى البطر والكنود ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، ولم ينفعهم شيئا ما جمعوه من حطام الدنيا ، وما اكتسبوه من متاعها .

« فأصابهم سيئات ما كسبوا .. » أى : فأصاب هؤلاء السابقين ، العقاب الذى يستحقونه بسبب سيئاتهم التى اكتسبوها واقترفوها فى دنياهم .

فالكلام على حذف مضاف . أى : فأصابهم جزاء سيئات كسبهم ، بأن أنزل الله - تعالى - بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى .

« والذين ظلموا من هؤلاء » أى : من هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - .

« سيصيبهم » - أيضا - « سيئات ما كسبوا » كما أصاب الذين من قبلهم .

« وما هم بمعجزين » أى : وما هم بفائتين أو هاربين من عذابنا .

« أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أى : أعموا عن التفكر والإبصار ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه منهم ، إذ أن ذلك مرجعه إلى مشيئته وحكمته - سبحانه - إذ سعة الرزق ليست دليلا على رضاه ، كما أن ضيقه ليس دليلا على غضبه .

« إن فى ذلك » الذى ذكرناه « لآيات » واضحات « لقوم يؤمنون » بالحق ويستجيبون له ، وينتفعون بالهدايات التى نسوقها لهم .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد صورت حال المشركين أكمل تصوير ، كما بينت ما أعد لهم من عذاب مقيم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق .

* * *

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته ، ونهاهم عن اليأس من مغفرته ، وأمرهم أن يتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، قبل أن يفاجئهم الموت والحساب ، فقال - تعالى - :

« قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا عَلَى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (٥٩) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم . . . » .

روايات منها : مارواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة، تواعدت أنا وهشام بن العاصى بن وائل السهمى وعياش ابن أبى ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاة بنى غفار - أى : غدير بنى غفار - وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فتن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله - عز وجل - ، وآمنوا برسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم - أيضا - يقولون هذا فى أنفسهم ، فأنزل الله - عز وجل - فى كتابه : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... إلى قوله - تعالى - أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » .

قال عمر : فكتبتها بيدى ، ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله - صلى الله عليه وسلم -[1] .

والأمر فى قوله - تعالى - : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ... » موجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وإضافة العباد إلى الله - تعالى - للتشريف والتكريم .

والإسراف : تجاوز الحد فى كل شىء ، وأشهر ما يكون إستعمالا فى الإنفاق ، كما فى قوله - تعالى - : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ... » .

والمراد بالإسراف هنا : الإسراف فى إقتراف المعاصى والسيئات ، والخطاب للمؤمنين المذنبين . وعدى الفعل « أسرفوا » بعلى ، لتضمنه معنى الجناية . أى : جنوا على أنفسهم .

والقنوط : اليأس ، وفعله من بابى ضرب وتعب . يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشىء ، أى يائس من ذلك ولا أمل له فى تحقق ما يريده .

(١) راجع تفسير القرطبى ج١٥ ص ٢٦٨ ، وتفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٥

والمعنى: قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم بارتكابهم للمعاصى، قل لهم: لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ومن مغفرته لكم.

وجملة «إن الله يغفر الذنوب جميعا» تعليلية. أى: لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى -، لأنه هو الذى تفضل بمحو الذنوب جميعها، لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة.

«إنه» - سبحانه - «هو الغفور الرحيم» أى: هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين، فهم إن تابوا من ذنوبهم قبل - سبحانه - توبتهم كما وعد تفضلا منه وكرما. وإن ماتوا دون أن يتوبوا، فهم تحت رحمته ومشيئته، إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم، ثم أدخلهم الجنة بفضله وكرمه.

أما غير المؤمنين، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا فى الإسلام، غفر - سبحانه - ما كان منهم قبل الإسلام، لأن الإسلام يجب ما قبله.

وإن ماتوا على كفرهم فلن يغفر الله - تعالى - لهم، لقوله: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء...».

قال الإمام الشوكانى: «واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم. ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى.. ثم عقب على ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة... ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: «إن الله يغفر الذنوب...» فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق إفراده، فهو فى قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآنى وهو الشرك.

ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله «جميعا» فيالها من بشارة ترتاح لها النفوس... وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: «إنه هو الغفور الرحيم...» (١).

(١) راجع تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص٤٧

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : « وفى هذه الآية من أنواع المعانى والبيان أشياء حسنة ، منها إقباله عليهم ، وندائهم ، ومنها : إضافته إليهم إضافة تشريف ومنها : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، فى قوله : « من رحمة الله » ، ومنها إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها : إعادة الظاهر بلفظه فى قوله : « إن الله يغفر ... » ومنها : إبراز الجملة من قوله : « إنه هو الغفور الرحيم » مؤكدة بإن ، والفصل ، وإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة ... » .

وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى ... »(١) .

وبعد أن فتح – سبحانه – لعباده باب رحمته فتحا واسعا كريما ... أتبع ذلك بحضهم على التوبة والإنابة إليه ، حتى يزيدهم من فضله وإحسانه فقال : « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » .

أى : قل لهم – أيها الرسول الكريم – لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، وارجعوا إليه بالتوبة والإنابة ، وأخلصوا له العبادة ، من قبل أن ينزل بكم العذاب الذى لا تستطيعون دفعه ، ثم لا تجدون من ينجيكم منه .

فأنت ترى أن الآية الأولى بعد أن فتحت للعصاة باب رحمة الله على مصراعيه ، جاءت الآية الثانية لحثهم على التوبة الصادقة النصوح ، حتى تكون رحمة الله – تعالى – بهم أكمل وأتم وأوسع ، فإن التوبة النصوح سبب فى تحويل السيئات إلى حسنات .

كما قال – تعالى – : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما »(٢) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٦٥

(٢) سورة الفرقان آية ٧٠

ثم أمرهم باتباع أوامر القرآن الكريم ونواهيه فقال: «واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ...».

أي: واتبعوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أحسن ما أنزله - سبحانه - إليكم، بسبب ما اشتمل عليه من هدايات سامية، ومن تشريعات حكيمة، ومن آداب قويمة ...

فإن اتباع ما اشتمل عليه هذا القرآن من توجيهات .. يؤدى إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وقوله: «من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون» متعلق بالأمر بالاتباع، وإرشاد إلى وجوب الامتثال بدون تأخير أو تسويف.

أي: سارعوا إلى اتباع إرشادات وتشريعات وآداب هذا القرآن، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وبدون مقدمات، بحيث لا تشعرون بإتيانه إلا عند نزوله.

فالآية الكريمة تقرير وتأكيد لما قبلها، من الدعوة إلى المسارعة بالتوبة وبالعمل الصالح.

وقوله: «أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ...» فى موضع المفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف.

أي: اتبعوا ما أمرناكم به، واحذروا ما نهيناكم عنه، كراهة أن تقول نفس يوم القيامة «يا حسرتا» أي: يا ندامتى «على ما فرطت فى جنب الله» أي: بسبب تفريطى وتقصيرى فى طاعة الله، وفى حقه - تعالى -.

وأصل الجنب والجانب: الجهة المحسوسة للشيء. وأطلق على الطاعة على سبيل المجاز، حيث شبهت بالجهة، بجامع تعلق كل منهما - أى الجانب والطاعة - بصاحبه. إذ الطاعة لها تعلق بالله - تعالى -، كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: لم نكرت نفس؟ قلت: لأن

المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يكون نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج فى الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

دعا قومه حولى فجاءوا لنصره   وناديت قوما بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بجوه   أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا ..»(١).

وجملة : « وإن كنت لمن الساخرين » فى محل نصب على الحـــال . أى : فرطت فى جنب الله وطاعته ، والحـال أنى لم أكن إلا من الساخرين بدينه ، المستهزئين بأتباع هذا الدين الحق .

قال قتادة : لم يكفه أنه ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مقالة أخرى مما تقوله تلك النفس فقال : « أو تقول لو أن هدانى » إلى طاعته واتباع دينه « لكنت من المتقين » للشرك والمعاصى ، ومن الذين صانوا أنفسهم عما يغضبه ـ سبحانه ـ ولا يرضيه .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مقالة ثالثة لها فقال : « أو تقول » هـذه النفس « حين ترى العذاب » .

فى الآخرة « لو أن لى كرة » أى : رجعة إلى الدنيا « فأكون » فيها « من المحسنين » لأقوالهم وأفعالهم ، وعقائدهم ، بحيث أخلص العبادة لله ـ تعالى ـ وأطيعه فى السر والعلن .

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس فى الآخرة ، تصويراً مؤثراً بليغاً ، يحمل كل عاقل على الإيمان والعمل الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم الهائل الشديد .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص١٣٦

وقوله - سبحانه - : « بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » رد منه - عز وجل - على هذا القائل : « لو أن الله هدانى لكنت من المتقين » ، وتكذيب له فى هذه الدعوى .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام وعلى رأسها آيات القرآن الكريم .

أى : ليس الأمر كما ذكرت أيها النادم على ما فرط منه ، من أن الله لم يهدك إلى الطريق القويم ، بل الحق أن الله - تعالى - قد أرشدك إليه عن طريق إرسال رسوله ، وإنزال كتابه ، ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت فى دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب فى الآخرة ، بسبب أعمالك القبيحة فى الدنيا .

قال الشوكانى : « وجاء - سبحانه - بخطاب المذكر فى قوله : جاءتك ، وكذبت واستكبرت وكنت ، لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب : نفس واحد . أى : إنسان واحد ... »[1] .

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن تلقين الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يرد به على المشركين ، وعن أحوال الناس عند النفخ فى الصور ... قال - تعالى - :

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٤٧٢

بمفازتهمْ ، لا يَمسُّهم السوء ولا هُم يحزنونَ (٦١) اللهُ خالقُ كلِّ شيء وهو عَلى كلِّ شيء وكيلٌ (٦٢) لهُ مقاليدُ السموات والأرض ، والذينَ كفرُوا بآياتِ الله ، أولئكَ هُم الخاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أفغيرَ اللهِ تأمرُوني أعبدُ أيُّها الجاهِلونَ (٦٤) ولقَدْ أُوحِي إليْكَ وإلى الذينَ مِنْ قبلِكَ لئِنْ أشركْتَ ليَحبطَنَّ عملُكَ ، ولتكونَنَّ مِنَ الخاسرِينَ (٦٥) بل اللهَ فاعبُدْ وَكنْ من الشاكرينَ (٦٦) وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِه والأرْضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامَةِ ، والسمواتُ مطويَّاتٌ بيمينِه ، سبحانَه وتعالى عمَّا يُشركُونَ (٦٧) ونُفِخَ في الصُّورِ فصَعِقَ من السمواتِ ومن في الأرضِ إلاَّ من شاءَ الله ، ثم نُفخَ فيهِ أُخرى فإذا هُم قيامٌ ينظرُونَ (٦٨) وأشرَقتِ الأرْضُ بنُورِ ربِّها ، وَوُضعَ الكتابُ وجيء بالنَّبيينَ والشُّهداء ، وقُضِي بينَهُم بالحقِّ ، وهُم لا يُظلَمونَ (٦٩) وَوُفِّيت كُلُّ نفسٍ ما عمِلتْ ، وهُو أعلَمُ بمَا يفعَلُونَ (٧٠) » .

فقوله - تعالى - : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . . » بيان لحالة الكافرين يوم القيامة ، ولما تكون عليه هيئتهم من خزى وهوان .

أى : وفى يوم القيامة إذا نظرت - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - إلى وجوه الذين كذبوا على الله ، بأن أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى ، أو جعلوا له صاحبة أو ولدا ... إذا نظرت إليها رأيتها مسودة مكفهرة ، بسبب ما أحاط بهم من عذاب ، وما شاهدوه من أهوال ...

وقوله : « وجوههم مسودة » جملة من مبتدأ وخبر ، وهى فى محل نصب

على الحال من الذين كذبوا . . . والاستفهام فى قوله : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » للتقرير . والمثوى : المكان والمقام .

يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله ـ تعالى ـ : « وما كنت ثاويا فى أهل مدين . . . » .

أى : أليس فى جهنم مكانا ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم بسبب تطاولهم على غيرهم ، وتكذيبهم لآيات الله ؟ بلى إن بها ما يجعلهم يذوقون العذاب الأليم .

ثم بين ـ سبحانه ـ حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد بيانه لحال الذين كذبوا على الله . فقال : « وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » .

ومفازتهم : اسم مصدر . أو مصدر ميمى . من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر به ، ونال مراده منه .

أى : وينجى الله ـ تعالى ـ بفضله ورحمته ، الذين اتقوا الشرك والمعاصى من عذاب جهنم ، « بمفازتهم » أى : بسبب فوزهم برضا الله ـ تعالى ـ ورحمته ، جزاء إيمانهم وتقواهم . وقرأ حمزة والكسائى « بمفازاتهم » بالجمع . .

ويصح أن تكون الباء فى قوله : (بمفازتهم) للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الذين اتقوا . أى ينجيهم حالة كونهم متلبسين بمفازتهم .

وقوله : « لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » يجوز أن يكون تفسيرا لذلك الفوز ، كأنه قيل : وما مظاهر فوزهم فكان الجواب : لا يمسهم السوء الذى يصيب غيرهم من الكافرين والعصاة ، ولا هم يحزنون على شىء تركوه خلفهم فى الدنيا .

ويجوز أن يكون حالا من الذين اتقوا . أى : ينجيهم بسبب مفازتهم، حال كونهم لا يمسهم السوء، أى: لا يمسهم شىء مما يكره لا فى الحال ولا فى الاستقبال، ولا هم يحزنون على ما كان منهم فى الماضى .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد كرم المتقين تكريما عظيما ، حيث نجاهم من عذاب جهنم ، وجعلهم آمنين من كل ما يغمهم فى كل زمان أو مكان .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا علم أنه لا يمسه السوء ، كان فارغ البال بحسب الحال ، عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الأوقات . . .

وقد دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب فى القيامة ، وتأكد هذا بقوله : « لا يحزنهم الفزع الأكبر . . . » (١) .

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته فقال: « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل » :

أى : الله ـ تعالى ـ هو وحده الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وهو ـ سبحانه ـ المتصرف فى كل شىء فى هذا الوجود ، بحيث لا يخرج مخلوق عن إذنه ومشيئته .

« له مقاليد السموات والأرض » أى : له وحده مفاتيح خزائنهما ، والمقاليد جمع مقلاد ، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من التقليد بمعنى الإلزام . أى: أنه لا يملك أمر السموات والأرض ، ولا يتمكن من التصرف فيهما غيره ـ تعالى ـ .

قال صاحب الكشاف : « قوله : « له مقاليد السموات والأرض » أى : هو مالك أمرهما وحافظهما .

لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها ، هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قولهم:

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٦٧

فلان ألقيت إليه مقاليد الملك، وهى المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها وقيل: جمع مقليد ... والكلمة أصلها فارسية .

فإن قلت : ما للكتاب العربى المبين وللفارسية ؟

قلت: التعريب أحالها عربية، كما أخرج الاستعمال المهمل عن كونه مهملا،(١)

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : « والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » أى : والذين كفروا بآيات الله التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيته ، أولئك هم البالغون أقصى الدرجات فى الخسران .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وينجى الله الذين اتقوا ، وما بينهما إعتراض للدلالة على هيمنة الله - تعالى - على شئون خلقه . . أى : وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم .. والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الكاملون فى الخسران .

وهذه المقابلة فيها ما فيها من تأكيد الثواب العظيم للمتقين ، والعقاب الأليم للكافرين .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ الكافرين على جهالاتهم ، فقال : « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون».

وقد ذكروا فى سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، و « غير » منصوب بقوله : « أعبد » ، وأعبد معمول لتأمرونى على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها .

والمعنى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ والتأنيب : أبعد أن شاهدتم ما شاهدتم من الآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق فيما أبلغه عنه ، أبعد كل ذلك تأمرونى أن أعبد غير الله - تعالى - أيها الجاهلون بكل ما يجب لله - تعالى - من تنزيه وتقديس .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٠

ووصفهم هنا بالجهل ، لأن هذا الوصف هو الوصف المناسب للرد على ما طلبوه منه - صلى الله عليه وسلم ، من إشراك آلهتهم فى العبادة .

ثم حذر - سبحانه - من الشرك أبلغ تحذير فقال : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ، لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

قال الجمل : وقوله : « ولقد أوحى إليك » هذه اللام دالة على قسم مقدر وقوله « لئن أشركت » .

هذه اللام - أيضا - دالة على مقدر ، وقوله : « ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » كل من هذين اللامين واقعة فى جواب القسم الثانى . والثانى وجوابه جواب الأول . وأما جواب الشرط فى قوله : « لئن أشركت . . » فمحذوف ، لدخول جواب القسم عليه ، فهو من قبيل قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم (١) .

وقوله « أوحى » مسلط على « إليك » وعلى « الذين من قبلك » فيكون المعنى : ولقد أوحى إليك - أيها الرسول الكريم - وأوحى إلى الرسل الذين من قبلك أيضا « لئن أشركت » بالله - تعالى - على سبيل الفرض « ليحبطن عملك » ، أى ليفسدن عملك فسادا تاما « ولتكونن من الخاسرين » خسارة ليس بعدها خسارة فى الدنيا والآخرة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : الموحى إليهم ، جماعة ، فكيف قال : « لئن أشركت » على التوحيد ؟

قلت : معناه : أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أوحى اليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت ليحبطن عملك . كما تقول : فلان كسانا حلة . أى : كل واحد منا .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٦٠٨ .

فإن قلت: كيف صح الكلام مع علم الله - تعالى - أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟

قلت: هو على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها..(١).

والآية الكريمة تحذر من الشرك بأسلوب فيه ما فيه من التنفير منه. ومن التقبيح له، لأنه إذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو وقع في شيء منه - على سبيل الفرض - حبط عمله، وكان من الخاسرين. فكيف بغيره من أفراد أمته؟

وقوله - تعالى -: «بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» أمر منه - تعالى - بالثبات على عبادة الله - تعالى - وحده، وبالمداومة على شكره، ونهى عن طاعة المشركين ولفظ الجلالة منصوب بقوله «فاعبد» والفاء جزئية في جواب شرط مقدر...

أى: لا تطع - أيها الرسول الكريم - المشركين فيما طلبوه منك، بل اجعل عبادتك لله - تعالى - وحده، وكن من الشاكرين له على نعمه التى لا تحصى.

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغير الله - تعالى - قد تجاوزوا حدودهم معه - عز وجل -، ولم يعطوه ما يستحقه من تنزيه وتقديس فقال: «وما قدروا الله حق قدره».

أى: أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغيره - تعالى -، ما عظموه حق تعظيمه، وما أعطوه ما يستحقه - سبحانه - من تقديس وتكريم وتنزيه وطاعة...

ثم ساق - سبحانه - مايدل على وحدانيته، وكمال قدرته فقال: «والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه...».

---

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص١٤٤.

والقبضة : المرة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض بالكف . ومطويات أي: مجموعات تحت قدرته وملكه كما يجمع الكتاب المطوى ، والجملة الكريمة حال من لفظ الجلالة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه ، حيث أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى هى من مخلوقاته ، والحال أنه - سبحانه - هو المتولى لإبقاء السموات والأرض على حالهما فى الدنيا ، وهو المتولى لتبديلهما أو إزالتهما فى الآخرة . فالأرض كلها مع عظمها وكثافتها تكون يوم القيامة فى قبضته وتحت قدرته ، كالشىء الذى يقبض عليه القابض ، والسموات كذلك مع ضخامتها واتساعها ، تكون مطويات بيمينه وتحت قدرته وتصرفه، كما يطوى الواحد منا الشىء الهين القليل بيمينه . ومادام الأمر كذلك فكيف يشركون معه غيره فى العبادة ؟

فالمقصود من الآية الكريمة بيان وحدانيته وعظمته وقدرته - سبحانه - وبيان ما عليه المشركون من جهالة وانطماس بصيرة حين أشركوا معه فى العبادة غيره .

قال صاحب الكشاف : « والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه، تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز . . . »[1] .

وقال الآلوسى : « والكلام فى هذه الآية عند كثير من الخلف ، تمثيل لحال عظمته - تعالى - ونفاذ قدرته . . . بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعا ، ويمين بها يطوى السموات . أو بحال من يكون له قبضة فيها الأرض والسموات ، ويمين بها يطوى السموات . . .

والسلف يقولون : إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى - . . . إلا أنهم لا يقولون إن القبض مجاز عن الملك أو التصرف ، ولا اليمين مجاز

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤٣ .

عن القدرة بل ينزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح ، ويؤمنون بما نسبه - تعالى - إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون فى الأخبار الواردة فى هذا المقام .

فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد ، إنا نجد الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ هذه الآية . . . (١) .

وقدم - سبحانه - الأرض على السموات لمباشرتها لهـا ، ومعرفتهم بحقيقتها .

وخص يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا - أيضا - لأن الدعاوى تنقطع فى ذلك اليوم . كما قال - تعالى - « والأمر يومئذ لله » .

روى الشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض » .

وقوله - تعالى - : « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه له - تعالى - عما افتراه المفترون .

أى : تنزه وتقدس الله - تعالى - عن شرك المشركين ، وعن ضلال الضالين .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٢٦ .

ثم بين - سبحانه - حال الناس عند النفخة الأولى والثانية فقال : «ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ....» .

والصور : إسم للقرن الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - وحقيقته لا يعلمها إلا هو - سبحانه - وقوله «فصعق» من الصعق بمعنى الموت أو بمعنى الصوت الشديد الذى يجعل الإنسان فى حالة ذهول شديد حتى لكأنه قد فارق الحياة ...

أى : ونفخ فى الصور بأمر الله - تعالى - النفخة الأولى ، فخر ميتا كل من كان حيا فى السموات أو فى الأرض .

«إلا من شاء الله» له الحياة من أهلهما قالوا : والمستثنى من الصعق جبريل وإسرافيل وميكائيل . ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى تعيين من إستثناه الله - تعالى - من ذلك ، فالأولى تفويض من إستثناه الله من الصعق إلى علمه - عز وجل - .

«ثم نفخ فيه أخرى» أى ثم نفخ فى الصور نفخة أخرى ، وهى النفخة الثانية التى يكون بعدها البعث والنشور .

«فإذا هم قيام ينظرون» أى: فإذا بهؤلاء الذين صعقوا بعد النفخة الأولى قيام من قبورهم ، ينظرون حولهم بدهشة وحيرة ماذا سيفعل بهم أو ينتظرون على أى حال سيكون مصيرهم .

فالآية الكريمة تفيد أن النفخ فى الصور يكون مرتين : المرة الأولى يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء ، والنفخة الثانية يكون بعدها البعث والنشور وإعادة الحياة إليهم مرة أخرى .

والمراد بالأرض فى قوله - تعالى - بعد ذلك : «وأشرقت الأرض بنور ربها ..» أرض المحشر .

وأصل الإشراق : الإضاءة . يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت : إذا طلعت .

قال ابن كثير : «وقوله : « وأشرقت الأرض بنور ربها » أى : أضاءت - الأرض - يوم القيامة ، إذا تجلى الحق - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء »[1] .

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - « ووضع الكتاب » صحائف الأعمال التى تكون فى أيدى أصحابها .

فالمراد بالكتاب جنسه أى : أعطى كل واحد كتابه إما بيمينه وإما بشماله . وقيل المراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ الذى فيه أعمال الخلق .

« وجىء بالنبيين والشهداء » أى : وبعد أن أعطى كل إنسان صحائف أعماله ، جىء بالنبيين لكى يشهدوا على أممهم أنهم بلغوهم ما كلفهم الله بتبليغه إليهم ، وجىء بالشهداء وهم الملائكة الذين يسجلون على الناس أعمالهم من خير وشر ، كما قال - تعالى - « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » . وقيل المراد بهم : من استشهدوا فى سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدالته فى جمل حكيمة فقال : « وقضى بينهم بالحق » أى : وقضى - سبحانه - بين الجميع بقضائه العادل « وهم لا يظلمون » أى : نوع من الظلم .

« ووفيت كل نفس ما عملت » من خير أو شر « وهو أعلم بما يفعلون » أى : وهو - سبحانه - عليم بما يفعلونه من طاعة أو معصية ، لا يخفى عليه شىء من أحوال خلقه ، بل هو - تعالى - يعلم السر وأخفى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان مصير الكافرين ، وبيان مصير المتقين، وببيان ما يقوله المتقون عندما يرون النعيم المقيم الذى أعده - سبحانه - لهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٠٨ .

« وسيقَ الذينَ كفَرُوا إلى جَهنَّمَ زمراً، حتَّى إذا جاءُوهاَ فُتِحتْ أبوَابُهاَ وقالَ لهُم خزَنتُها ألم يأتِكم رُسلٌ منكُم يتلُونَ عليكُم آياتِ ربكم ويُنذرُونَكُم لِقاءَ يومِكُم هذا، قالُوا بلَى ولكِنْ حقَّتْ كلمةُ العذابِ علَى الكافرِينَ (٧١) قيلَ ادخلُوا أبوابَ جهنَّم خالدِينَ فيها فبئسَ مثوَى المتكبِّرينَ (٧٢) وسيقَ الذينَ اتقوا ربَّهم إلى الجنَّةِ زُمَراً حتَّى إذا جاءُوهاَ وفُتِحَت أبوابُها وقالَ لهُم خزَنتَها سلامٌ عليكُم طِبْتُم فادْخُلوهاَ خالدِينَ (٧٣) وقالُوا الحمدُ لله الذى صدَقناَ وعْدَه، وأوْرَثَناَ الأرْضَ نتبوَّأُ من الجنةِ حيثُ نشاءُ فنِعْمَ أجرُ العاَمِلِينَ (٧٤) وترَى الملائكةَ حافِّينَ مِنْ حوْلِ العَرشِ يُسبِّحُونَ بحَمدِ ربِّهم وقُضِيَ بينَهم بالحقِّ، وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العاَلَمِينَ (٧٥) ».

وقوله ـ تعالى ـ « وسيق ... » من السوق بمعنى الدفع، والمراد به هنا الدفع بعنف مع الإهانة و « زمرا » أى: جماعات متفرقة بعضها فى إثر بعض. جمع زمرة وهى الجماعة القليلة، أى: وسيق الذين كفروا إلى نار جهنم جماعات جماعات، وأفواجا أفواجا ...

« حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » لتستقبلهم بحرها وسعيرها، وكأنها قبل مجيئهم إليها كانت مغلقة كما تغلق أبواب السجون، فلا تفتح إلا لمن هم أهل لها بسبب جرائمهم.

« وقال لهم خزنتها » على سبيل الزجر والتأنيب « ألم يأتكم رسل منكم » أى: من جنسكم تفهمون عنهم ما يقولونه لكم.

وهؤلاء الرسل «يتلون عليكم آيات ربكم» المنزلة لمنفعتكم « وينذرونكم لقاء يومكم هذا » أى: ويخوفونكم من أهوال يومكم هذا وهو يوم القيامة.

« قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » أى : قالوا فى جوابهم على سائليهم : بلى قد أتانا الرسل وبلغونا رسالة الله ، ولكننا لم نطعهم، لحقت كلمة العذاب علينا ، ووجبت علينا كلمة الله التى قال فيها : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وهنا رد عليهم السائلون بقولهم: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، خلودا أبديا . فبئس مثوى المتكبرين، أى: فبئس المكان المعد للمتكبرين جهنم .

وبعد هذا البيان المرعب لمصير الكافرين ، جاء البيان الذى يشرح الصدور بالنسبة لحال المتقين فقال - تعالى - : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » أى : جماعات . .

قال الآلوسى : أى : جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الفضل .

وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتى على صورة القمر ليلة البدر . . » .

والمراد بالسوق هنا : الحث على المسير الإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة ، وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، واختير المشاكلة . . . » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم مقيم فقال : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

والواو فى قوله « وفتحت » للحال ، والجملة حالية بتقدير قد ، وجواب « إذا » مقدر بعد قوله « خالدين » .

أى : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم، وقال لهم خزنتها بفرح وحبور : سلام عليكم من جميع المكاره ، طبتم من دنس

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص ٣٣

المعاصى « فادخلوها خالدين » أى : حتى إذا جاءوها وقالوا لهم ذلك سعدوا وابتهجوا .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : « وحتى هنا هى التى تحكى بعدها الجمل . والجملة المحكية بعدها هى الشرطية ، إلا أن جزاءها محذوف لأنه صفته ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شىء لايحيط به الوصف ، وحق موقعه ما بعد « خالدين » .

وقيـــل : حتى إذا جاءوها ، جاءوها وفتحت أبوابها . أى : مع فتح أبوابها . . . »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يقوله المتقون عند دخولهم الجنة على سبيل الشكر لله ـ تعالى ـ فقال : « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده » بأن بعثنا من مرقدنا، ومنحنا المزيد من عطائه ونعمه « وأورثنا الأرض » أى : أرض الجنة التى استقروا فيها .

« نتبوأ من الجنة حيث نشاء » أى: ينزل كل واحد منا من جنته الواسعة حيث يريد ، دون أن يزاحمه فيها مزاحم ، أو ينازعه منازع . . .

« فنعم أجر العاملين » الجنة التى منحها ـ سبحانه ـ لعباده المتقين.

« وترى الملائكة حافين من حول العرش . . » أى :محدقين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه . جمع حاف وهو المحدق بالشىء . يقال : حففت بالشىء إذا أحطت به ، مأخوذ من الحفاف وهو الجانب للشىء .

« يسبحون بحمد ربهم » أى : يحمدون ربهم بكل خير ، وينزهونه عن كل سوء .

«وقضى بينهم بالحق » أى :وقضى ـ سبحانه ـ بين العباد بالحق الذى لا يحوم حوله باطل . « وقيل الحمد لله رب العالمين » على قضائه بالحق ، وعلى مجازاته الذين أساؤا بما عملوا ، ومجازاته الذين أحسنوا بالحسنى .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٤٧ .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « الزمر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - صباح الثلاثاء ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠ ﻫ

الموافق ١٢/٩/١٩٨٠ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الزمر»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	٢٤٥
١	تنزيل الكتاب من الله ...	٢٥٠
٥	خلق السموات والأرض بالحق ...	٢٥٥
٨	وإذا مس الإنسان ضر ...	٢٦١
١٠	قل يا عباد الذين آمنوا ...	٢٦٥
١٧	والذين اجتنبوا الطاغوت ...	٢٧١
٢١	ألم تر أن الله أنزل من السماء ...	٢٧٥
٢٣	الله نزل أحسن الحديث ...	٢٧٩
٢٧	ولقد ضربنا للناس ...	٢٨٤
٣٢	فمن أظلم ممن كذب على الله ...	٢٨٩
٣٨	ولئن سألتهم من خلق ...	٢٩٣
٤٥	وإذا ذكر الله وحده ...	٢٩٩
٥٣	قل يا عبادى الذين أسرفوا ...	٣٠٨
٦٠	ويوم القيامة ترى ...	٣١٤
٧١	وسيق الذين كفروا ...	٣٢٥

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة غافر

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الرابع والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتمهيد

١ ـ سورة «غافر» هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف، أما ترتيبها في النزول، فهي السورة التاسعة والخمسون من السور المكية، وكان نزولها بعد سورة «الزمر».

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الحواميم، كان نزولها على حسب ترتيبها في المصحف، فقد ذكر صاحب الإتقان عند حديثه عن المكي والمدني من القرآن، وعن ترتيب السور على حسب النزول . . .

ذكر سورة الزمر، ثم غافر، ثم فصلت، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف [١].

٢ ـ والمحققون من العلماء على أن سورة «غافر» من السور المكية الخالصة، وقد حكى أبو حيان الإجماع على ذلك، كما أن الإمام ابن كثير قال عنها بأنها مكية دون أن يستثنى منها شيئا.

وقيل: كلها مكية إلا قوله ـ تعالى ـ: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ... الآية».

ولكن هذا القيل وغيره لم تنهض له حجة يعتمد عليها، فالرأى الصحيح أنها جميعها مكية.

٣ ـ وهذه السورة تسمى ـ أيضا ـ بسورة «المؤمن»، لاشتمالها على قصة

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ١ ص ٢٧

مؤمن آل فرعون . كما تسمى بسورة «الطول» لقوله - تعالى - فى أوائلها : «غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ....» .

وعدد آياتها خمس وثمانون آية فى المصحف الكوفى والشامى ، وأربع وثمانون فى الحجازى ، واثنتان وثمانون فى البصرى . . .

٤ - وسورة «غافر» هى أول السور السبعة التى تبدأ بقوله - تعالى - : «حم» ، والتى يطلق عليها لفظ «الحواميم» .

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار فى فضل هذه السور ، منها : ماروى عن ابن مسعود أنه قال : «آل حم ، ديباج القرآن» . ومنها ماروى عن ابن عباس أنه قال : «إن لكل شىء لبابا ، ولباب القرآن «آل حم» أو قال «الحواميم»(١) .

٥ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، وبتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من أذى المشركين ومن جدالهم ، وببيان وظيفة الملائكة الذين يحملون عرشه - تعالى - ، وأن منها الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : «ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم» .

٦ - ثم دعا - سبحانه - عباده إلى إخلاص الطاعة له وذكرهم بأهوال يوم القيامة ، وأن الملك فى هذا اليوم إنما هو الله - تعالى - وحده .

قال - تعالى - : «فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١١٦

٧ - وبعد أن وبخ - سبحانه - الغافلين على عدم إعتبارهم بسوء عاقبة من سبقهم من الكافرين ، أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون ، وحكى ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة من محاورات . .

كما حكى ما وجهه الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه من نصائح حكيمة ، منها قوله - كما حكى القرآن عنه - ، وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

٨ - وبعد أن ساق - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة التى وجهها ذلك الرجل المؤمن الذى يكتم إيمانه إلى قومه . أتبع ذلك بحكاية جانب من المحاورات التى تدور بين الضعفاء والمتكبرين بعد أن ألقى بهم جميعا فى النار .

كما حكى - سبحانه - ما يقولونه لخزنة جهنم على سبيل الاستعطاف والتذلل فقال : وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، .

٩ — ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده، لكى يشكروه عليها ، ومن تلك النعم : إيجاده لليل والنهار ، وجعله الأرض قراراً والسماء بناء ، وتصويره للناس فى أحسن تقويم ، وتحليله لهم الطيبات ، وخلقه لهم فى أطوار متعددة .

قال - تعالى - : ، هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة، ثم من علقة،

ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون » .

١٠ - ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الذين يجادلون فى آيات الله بغير علم ، فوبختهم على جهالاتهم وعنادهم، وهددتهم بسوء المصير، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر على أذاهم، وذكرته بأحوال الرسل السابقين مع أقوامهم ، وأنذرت مشركى مكة بأن مصيرهم سيكون كمصير المشركين من قبلهم ، إذ ما إستمروا فى طغيانهم وكفرهم ، وأنهم لن ينفعهم الإيمان عند حلول العذاب بهم .

قال - تعالى - : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » .

١١ - هذا ، والمتدبر فى سورة « غافر » بعد هذا العرض المجمل لآياتها يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته كما يراها قد ساقت ألوانا من التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه من قومه ، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما فى قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

كما يراها قد فصلت الحديث عن تكريم الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، تارة عن طريق إستغفار الملائكة لهم ، وتضرعهم إلى خالقهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم .

قال - تعالى - : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . . . » .

وتارة عن طريق وعدم بإجابة دعائهم، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

كما نراها قد اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين ، بأسلوب يغرس الخوف فى القلوب ، ويبعث على التأمل والتدبر .

كما فى قوله ـ تعالى ـ : « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب » .

وكما فى قوله – تعالى ـ : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق .

كما نراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وفى تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر ، وفى تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم ، نراه متمثلا فى تلك النصائح الغالية التى وجهها مؤمن من آل فرعون إلى قومه ، والتى حكاها القرآن فى قوله « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدى من هو مسرف كذب. ... »

نسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بتوجيهات القرآن الكريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم   د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

مساء الجمعة : ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ   ١٩٨٥/٩/١٣ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « حم (١) تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ العليمِ (٢) غافرِ الذنبِ، وقابلِ التوبِ، شديدُ العقابِ، ذِى الطَّول لا إلهَ إلا هو، إليه المصيرُ (٣) ما يجادلُ فى آياتِ اللهِ إلاّ الذينَ كفرُوا، فلا يغررْكَ تقلبُهم فى البلادِ (٤) كذّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدهِمْ، وهمّتْ كلُّ أمّةٍ برسُولهم ليأخُذُوه، وجادلُوا بالباطلِ ليُدْحِضوا به الحقّ، فأخذْتهم، فكيفَ كانَ عقابِ (٥) وكذلكَ حقّتْ كلمةُ ربِّكَ علَى الذينَ كفرُوا أنّهم أصحابُ النارِ (٦) ».

سورة « غافر » من السور التى افتتحت ببعض الحروف المقطعة، وهو قوله - تعالى - : « حم ».

وقد ذكرنا آراء العلماء فى تلك الحروف المقطعة بشىء من التفصيل، عند تفسيرنا لسور : البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس . . . .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب، أن هذه الحروف المقطعة، قد جىء بها فى افتتاح بعض السور، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأنه - سبحانه - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن تروته مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون

منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك فى أنه من عند الله ـ تعالى ـ فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ،فعجزوا وانقلبوا خاسرين، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيراً .

وقوله ـ تعالى ـ : « تنزيل الكتاب من الله » جملة من مبتدأ وخبره أى : هذا الكتاب منزل عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من الله ـ تعالى ـ وحده ، وليس من عند احد غيره .

ثم وصف ـ سبحانه ـ ذاته بثمانى صفات تليق بذاته فقال : « العزيز»أى: الغالب لكل من سواه من العز بمعنى القوة والغلبة . يقال : عز فلان يعز ـ من باب تعب ـ فهو عزيز ، إذا كان معروفا بالقوة والمنعة ، ومنه قولهم: أرض عزاز إذا كانت صلبة قوية .

« العليم » أى : المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شىء منها .

« غافر الذنب» أى:ساتر لذنوب عباده،ومزيل لآثارها عنهم بفضله ورحمته .

فلفظ « غافر » من الغفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال : غفر الله ـ تعالى ـ ذنب فلان غفرا ومغفرة وغفرانا ، إذا غطاه وستره وعفا عنه .

ولفظ الذنب : يطلق على كل قول أو فعل تسوء عاقبته، مأخوذ من ذنب الشىء ، أى : نهايته . « وقابل التوب » والتوب مصدر بمعنى الرجوع عن الذنب والتوبة منه . يقال : تاب فلان عن الذنب توبة وتوبا إذا رجع عنه .

أى : أنه ـ سبحانه ـ يغفر ذنوب عباده، ويقبل توبتهم، فضلا منه وكرما.

قال صاحب الكشاف : « ما بال الواو فى قوله « وقابل التوب » ؟

قلت : فيها نكتة جليلة ، وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأنه لم يذنب . كأنه قال : جامع المغفرة والقبول ....»[1] .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص١٤٩

« شديد العقاب » أي: لمن أشرك به، وأعرض عن الحق الذي جاءه به الرسول - صلى الله عليه وسلم - « ذى الطول » ، أي : ذى الفضل والثواب والإنعام على من يشاء من عباده . .

والطول : السعة والغنى والزيادة ، يقال : لفلان على فلان طول ، أى زيادة وفضل ، ومنه الطول فى الجسم لأنه زيادة فيه . قال - تعالى - : « ومن لم يستطع منكم طولا . . . » أى : غنى وسعة .

« لا إله إلا هو » أى : لا إله بحق وصدق إلا هو - سبحانه -

« إليه المصير » أى : إليه المرجع والمآب يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا .

قال القرطبي : روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له : تتابع فى هذا الشراب . فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . إلى قوله - تعالى - : « إليه المصير » . ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا . ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرؤه ويقول: قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته .

فلما بلغ عمر ذلك قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلته فسددوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٩١ .

ثم هون - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من شأن الكافرين ، وأخبره بأنهم أتفه من أن يغتر بهم فقال : « ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم فى البلاد » .

والمراد بالجدال هنا : الجدال بالباطل ، وأما الجدال من أجل الوصول إلى الحق فمحمود .

وقوله : « فلا يغررك .. » جواب لشرط محذوف . والتقلب : التنقل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب .

أى : ما يجادل فى آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التكذيب بها والطعن فيها . . .

إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا يغررك - أيها الرسول الكريم - تقلبهم فى البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق التجارات الرابحة ، وجمع الأموال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال إنما هو لون من الاستدراج ، وعما قريب ستزول هذه الأموال من بين أيديهم ، وستكون عليهم حسرة . . .

« كذبت قبلهم » أى : قبل هؤلاء الكافرين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق « قوم نوح » الذين أغرقناهم بسبب هذا التكذيب لنبيهم .

« والأحزاب من بعدهم » أى : وكذلك الأقوام الآخرون الذين جاءوا من بعد قوم نوح ، قد تحزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا على تكذيبهم ، كما فعل قوم عاد مع نبيهم هود ، ولما فعل قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وكما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب . . .

فالضمير فى قوله - تعالى - « من بعدهم » يعود إلى قوم نوح ، وأفردهم - سبحانه - بالذكر لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا عتوا ونفورا .

وقوله ـ تعالى ـ : « وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . » بيان لما فعله هؤلاء الأقوام الظالمون مع أنبيائهم الذين جاءوا لهدايتهم .

أى : أن هؤلاء الأقوام المجرمين، لم يكتفوا بالتكذيب لأنبيائهم « بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه بالأسر أو بالقتل ، وجادلته بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذى جاء به من عند ربه وتبطله .

والتعبير بقوله : « ليأخذوه » يشعر بأن هؤلاء المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إيذاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء .

وقوله ـ تعالى ـ : « فأخذتهم فكيف كان عقاب » بيان لما آل إليه مكرهم وجدالهم بالباطل .

أى : هموا بما هموا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وحاولوا أن يجعلوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم . . فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميرا ، فكيف كان عقابى لهم ؟ لقد كان عقابا مدمرا، جعلهم أثرا بعد عين ، وترك آثار مساكنهم تشهد بهلاكهم واستئصالهم . . .

ثم بين ـ سبحانه ـ سنة من سننه التى لا تختلف فقال : « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » .

أى : وكما حقت كلمة ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التى كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقوداً للنار . فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك، إذا ما استمروا فى تكذيبهم لك، ولم يعودوا إلى طريق الحق .

فالآيات الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحذير لمشركي قريش من الاستمرار في غيهم .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر رحمته بالمؤمنين ، وتكريمهم ، فذكر أن حملة عرشه من وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالخير فقال - تعالى - :

« الذينَ يَحمِلُونَ العرشَ ومَنْ حولَهُ يُسَبحونَ بِحَمدِ ربِّهِم ، ويؤمِنونَ به ، ويستغفِرُونَ للذينَ آمنُوا ، ربَّنا وسِعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً ، فاغفِرْ للذينَ تابُوا واتَّبعوا سَبيلَكَ ، وقِهِم عذابَ الجَحيمِ (٧) ربَّنا وأدخِلْهِمْ جناتِ عَدْنٍ التي وعدتَهُم ، ومَنْ صلَحَ من آبائِهِمْ وأزْوَاجِهِم وذرِّيَّاتِهِم إنكَ أنتَ العَزِيزُ الحكيمُ (٨) وقِهِم السيئاتِ ومَنْ تَقِ السيئاتِ يومَئذٍ فقدْ رحِمْتَهُ ، وذلكَ هو الفَوْزُ العظيمُ (٩) » .

والمراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله -تعالى- ولا يعلم عددهم أحد سوى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح في تحديد عددهم .

والمراد بمن حوله :عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مهللين مسبحين مكبرين لله-تعالى - كما قال -تعالى- : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم . . » .

وعرش الله - تعالى - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم، فعلينا أن نؤمن بأن لله - تعالى - عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - .

وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في إحدى عشر آية .

والاسم الموصول في قوله - تعالى - : « يحملون العرش » مبتدأ . وخبره قوله : « يسبحون ... » .

والجملة الكريمة مستأنفة ومسوقة لتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم أقرب الملائكة إلى الله - تعالى - يضمون إلى تسبيحهم لذاته - سبحانه - ، الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين كلاما طويلا في صفة هؤلاء الملائكة وفي صفة العرش . رأينا أن نضرب عنه صفحا لضعفه وقلة فائدته .

أي : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لعرشنا ، والحافون به من صفاتهم أنهم « يسبحون بحمد ربهم » أي : ينزهون الله - تعالى - عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به .

« ويؤمنون به » - تعالى - إيمانا تاما لا يشوبه ما يتنافى مع هذا الإيمان والإذعان لله الواحد القهار .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : ما فائدة قوله - تعالى - : « ويؤمنون به » ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون ؟

قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله - تعالى - : « ثم كان من الذين آمنوا » فأبان بذلك فضل الإيمان »(١) .

ويستغفرون للذين آمنوا ، أي : أنهم بجانب تسبيحهم وحمدهم لربهم ، وإيمانهم به ، يتضرعون إليه - سبحانه - أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم .

وفي هذا الاستغفار - منهم للمؤمنين ، إشعار بمحبتهم لهم ، وعنايتهم بشأنهم ، لأنهم مثلهم في الإيمان بوحدانية الله - تعالى - وفي وجوب إخلاص العبادة والطاعة له .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٥٢

ثم حكى - سبحانه - كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » .

والجملة الكريمة على تقدير قول محذوف ، وهذا القول فى محل نصب على الحال من فاعل « يستغفرون » . وقوله « رحمة وعلما » منصوبان على التمييز .

أى : أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : يا ربنا يامن وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، تقبل دعاءنا . . :

« فاغفر » بمقتضى سعة رحمتك وعلمك « للذين تابوا » إليك توبة صادقة نصوحا ، وأتبعوا سبيلك ، الحق ، وصراطك المستقيم .

« وقهم عذاب الجحيم » أى : وصنهم ياربنا واحفظهم من الوقوع فى جهنم لأن عذابها كرب عظيم .

يا « ربنا وأدخلهم جنات عدن » أى : وأدخلهم جناتك دخولا دائما لا انقطاع معه . يقال : عدن فلان بالمكان يعدن عدنا ، إذ لزمه وأقام فيه دون أن يبرحه ، ومنه سمى الشيء المخزون فى باطن الأرض بالمعدن ، لأنه مستقر بداخلها .

« التى وعدتهم » فضلا منك وكرما .

وأدخل معهم « من صلح » لدخولها بسبب إيمانهم وعملهم الطيب « من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت » يامولانا « العزيز » أى : الغالب لكل شيء « الحكيم » فى كل تصرفاتك وأفعالك .

فالمراد بالصلاح فى قوله - تعالى - : « ومن صلح من آبائهم » : من كان منهم مؤمنا بالله ، وعمل عملا صالحا . ودعوا لهم بذلك ، ليتم سرورهم وفرحهم إذ وجود الآباء والأزواج والذرية مع الإنسان فى الجنة ، يزيد سروره وانشراحه .

« وقهم » يا ربنا « السيئات » أي : احفظهم يا ربنا من ارتكاب الأعمال السيئات ، ومن العقوبات التي تترتب على ذلك ، بأن تتجاوز عن خطاياهم .

« ومن تق السيئات يومئذ » أي : في يوم القيامة الذي تجازى فيه كل نفس بما كسبت « فقد رحمته » أي : فقد رحمته برحمتك الواسعة من كل سوء .

« وذلك » الذي تقدم من رحمتهم ومن إدخالهم الجنة، ومن وقايتهم السوء « هو الفوز العظيم » الذي لا يضارعه فوز ، والظفر الكبير الذي لا يقاربه ظفر ، والأمل الذي لا مطمع وراءه لطامع .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد أخبرتنا أن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

وكعادة القرآن الكريم في قرن الترغاب أو العكس: جاء الحديث بعد ذلك عن الكافرين ، مبينا انقطاعهم عن كل من يشفع لهم ، أو يدعو لهم بخير ـ كما دعا الملائكة للمؤمنين . . فقال ـ تعالى ـ :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) » .

والمقت : أشد أنواع البغض والغضب ، يقال : مقته مقتا ، إذا غضب عليه غضبا شديدا ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « ولا تقربوا الزنا إن كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

والمنادى لهؤلاء الكافرين : هم الملائكة خزنة النار، أو المؤمنون . وهذا النداء إنما يكون يوم القيامة ، يوم توفى كل نفس ما كسبت .

أى: إن الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار، وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشد ألوان الندامة والحسرة والمقت، لإيثارها الكفر على الإيمان.

بعد كل ذلك، ينادون، بأن يقال لهم: إن مقت الله - تعالى - لكم بسبب إصراركم على الكفر حتى هلكتم... أشد وأعظم من مقتكم لأنفسكم مهما بلغ مقتكم لها وكراهيتكم لها.

قال الآلوسى ما ملخصه: «قوله «ينادون» المنادى لهم الخزنة أو المؤمنون يقولون إعظاما لحسرتهم: «لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم» وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول، كأنه قيل: ينادون عقولا لهم: لمقت... ومقت، مصدرها إلى الإسم الجليل، إضافة المصدر لفاعله، وكذا إضافة المقت الثانى إلى ضمير الخطاب...»[1].

وقوله - سبحانه -: «إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون» تعليل لمقت الله أى: لغضب الله - تعالى - عليكم، أشد من غضبكم على أنفسكم الأمارة بالسوء وذلك لأنكم جاءتكم دعوة الحق على ألسنة رسلكم، فأعرضتم عنها، وصممتم على الكفر والفسوق والعصيان، حتى أدرككم الموت، وها أنتم اليوم تجزون ما كنتم تعملونه فى الدنيا.

ثم يحكى - سبحانه - ما يقوله الكافرون بعد أن أنزل بهم - سبحانه - عقابه العادل فيقول: «قالوا ربنا أمتنا إثنتين وأحييتنا إثنتين...».

وأرادوا بالموتة الأولى: خلقهم من مادة لا روح فيها وهم فى بطون أمهاتهم، وأرادوا بالثانية: قبض أرواحهم عند إنقضاء آجالهم.

وأرادوا بالحياة الأولى: نفخ أرواحهم فى أجسادهم وهى فى الأرحام، وأرادوا بالثانية إعادتهم إلى الحياة يوم البعث، للحساب والجزاء.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم...»[2].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٥٠

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨

«فاعترفنا بذنوبنا» أى : أنت يا ربنا الذى - بقدرتك وحدها - أمتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وها نحن قد اعترفنا بذنوبنا التى وقعت منا فى الدنيا ، وندمنا على ما كان منا أشد الندم ...

«فهل إلى خروج من سبيل» أى : فهل بعد هذا الاعتراف، فى الإمكان أن تخرجنا من النار ، وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا، لنؤمن بك حق الإيمان، ونعمل غير الذى كنا نعمل ..

فأنت ترى أن الآية تصور ذلهم وحسرتهم أكمل تصوير، وأنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ولكن هذا التمنى والتلهف جاء بعد فوات الأوان .

قال ابن كثير ما ملخصه : «هذه الآية كقوله - تعالى -: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ...» وهذا هو الصواب الذى لاشك فيه ولا مرية .

وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة .

وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم فى الأرحام ، ثم أماتهم يوم القيامة .

وهذا القولان ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات.

والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله ، كما قال - تعالى - «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ...»(١) .

ثم بين - سبحانه - أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٢٢

سببه إعراضهم عن دعوة الحق فى الدنيا ، فقال : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » .

أى : ذلكم الذى نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم فى الدنيا إذا عبد الله - تعالى - وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به - عز وجل - ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، ومادام هذا حالكم فى الدنيا ، فاخسأوا فى النار ولا تؤملوا فى الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو - سبحانه - الذى حكم عليكم بما حكم . . .

وهو - سبحانه - « العلى » أى : المتعالى عن أن يكون له مماثل فى ذاته أو صفاته « الكبير » أى : العظيم الذى هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد .

جمع - سبحانه - لذاته بين هذين الوصفين ، للدلالة على كبريائه وعظمته .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى فى هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار . فقال - تعالى - :

« هُوَ الذى يريكم آياتِهِ وينزِّلُ لكم من السماء رزقاً وما يتذكَّر إلا مَنْ ينيبُ (١٣) فادعُوا اللهَ مُخلصينَ له الدينَ ولو كرِهَ الكافرُون (١٤) رفيعُ الدَّرجاتِ ذُو العرشِ يلقِى الروحَ من أمرِهِ عَلَى مَن يشاءُ من عبادِهِ ليُنذرَ يومَ التَّلاقِ (١٥) يومَ هم بارزُونَ لا يخفَى

عَلَى اللهِ مِنهم شيءٌ ، لِمَنْ المُلْكُ اليومَ ، للهِ الواحِدِ القهّارِ (١٦) اليومَ تجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ لاظلمَ اليومَ ، إنّ اللهَ سريعُ الحسابِ (١٧) وأنذِرْهُم يومَ الآزفةِ إذِ القلوبُ لدَى الحناجرِ كاظِمينَ ، ما للظّالمينَ من حميمٍ ولاشَفِيعٍ يطاعُ (١٨) يعلَمُ خائنةَ الأعينِ وماتخفِى الصُّدورُ (١٩) واللهُ يقضِى بالحقِّ ، والذينَ يَدْعُون من دُونِه لا يقضُونَ بشَيءٍ ، إنّ اللهَ هُو السميعُ البصيرُ (٢٠) أوَلم يَسِيروا فى الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقِبةُ الذينَ كانُوا مِنْ قَبلِهِم ، هُمْ أشدَّ مِنهم قوةً وآثاراً فى الأرضِ فأخذَهُمُ اللهُ بذُنوبِهم وما كانَ لهُم من اللهِ من واقٍ (٢١) ذلِكَ بأنَّهم كانَتْ تأتيِهِمْ رسُلُهم بالبيِّنَاتِ فكفَرُوا ، فأخذَهم اللهُ ، إنّهُ قوىٌّ شديدُ العقابِ (٢٢) » .

والمقصود بآياته - عز وجل - فى قوله : « هو الذى يريكم آياته ... » الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته، كخلقه للشمس والقمر ، والليل والنهار، والبحار والأنهار ، والسماء والأرض ، والمطر والرعد ، والنجوم والرياح ، والأشجار الكبيرة والصغيرة . . إلى غير ذلك من آياته التى لاتحصى فى هذا الوجود ...

أى : هو - سبحانه - الذى يريكم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، لتزدادوا - أيها المؤمنون - إيمانا على إيمانكم ، وثباتا على ثباتكم ، ويقينا على يقينكم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد القهار .

وقد ساق - سبحانه - فى كتابه عشرات الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

«إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب»(١).

وقوله - عز وجل : «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ...»(٢).

وقوله - تعالى -: «إن في اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض، لآيات لقوم يتقون»(٣).

والمراد بالرزق في قوله: «وينزل من السماء رزقا»: الأمطار التي تنزل من السماء على الأرض، فتحييها بعد موتها، بأن تحولها من أرض جدباء يابسة، إلى أرض خضراء بشتى الزروع والثمار.

وأطلق - سبحانه - على المطر رزقا، لأنه سبب فيه، وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات التي يريها - تعالى - لعباده، لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته، وجلائل نعمه، الموجبة لشكره - عز وجل -، ولوجوب إخلاص العبادة له.

وقوله - تعالى -: «وما يتذكر إلا من ينيب» بيان لمن هو أهل الانتفاع بهذه الآيات.

أي: وما يتذكر وينتفع بهذه الآيات إلا من يرجع عن المعصية إلى الطاعة، وعن الكفر إلى الإيمان، وعن العناد والجحود، إلى التفكر والتدبر بقلب سليم.

فقوله «ينيب» من الإنابة، ومعناها الرجوع عن الكفر والمعاصي، إلى الإيمان والطاعة.

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠

(٢) سورة الروم الآية ٢٣

(٣) سورة يونس الآية ٦

والفاء فى قوله - تعالى - : « فادعوا الله مخلصين له الدين ... » للإفصاح عن شرط مقدر. أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن كل شىء فى هذا الوجود يدل على وحدانية الله - تعالى - فأخلصوا له العبادة والطاعة ، ولو كره المشركون، منكم ذلك - أيها المؤمنون - فلا تلتفتوا إلى كراهيتهم، وامضوا فى طريق الحق ، ودعوهم يموتوا بغيظهم . .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء .

ومن الأحاديث التى أوردها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، ما رواه الإمام مسلم وأبو داود ، والنسائى ، وأحمد ، عن أبى الزبير محمد بن مسلم المكى قال : كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، قال: « وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يهلل بهن دبر كل صلاة »(١) .

ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك من صفاته العظمى ، ما يزيد المؤمنين فى إخلاص العبادة له، فيقول: « رفيع الدرجات ذو العرش ... » أى: هو - تعالى - وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو وحده صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا هو . . .

قال الآلوسى : وقوله : « رفيع الدرجات » رفيع صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها من رفع الشىء إذا علا . . . والدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش ، أى : رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه . . . ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه - عز شأنه - كما أن قوله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٢٤

ـ تعالى ـ « ذو العرش » كناية عن ملكه ـ جل جلاله ـ .. »(١) .

والمراد بالروح فى قوله ـ تعالى ـ : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » : الوحى الذى يوحى به على أنبيائه ، وأمين هذا الوحى جبريل ـ عليه السلام ـ .

أى : هو وحده ـ سبحانه ـ الذى يلقى الوحى حالة كون هذا الوحى ناشئا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من عباده الصالحين . فقوله : « من أمره » متعلق بمحذوف حال من الروح .

وسمى الوحى روحا، لأن الأرواح تحيا به، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء .

وقوله ـ تعالى ـ : « لينذر يوم التلاق » بيان للوظيفة الخاصة بمن يختاره ـ سبحانه ـ من عباده ـ لإلقاء الوحى عليه .

والإنذار : الإعلام المقترن بالتخويف والتحذير ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

والمراد بيوم التلاق : يوم القيامة ، وسمى بيوم التلاق ، لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون ، والظالمون والمظلومون . . . الكل يتلاقى فى ساحة المحشر ليقضى الله ـ تعالى ـ فيهم بقضائه العادل .

أى : يلقى ـ سبحانه ـ بوحيه على أنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة ، إذا ما استمروا فى كفرهم وعصيانهم لخالقهم .

ثم صور ـ سبحانه ـ أحوال الناس فى هذا اليوم العصيب ، فقال : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء . . . » .

وهذه الجملة الكريمة بدل من قوله « يوم التلاق » ، أى : يلقى ـ سبحانه ـ على من يشاء من عباده ، لكى ينذر الناس من أهوال ذلك اليوم الذى تلتقى فيه الخلائق ، والذى يظهرون فيه ظهورا تاما ، دون أن يخفى منهم شىء على الله ـ تعالى ـ .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٥٥ .

والله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أمرهم لا في هذا اليوم ولا في غيره، ولكنه - سبحانه - ذكر بروزهم وعدم خفائهم عليه في هذا اليوم، لأنهم - لجهلهم - كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم يستطيعون التستر عنه، كما أشار - سبحانه - إلى ذلك في قوله - تعالى - «ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون، إنه عليم بذات الصدور.

ورحم الله صاحب الكشاف، فقد قال: «قوله: «يوم هم بارزون» أي: ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء، لأن الأرض بارزة قاع صفصف، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عراة حفاة غرلا»، «لا يخفى على الله منهم شيء» أي: من أعمالهم وأحوالهم . . .

فإن قلت: قوله: «لا يخفى على الله منهم شيء» بيان وتقرير لبروزهم، والله - تعالى - لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أم لم يبرزوا، فى معناه؟

قلت: معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب، أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه. قال-تعالى- «ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ...»(١).

وقوله - تعالى - «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» السائل والمجيب هو الله - تعالى - .

أي: ينادي الله - تعالى - في المخلوقات في ذلك اليوم، لمن الملك في هذا اليوم الهائل الشديد؟ ثم يجيب - سبحانه - على هذا السؤال بقوله: «لله الواحد القهار».

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٥١ .

قال القرطبي ماملخصه : « قال الحسن : هو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه سبحانه فيقول : « لله الواحد القهار » .

وعن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله - جل وعلا - عليها ، فيأمر مناديا ينادى : « لمن الملك اليوم » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : « لله الواحد القهار » .

فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وإنقيادا وخضوعا . . .

ثم قال : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار إنفراده - تعالى - بالملك عند إنقطاع دعاوى المدعين ، وإنتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه . . . »(1) .

وبعد أن قرر - سبحانه - أن الملك فى هذا اليوم له وحده ، أتبع ذلك ببيان مايحدث فى هذا اليوم فقال : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . . . » .

أى : فى هذا اليوم الهائل الشديد تجازى كل نفس من النفوس المؤمنة والكافرة ، والبارة والفاجرة . بما كسبت فى دنياها من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

« لا ظلم اليوم » ولا جور ولا محاباة ولا وساطات . . . وإنما تعطى كل نفس ما تستحقه من ثواب أو عقاب .

« إن الله سريع الحساب » لأنه - سبحانه - لايحتاج إلى تفكر عند محاسبته لخلقه ، بل هو - سبحانه - قد أحاط بكل شىء علما ، كما قال - تعالى - : « عالم الغيب ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٦ .

ثم يوجه الله - تعالى - أمره إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يحذر كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول: « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . . . . » .

والآزفة : القيامة . وأصل معنى الآزفة : القريبة، وسميت القيامة بذلك لقربها ، يقال : أزف - بزنة فرح - يوم الرحيل ، إذا دنا وقرب .

والحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم .

وكاظمين : حال من أصحاب القلوب على المعنى ، فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها .

وأصل الكظم : الحبس والإمساك للشيء . يقال : كظم القربة إذا ملأها بالماء ، وسدها ، حتى لا يخرج منها شيء من الماء .

والمعنى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - الناس ، وحذرهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها من صدورهم ، ومتشبثة بحناجرهم ، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها حتى لا تخرج مع أنفاسهم ، كما يمسك صاحب القربة فمها لكي لا يتسرب منها الماء.

فالآية الكريمة تصوير بديع لما يكون عليه الناس في هذا اليوم من فزع شديد ، وكرب عظيم ، وخوف ليس بعده خوف .

والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء في آيات كثيرة منها قوله -تعالى- : « اقتربت الساعة وانشق القمر . . . . » .

وقوله -سبحانه- : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . . . » .

والظاهر أن قوله هنا « يوم الآزفة » هو المفعول الثاني للإنذار وليس ظرفا له ، لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع في دار الدنيا.

وقوله « إذ القلوب » بدل من يوم الآزفة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت « كاظمين » بم انتصب ؟ قلت: هو حال

من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب ، كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

وإنما جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظام الذى هو من أفعال العقلاء ، كما قال ـ تعالى ـ : « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ... »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » نفى لكون هؤلاء الظالمين يوجد فى هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم .

والحميم : هو الإنسان الذى يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حامته .

والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه .

أى : ليس للظالمين فى هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم فى الشفاعة لهم ، لأنهم فى هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم .

فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذى يهتم بأمرهم والشفيع الذى يشفع لهم ، والإنسان الذى تكون له أية كلمة تسمع فى شأنهم .

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول علمه لكل شىء ، فقال : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التى يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الإطلاع عليه .

والجملة خبر لمبتدأ محذوف . والإضافة فى قوله « خائنة الأعين » على معنى من ، وخائنة نعت لمصدر محذوف .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٥٧ .

أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهى التى يوجهها صاحبها فى تسلل وخفية إلى محارم الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التى يخفيها الناس فى صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك فى هـذا اليوم بما يستحقون .

قال القرطبى : « ولما جيء بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعدما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طويلا ، ثم قال : « نعم » .

فلما انصرف قال - صلى الله عليه وسلم - لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » .

فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يارسول الله ؟ فقال : « إن النبي لا تكون له خائنة أعين »(١) .

ثم بين - سبحانه - أن القضاء الحق فى هـذا اليوم مرده إليه وحده فقال : « والله يقضى بالحق ... » .

أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

« والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ... » أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من دون الله - تعالى - لا يقضون بشيء أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شيء ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم .

« إن الله » - تعالى - « هو السميع » لكل شيء « العليم » بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم واتعاظهم بمن

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٠٣

كان قبلهم فقال : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ».

أى : أبلغت الجهالة والغفلة وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين من قومك - يا محمد - أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا.

إنهم يمرون عليهم مصبحين وبالليل ، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلة أمام أعينهم ، يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم .

ولقد كان هؤلاء السابقون الظالمون ، أشد من مشركى قريش فى القوة والبأس ، وأشد منهم فى إقامة المبانى الفارهة ، والحصون الحصينة ...

فلما استمروا فى جحودهم وكفرهم ، وأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم ، وما كان لهم من دون الله - تعالى - من يدفع عنهم عذابه ، أو يقيهم من بأسه .

« ذلك » الأخذ من أسبابه « أنهم كانت رسلهم تأتيهم بالبينات » أى : بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما يبلغونهم عن ربهم

« فكفروا » أى : بالرسل وبما جاءوهم به « فأخذهم الله » أى : فأهلكهم - سبحانه - « إنه قوى شديد العقاب » أى : إنه - سبحانه - قوى لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل شديد العقاب لمن كفر به ، وأعرض عن دعوة رسله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله ، ومن أهوال يوم القيامة ، ومن علمه الشامل لكل شىء ، ومن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، فذكرت جانبا من التهديدات التى وجهها فرعون

إلى موسى وقومه . وكيف أن موسى ـ عليه السلام ـ رد عليه ردا قويا حكيما ، فقال ـ تعالى ـ :

« ولقَدْ أرسَلْنا موسَى بآياتِنا وسُلطانٍ مبينٍ (٢٣) إلى فرْعونَ وهامانَ وقارونَ فقالُوا ساحِرٌ كذَّابٌ (٢٤) فلمَّا جاءهم بالحقِّ مِنْ عندِنا قالُوا اقتُلوا أبناء الذينَ آمَنُوا معهُ واستَحيُوا نِساءهمُ ، وما كيدُ الكافِرينَ إلا في ضــلالٍ (٢٥) وقالَ فرْعونُ ذَروني أقتُلْ موسَى وليدعُ ربَّه إنِّي أخافُ أن يبدِّلَ دينَكُم ، أَوْ أَنْ يُظهِرَ في الأرضِ الفسادَ (٢٦) وقالَ موسَى إنِّي عذتُ بربِّي وربِّكُم من كلِّ متكبِّرٍ لا يؤمِنُ بيومِ الحِسابِ (٢٧) » .

والمراد بآياتنا في قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » ، تلك الآيات التسع التي أعطاها الله ـ تعالى ـ لموسى ، لتكون معجزات له دالة على صدقه ، وهي : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم .

قال ـ تعالى ـ : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .... » .

والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة الظاهرة التي تغلب بها في الحجاج والجدال على فرعون .

أي : والله لقد منحنا موسى ـ عليه السلام ـ بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه ـ أيضا ـ حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه .

قوله ـ سبحانه ـ : « إلى فرعون وهامان وقارون .... » بيان لمن أرسله الله ـ تعالى ـ إليهم .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر في تلك العهود السابقة ، والمراد

به هنا : ذلك الملك الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى - عليه السلام - ، ويقال إنه « منفتاح » ابن رمسيس الثانى .

و « هامان » هو وزير فرعون . و « قارون » هو الذى كان من قوم موسى فبغى عليه ، وأعطاه الله - تعالى - الكثير من الأموال ... ثم خسف به وبداره الأرض .

وخص - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى ، فكانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكايد ضد موسى - عليه السلام - فيتبعهم العامة من أقوامهم ...

وقوله : « فقالوا ساحر كذاب » ، أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، أن قالوا فى شأنه ، إنه ساحر يموه على الناس بسحره ، وإنه كذاب فى دعواه أنه رسول رب العالمين .

وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى - عليه السلام - ، وبين هؤلاء الطغاة الظالمين ، إنهم وصفوه بالسحر والكذب . وهو المؤيد بآيات الله ، وبحججه الظاهرة . وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكهم .

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم .. » .

أى : فحين وصل إليهم موسى - عليه السلام - ؛ بدعوته ، وخاطبهم بما أمره الله - تعالى - أن يخاطبهم به ، وجاءهم بالحق الذى زوده الله - تعالى - به ما كان منهم إلا أن قالوا - على سبيل التهديد والوعيد - : اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ؛ واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ فى إذلالهم . إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة ، وذل عظيم ..

والتعبير بقوله: «فلما جاءهم الحق من عندنا» يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم، وأنهم لم يخرجوا لطلبه، وإنما هو الذى جاءهم عن طريق موسى، المؤيد بآيات الله - تعالى - .

والقائلون: «اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم» هم الملأ من قوم فرعون، الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان، إرضاء له، وإرهابا لموسى - عليه السلام - ولمن آمن معه.

قال الإمام الرازى: «والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى، لأن القتل فى ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه، فأمر بقتل الأبناء فى ذلك الوقت. وأما فى هذا الوقت، فموسى - عليه السلام - كان قد جاءه وأظهر المعجزات، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه، لئلا ينشأوا على دين موسى، فيقوى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء..»(١).

وقوله - تعالى -: «وما كيد الكافرين إلا فى ضلال مبين» توهين لشأن الكافرين فى كل زمان ومكان، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا فى طريق الحق، دون أن يرهبهم وعد أو وعيد، فإن النصر سيكون فى النهاية لهم.

أى: وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان. يقال: ضل فلان الطريق، إذا ضاع منه الرشد، والتبست عليه السبل، وصار تائها لا يعرف له طريقا يوصله إلى ما يريد.

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان فجور فرعون وبغيه فقال: «وقال فرعون ذرونى أقتل موسى ....».

والجملة الكريمة معطوفة على قوله: «قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه»

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٠٢

وجملة «وما كيد الكافرين إلا في ضلال» إعتراضية، جيء بها مسارعة لبيان خسرانهم وضلالهم.

أي: وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصته: أتركوني لأقتل موسى -عليه السلام- وأتخلص منه ومن أقواله التي فيها مافيها من الضرر بي وبكم.

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة من مستشاريه، لأنهم يرون أن قتله لا ينهي المتاعب، بل قد يزيدها اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق، فتثور ثائرتهم لقتله، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدي إلى نزول العذاب بهم، غضبا من رب موسى عليهم، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه من الجهر بذلك، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدي إلى تفرغ فرعون لهم، وهم لا يريدون هذا التفرغ، لأنه يؤدي إلى ضياع الكثير من منافعهم.

قال صاحب الكشاف: «قوله: «ذروني أقتل موسى»: كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس موسى بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة... وأنك إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة.

والظاهر أن فرعون - لعنه الله - كان قد إستيقن أن موسى نبيا، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان قتالا سفاكا للدماء في أهون شيء. فكيف لا يقتل من أحسن منه بأنه هو الذي يثل عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله، أن يعاجل بالهلاك...»(1).

وقوله: «وليدع ربه» تظاهر من فرعون بأنه لا يبالي بما يكون من وراء قتله لموسى. وأنه غير مكترث لا بموسى ولا برب موسى.

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦٠.

فالجملة الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر وإستهزاء بالحق فكأنه يقول : إنى قاتل لموسى وليدع ربه لكى يخلصه منى . . ! !

ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ماحمله على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم ، فيقول : « إنى أخاف أن يبدل دينكم، أو أن يظهر فى الأرض الفساد » .

أى : اتركونى لأقتل موسى ، وليدع ربه لكى يخلصه منى ، إن كان فى إمكانه ذلك ، فإنى أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر أو بأن يظهر فى الأرض التى تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن بينكم وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم ، والعمل على إضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان: يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة ، ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم . . . إنهم مافعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية ! !

قال الإمام الرازى : والمقصود من هذا الكلام، بيان السبب لقتل موسى، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم إعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه، فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى إعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق .

وأما فساد الدنيا فهو أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتنة .

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق محبتهم لأموالهم ، لا جـــرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال :

« إنى أخاف أن يبدل دينكم » ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : أو أن يظهر فى الأرض الفساد »[1] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ماقاله موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال ـ تعالى ـ : « وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

وقوله «عذت» بمعنى إستجرت ولجأت . يقال : عاذ فلان بفلان وإستعاذ به ، إذا لجأ إليه . وإستجار به .

أى : وقال موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق ياقوم . إنى إستجرت وتحصنت بربى وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب .

وفى هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله ـ تعالى ـ له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله ـ تعالى ـ الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبإنجائه وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الإستكبار عن إتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .

قال صاحب الكشاف : « وقوله : « وربكم » فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه إعتصامه ، وقال : « من كل متكبر » لتشتمل إستعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ . وأراد بالتكبر : الإستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح إستكبار وأدله على دناءة صاحبه ، ومهانة نفسه ، وهو فرط ظلمه وعسفه .

وقال : « لا يؤمن بيـــوم الحساب » لأنه إذا إجتمع فى الرجل التجبر

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٣٠٣ .

والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده . ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها ... »(١).

وخلال هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى ـ عليه السلام ـ، قيض الله ـ تعالى ـ لموسى رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يخفي إيمانه، هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعا حكيما مؤثرا، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى ... ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

« وقالَ رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتُم إيمانَه، أتقتُلونَ رجُلاً أنْ يقولَ ربِّيَ اللهُ، وقد جاءكُم بالبيِّنَاتِ مِنْ ربكُم، وإن يكُ كاذِباً فعلَيهِ كذبُه، وإنْ يكُ صادِقًا يُصِبكُم بعضُ الذي يَعدكُم، إنَّ اللهَ لا يَهدي من هُو مُسرفٌ كذَّابٌ (٢٨) ياقومِ لكُم الملكُ اليومَ ظاهِرينَ في الأرضِ، فَمَنْ ينصُرُنا مِنْ بأسِ اللهِ إنْ جاءنا، قالَ فرعونُ ما أُريكُم إلاَّ ما أرى، وما أهْدِيكُم إلاَّ سبيلَ الرشادِ(٢٩) وقالَ الذي آمَنَ يا قومِ إني أخافُ عليكُم مِثلَ يومِ الأحزابِ(٣٠) مِثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذينَ من بعدِهم، وما اللهُ يريدُ ظُلماً للعبادِ(٣١) وياقومِ إني أخافُ عليكُم يومَ التَّنادِ(٣٢) يومَ تولُّونَ مدبِرينَ ما لكُم من اللهِ من عاصِمٍ، ومن يضلِلِ اللهُ فما لهُ من هادٍ (٣٣) ولقَدْ جاءكُم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيِّنَاتِ فما زِلتُم في شكٍّ ممَّا جاءكُم بهِ، حتَّى إذاهلكَ قلتُم لن يَبعثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسُولاً، كذلكَ يُضلُّ اللهُ مَن هُو

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦١ .

مسرفٌ مرتابٌ (٣٤) الذينَ يجادِلُونَ فى آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهُمْ كَبُرَ مقتاً عندَ اللهِ وعند الذينَ آمنُوا ، كذلِكَ يَطبعُ اللهُ عَلَى كلِّ قلبِ مُتكَبِّرٍ جبَّارٍ (٣٥) » .

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن موسى - عليه السلام - أنه مازاد فى دفع مكر فرعون وشره على الإستعاذة بالله ، بين أنه - تعالى - قيض إنسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، واجتهد فى إزالة ذلك الشر .

ثم قال - رحمه الله - : يقول مصنف هذا الكتاب : ولقد جربت فى أحوال نفسى أنه كلما قصدنى شرير بشر ولم أتعرض له ، وأكتفى بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه - سبحانه - يقيض أقواما لا أعرفهم ألبتة ، يبالغون فى دفع ذلك الشر ... »[(١)] .

وظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا الرجل المؤمن كان من حاشية فرعون بدليل قوله - تعالى - « من آل فرعون » ولم يكن من بنى إسرائيل .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - ذلك فقال : « وأولى القولين فى ذلك بالصواب عندى : القول الذى قاله الذى ، من الرجل المؤمن كان من آل فرعون ، ولذا فقد أصغى لكلامه واستمع منه ماقاله ، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله ... ولو كان إسرائيليا لكان حريا أن يعاجل هذا القائل له ولملئه ماقال بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن تستنصح بنى إسرائيل لاعتداده إياهم أعداءله ... ولكنه لما كان من ملأ قومه ، استمع إليه ، وكف فرعون عما كان قد هم به من قتل موسى ... »[(٢)] .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٠٤

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٤ ص ٣٨

قالوا : وهذا الرجل المؤمن هو الذى نصح موسى - عليه السلام - بقوله : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين » .

وكان إسمه « حزقيل » أو « حبيب » .

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى لا يصيبه أذى منهم ، قال لهم عندما سمع فرعون يقول : ذرونى أقتل موسى « : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

أى : أتقتلون رجلا لأنه ربى الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .

فقوله « أن يقول ربى الله » فى موضع المفعول لأجله ، أى : أتقتلونه من أجل قوله هذا . وجملة « وقد جاءكم بالبينات من ربكم » حالية من فاعل يقول وهو موسى - عليه السلام - .

والمقصود بهذا الإستفهام: الإنكار عليهم، والتبكيت لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل ذنبه أنه عبدالله - تعالى - وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة فعله .

قال الإمام ابن كثير : « وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون « ذرونى أقتل موسى » ، فأخذت الرجل غضبة لله - تعالى - و « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » اللهم إلا ماروا البخارى فى صحيحه حيث قال :

حدثنا على بن عبدالله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرونى بأشدشىء صنعه المشركون برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولوى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبه ودفع عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[1]

وقال القرطبي : «وعن على - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث : فأرادوا قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأقبل هذا يجؤه - : أى : يضربه - ، وهذا يتلتله - أى: يحركه تحريكا شديدا - فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، والله إنه لرسول الله ، فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ . . »[2].

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدهم موسى بالقتل بل أخذ فى محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال : «وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . . .» .

أى : أنه قال لهم : إن كان موسى - على سبيل الفرض - كاذبا فيما يقوله ويفعله . فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شىء ، وإن كان صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عند ربه . . .

فأنت ترى أن الرجل كان فى نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، فى مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج عن فرضين ، وكلاهما لا يوجب قتلة موسى - عليه السلام - بالقتل .

ورحم الله صاحب الكشاف . فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٣١
(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٥ ص ١٠٨

ما ملخصه : وقوله : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ... » هذا إنكار عظيم منه ، وتبكيت شديد لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط فى ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله « ربى الله » ..

ثم أخذ فى الاحتجاج عليهم على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا، فإن يك كاذبا فعليه يعود كذبه ولا يتخطاه ضرره وإن يك صادقا يصبكم بعض ما يعدكم به إن تعرضتم له .

فإن قلت : لم قال : « بعض الذى يعدكم » ، وهو - أى موسى - نبى صادق ، لابد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟

قلت : لأنه احتاج فى مقاولة خصوم موسى ومناكريه ، إلى أن يلاوصهم - أى يحايلهم - ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف فى القول . ويأتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال : « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » وهو كلام المنصف فى مقاله ، غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد ، ولكنه أردفه بقوله : « يصبكم بعض الذى يعدكم » ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا عن أن يتعصب له وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل .. »(١) .

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التى لا تتغير فقال : « إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

أى : إن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أنه - سبحانه - لا يهدى إلى الحق والصواب ، من كان مسرفا فى أموره ، متجاوزا الحدود التى شرعها الله - تعالى - ، ومن كان كذابا فى إخباره عن الله - تعالى - ، ولو كان موسى

(١) راجع تفسير الكشاف جـ٤ ص ١٦٢ .

مسرفا أو كذابا ، لما أيده الله - تعالى - بالمعجزات الباهرة ، وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه .

فالجملة الكريمة إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما يبلغه عن ربه وتعريض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .

قال الجمل فى حاشيته : «فالجملة الكريمة كلام ذو وجهين نظراً لموسى وفرعون :

الوجه الأول : أن هذا إشارة إلى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى . والمعنى : أن الله هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفا ولا كذابا . . .

الوجه الثانى : أن يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى، وكاذب فى ادعائه الألوهية ، والله لا يهدى من كان كذلك . . »(1) .

ثم أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفى تحذيرهم من نقمه فقال : «ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا» .

أى : وقال الرجل المؤمن لقومه - أيضا - : ياقوم ، أى : ياأهلى وياعشيرتى . أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين فى أرض مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى . . .

وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .

وإنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم فى موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيذانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا يهمه سوى منفعتهم ومصلحتهم . .

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ، أخذته العزة بالإثم ، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه : «ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» .

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٣ .

أى : قال فرعون لقومه ، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن : ياقوم ، لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيراً ، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهديكم برأيى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد .

وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتمويه على قومه ، وأنه مايريد إلا منفعتهم ، مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا ، هو التخلص عن موسى حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جهلة قومه فأطاعوه ، فإنهم كانوا كما قال - تعالى - فى شأنهم - « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذى نطق به فرعون ، بل استرسل فى نصحه لقومه ، وحكى القرآن عنه ذلك فقال : « وقال الذى آمن ياقوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . . . » .

أى قال لهم : ياقوم إنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام - بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسراً . . .

فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء ، وكأن تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر .

والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه ، فالكلام على حذف مضاف .

أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب .

وقوله : مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين بعدهم . . . ، بدل أو عطف بيان من قوله « مثل يوم الأحزاب » .

والدأب : العادة الدائمة المستمرة . يقال : دأب فلان على كذا ، إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة .

أى: أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم كقوم لوط، فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله - تعالى - تدميرا، فاحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى - عليه السلام - بالقتل والإيذاء، فينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بهم.

«وما الله» - تعالى - «يريد ظلما للعباد» أى: فما أنزله - سبحانه - بهم من عذاب، إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم، وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول: «ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد».

أخاف عليكم يوم القيامة الذى يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار، ونداء أهل النار لأهل الجنة، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاء.

فلفظ «التناد» - بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء، يقال: تنادى القوم، إذا نادى بعضهم بعضا.

وقوله: «يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم...» بدل من يوم التناد. أى: أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء، فتتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها، وتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون، لأنه لا عاصم لكم ولا مانع فى هذا اليوم من عذاب الله - تعالى - وعقابه.

«ومن يضلل الله فما له من هاد» أى: ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق بسبب سوء استعداده، واستحبابه العمى على الهدى، فما له من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم.

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد خوف قومه من العذاب الدنيوى، أتبع ذلك بتخويفهم من العذاب الأخروى.

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا . . . » .

والذى عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - والمراد بمجيئه إليهم : مجيؤه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى - عليهما السلام - أكثر من أربعة قرون فالتعبير فى الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم فى الإعراض عن الحق .

أى : ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل مجىء موسى إليكم ، وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات البينات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه .

« فما زلتم فى شك مما جاءكم به » أى : فما زال آباؤكم فى شك مما جاءهم به من البينات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى - عليه السلام - .

« حتى إذا هلك » أى : مات يوسف - عليه السلام - .

« قلتم » أى : قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم « لن يبعث الله من بعده رسولا » فهم قد كذبوا رسالته فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده .

فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، فى تكذيب رسل الله ، وفى الإعراض عن دعوتهم .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم « رسولا من قبل موسى » ، وهو يوسف - عليه السلام - ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة ، والجاه الدنيوى ، ولهذا قال : « فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده

رسولا ، أي : يئستم فقلتم طامعين : « لن يبعث الله من بعده رسولا ، وذلك لكفرهم وتكذيبهم »(١) .

وقوله : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » أي : مثل ذلك الإضلال الفظيع ، يضل الله - تعالى - من هو مسرف في ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب في دينه شاك في صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون في آياته الدالة على وحدانيته وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال « الذين يجادلون آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ... » .

وقوله : « الذين يجادلون ... » مبتدأ ، وخبره قوله - تعالى - كبر مقتا ... » والفاعل ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من قوله « يجادلون » أي : كبر جدالهم و « مقتا » تمييز محول عن الفاعل ، أي : عظم بغضا جدالهم عند الله وعند المؤمنين .

أي : الذين يجادلون في آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل أو برهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا ،

قال الجمل : « وهذه الصفة - وهي الجدال بالباطل بدون برهان - موجود في فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلا الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم ، وأبرز ذلك في صورة تذكرهم فلم يخصهم بالخطاب .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٢٣ .

وفى قوله : « كبر » ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم . »(١)

وقـوله : « كذلك يطبـع الله على كل قلب متكبر جبار » أى : مثل ذلك الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متطاول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء .

• • •

ومـع هـذا النصح الزاخر بالحـكم الحـكيمة ، والتوجيهات السليمة ، والإرشادات القويمة من الرجل المؤمن لقومه . . ظل فرعون سادرا فى غيه ، مصرا على كفره وضلاله . . إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر . . . ويحكى القرآن الـكريم كل ذلك فيقول :

« وقالَ فِرْعَون يا هامَانُ ابنِ لِي صَرْحاً لعلِّى أبلغُ الأسبابَ (٣٦) أسبابَ السَّموات فأطَّلِـع إلى إلهِ مُوسى وإنِّى لأظنُّه كاذباً ، وكذلكَ زُيِّنَ لفِرْعَونَ سوءُ عمَلِه وصُدَّ عنِ السَّبيلِ وما كَيدُ فِرْعونَ إلاَّ فى تَباب (٣٧) وقالَ الذى آمَنَ ياقوم اتبعُونِ أهدِكُم سبيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قوم إنَّما هذه الحياةُ الدُّنيا متاعٌ وإنَّ الآخرَةَ هىَ دارُ القَرارِ (٣٩) مَنْ عمِلَ سيئةً فلاَ يُجزَى إلاَّ مِثلَها ومَنْ عمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهوَ مُؤمنٌ فأولئكَ يدخُلونَ الجنَّةَ يرزَقونَ فيها بغيرِ حِسابٍ (٤٠) ويا قَومِ مالِي أَدعُوكُم إلى النَّجاةِ وتَدْعُونني إلى النَّـارِ (٤١) تدعُونَنِي لأ كفُرَ باللهِ وأُشرِكَ بهِ ما ليسَ لى بهِ علمٌ ، وأنا أَدعوكُم إلى العزيزِ

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٤ ص ١٥ .

الغفّار (٤٢) لاجرَم أنَّ ما تدْعُونني إليه ليسَ لهُ دعوةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرَةِ ، وأن مَردَّنا إلى اللهِ وأن المسْرِفينَ هُمْ أصحابُ النَّـارِ (٤٣) فستَذْكُرونَ ما أقولُ لـكُم وأُفوِّضُ أمْري إلى اللهِ ، إنَّ اللهَ بَصيرٌ بالعِبادِ (٤٤) فوقاهُ اللهُ سيئاتِ ما مكَرُوا وحاقَ بآلِ فرْعَونَ سوءُ العذابِ (٤٥) النَّـارُ يُعرَضُون عليها غُدوًّا وعشِيًّا ويومَ تقوم الساعةُ أَدْخِلوا آلَ فِرعونَ أشدَّ العذابِ (٤٦) » .

والمراد بالصرح في قوله - تعالى - : « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا . . . » البناء العالي المكشوف للناس ، الذي يرى الناظر من فوقه ما يريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح بمعنى الكشف والإيضاح .

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشيء ، والمراد بها هنا : أبواب السماء وطرقها ، التي يصل منها إلى ما بداخلها .

أي : وقال فرعون لوزيره هامان : ياهامان ابن لي بناء ظاهرا عاليا مكشوفا لا يخفى على الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعلي عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر إلى إله موسى .

والمراد بالظن في قوله « وإني لأظنه كاذبا » اليقين لقوله ، - تعالى - في آية أخرى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين »[1] .

فقوله - كما حكى القرآن عنه - : « ما علمت لكم من إله غيري » قرينة

(١) سورة القصص الآية ٣٨ .

قوية على أن المراد بالظن فى الآيتين: اليقين والجزم، بسبب غروره وطغيانه.

أى: وإنى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا فى دعواه أن هناك إلها غيرى لكم، وفى دعواه أنه رسول إلينا.

وكرر لفظ الأسباب لأن اللفظ الثانى بدل من الأول، والشيء إذا أبهم ثم أوضح، كان تفخيما لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها.

وقوله: «فأطلع ...» قرأه الجمهور بالرفع عطفا على «أبلغ» فيكون فى حيز الترجى.

وقرأه بعض القراء السبعة بالنصب فيكون جوابا للأمر فى قوله: «ابن لى صرحا ...».

ولاشك أن قول فرعون هذا بجانب دلالته على أنه أبلغ الغاية فى الطغيان والفجور والإستخفاف بالعقول، يدل - أيضا - على شدة خداعه، إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس.

قال الإمام ابن كثير: «وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح، الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه، وإنما أراد بهذا أن ظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله، من أن هناك إلها غير فرعون ...»(١).

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه: وقول فرعون هذا، المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا لبقائهم على الكفر، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله، وأنه ليس فى جهة، ولكنه أراد التلبيس، فكأنه يقول لهم: لو كان إله موسى موجودا لكان له محل، ومحله إما الأرض وإما السماء،

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٦

ولم نره فى الأرض ، فيبقى أن يكون فى السماء ، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلم .. »(١) .

ثم بين ، سبحانه ـ أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال : « وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » .

والتباب : الهلاك والخسران ، يقال : تب الله ـ تعالى ـ فلانا ، أى : أهلكه . وتبت يدا فلان ، أى : خسرتا ومنه قوله ـ سبحانه ـ : « تبت يدا أبى لهب وتب . . . » .

أى : ومثل ذلك التزيين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره وطغيانه ، وصد عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب العمى على الهدى . وما كيد فرعون ومكره وتلبيسه واحتياله فى إبطال الحق ، إلا فى هلاك وخسران وانقطاع .

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه ، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور فقال : « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون . . » أى : فيما أنصحكم به ، وأرشدكم إليه .

« أهدكم سبيل الرشاد » أى : أتبعونى فيما نصحتكم به ، فإن فى اتباعكم لى هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعادة وسداد . أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الغى والضلال .

« يا قوم إنما هذه الدنيا متاع . . » أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه . . .

« وإن الآخرة » وحدها « هى دار القرار » أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام والخلود .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص١٦٥

« من عمل سيئة » في هذه الدنيا «فلا يجزى» في الآخرة« إلا مثلها» كرما من الله ـ تعالى ـ وعدلا .

« ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن » بالله ـ تعالى ـ إيمانا حقا .

« فأولئك » المؤمنون الصادقون« يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب» أي : يرزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم قدره إلا الله ـ تعالى ـ ، ولا يحاسبهم عليهم محاسب ، تفضل ـ سبحانه ـ على عباده . أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات .

ثم استنكر موقف قومه منه فقال : « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة » من العذاب الدنيوى والأخروى ، بأن آمركم بأن بالإيمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ .

وأنتم «تدعوننى إلى النار» أي : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله ـ تعالى ـ ، والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم ..

قال صاحب الكشاف :« فإن قلت : لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى ؟

قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه : أنهم قومه وعشيرته ... ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك أن لا يتهموه ، فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وينزلوا على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى نصيحة أبيه قوله : « يا أبت » ـ فى سورة مريم ـ .

وأما المجىء بالواو العاطفة ، فلأن الثانى داخل على كلام هو بيان المجمل،

وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه فى امتناع دخول الواو ، وأما الثالث : فداخل على كلام ليس بتلك المشابهة »[١] .

وقوله : « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ... » بدل من قوله : « وتدعوننى إلى النار » وتفسير وبيان له .

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوننى إلى الإشراك بالله - تعالى - وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته .

وقوله : « وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار » بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له

فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، الغالب لكل ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه .

ثم يؤكد لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أن ما يطلبونه منه هو الباطل وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول : « لا جرم أن ما تدعوننى إليه ، ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ... » .

وجرم : فعل ماض بمعنى حق وثبت ووجب . وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى خمسة مواضع ، وفى كل موضع جاءت متلوة بأن واسمها .

وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق وثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل ...

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس ، و « جرم » إسمها ، وما بعدها خبرها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦٨ .

أي : حق وثبت لدى بما لا يقبل الشك ، أن آلهتكم التى تدعوننى لعبادتها آلهة باطلة ، لا وزن لها ولا قيمة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ...

« وأن مردنا » جميعا « إلى الله » - تعالى - وحده «وأن المسرفين» أى : المستكثرين من المعاصى فى الدنيا « هم أصحاب النار » فى الآخرة .

ثم ختم نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : « فستذكرون » ياقوم « ما أقول لكم » من حق وصدق .

« وأفوض أمرى إلى الله » - تعالى - وحده لكى يعصمنى من كل سوء .

« إن الله » - تعالى - « بصير بالعباد » لا يخفى عليه شىء من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

وقوله - تعالى - : « فوقاه الله سيئات ما كسبوا ... » بيان للعاقبة الطيبة التى أكرمه الله - سبحانه - بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده .

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصحه لقومه ، أن وقاه الله - تعالى - ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سىء ...

« وحاق بآل فرعون » أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه « سوء العذاب » بأن أغرقهم الله - تعالى فى اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

والغدو : أول النهار ، والعشى : آخره . وجملة : « النار يعرضون عليها ... » بدل من قوله - تعالى - « سوء العذاب » .

يعرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم وهم في قبورهم في الصباح والمساء، «يوم تقوم الساعة» يقال للملائكة العذاب: «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم.

قال القرطبي: «والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ. واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله - تعالى -: «والنار يعرضون عليها غدوا وعشيا» مادامت الدنيا...

قال مجاهد وغيره: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ألا تراه يقول - سبحانه - عن عذاب الآخرة: «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب».

وفي الحديث عن ابن مسعود: إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار، تعرض على النار بالغداة والعشي، فيقال: هذه داركم..»(1).

هذا، والمتأمل في هذه الآية الكريمة، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل فرعون، أسمى الأساليب وأحكمها في الدعوة إلى الحق، فقد بدأ نصحه بنهي قومه عن قتل موسى - عليه السلام -، ثم ذكرهم بنعم الله عليهم، وبسوء عاقبة الظالمين، وبأن نعيم الدنيا زائل، أما نعيم الآخرة فباق، وبأنه ما يدعوهم إليه هو الحق، وبأن ما يدعونه إليه هو الباطل.

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال: «فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد» فكانت نتيجة هذا التفويض، أن وقاه الله - تعالى - من سوء مكر أعدائه، ونجاه من شرورهم، وأن جعل مكرهم السيء يحيق بهم.

ثم حكى - سبحانه - جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات، وكيف أن كل فريق منهم يطلب من الملائكة تخفيف العذاب عنه، ولكن لا يجابون

(1) راجع تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٣١٨

إلى طالبهم ، ولا تقبل معذرتهم ، وأن سنة الله قد اقتضت أن ينصر عباده الصالحين فى الدنيا والآخرة ، قال - تعالى - :

« وإذْ يَتحاجُّونَ فى النَّارِ فيقولُ الضُّعفاءُ للذينَ استكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لكُم تبعاً ، فَهَلْ أنتُم مغنُونَ عنَّا نَصيباً من النَّارِ (٤٧) وقالَ الذينَ استكْبَرُوا إنَّا كُلٌّ فيها ، إنَّ اللهَ قد حكَم بيْنَ العِبادِ (٤٨) وقال الذينَ فى النَّار لخزنةِ جَهنَّم ، ادعُوا ربَّكُم يُخفِّفْ عنَّا يَوْماً من العذابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تكُ تَاتِيكُمْ رسُلكُم بالبيِّنَاتِ ، قالوا : بَلَى ، قالوا : فادْعُوا ، وما دعاءُ الكافرِينَ إلاَّ فى ضَلاَلٍ (٥٠) إنَّا لنَنْصُر رسُلنا والذينَ آمنُوا فى الحياةِ الدُّنياَ ويَوْمَ يقومُ الأَشهادُ (٥١) يومَ لا يَنفَعُ الظالمِينَ معذِرَتهم وَلهُم اللَّعْنَة ولهمْ سُوءِ الدَّارِ (٥٢) ولقَدْ آتيْناَ مُوسى الهُدَى وَأَوْرَثناَ بَنِى إسرائيلَ الكتابَ (٥٣) هُدًى وذِكْرَى لأولِى الألباب (٥٤) فاصبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ، وَاستَغْفِرْ لذنْبِكَ ، وسبِّحْ بحمدِ ربِّكَ بالعَشِىِّ وَالإبْكار (٥٥) » .

و « إذ » فى قوله - تعالى - : « وإذ يتحاجون فى النار » متعلق بمحذوف تقديره : أذكر أى : وأذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم .

« فيقول الضعفاء » منهم « للذين استكبروا » فى الدنيا وكانوا رؤساء وقادة .

« إنا كنا لكم تبعا » أى إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لهواكم ومسخرين لخدمتكم . . . والاستفهام فى قوله - تعالى - : « فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار » للطلب المصحوب بالرجاء والاستجداء . . .

أى : هذا هو حالنا أمامكم ، وقد كنا فى الدنيا منقادين لكم إنقياد العبد

لسيده ، فادفعوا عنا شيئا من هذا العذاب المهين الذى نزل بنا ، فطالما دافعنا عنكم فى الدنيا وسرنا وراءكم بدون تفكير أو معارضة .

وقوله « نصيبا » منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله « مغنون » أى : فهل أنتم تدفعون عنا جزءا من العذاب الذى نحن فيه ، وتحملون عنا نصيبا منه .

وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل ، ويحكى القرآن ذلك فيقول « قال الذين استكبروا » أى للضعفاء .

« إنا كل فيها » أى : أنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب ، وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شىء من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا .

ولفظ « كل » مبتدأ ، وفيها متعلق بمحذوف خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر ، خبر إن .

وجملة : « إن الله قد حكم بين العباد » من جملة الرد ، أى : إن الله تعالى قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، فجعل المؤمنين الجنة ، وجعل للكافرين النار ، وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .

وبعد أن يئس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : وقال الذين فى النار ، لخزنة جهنم ، وهم الملائكة المكلفون بتعذيب الكافرين .

قالوا لهم : « ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الأيام الكثيرة التى ينزل علينا العذاب فيها بدون إنقطاع ، لعلنا فى هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التى مزقها العذاب الدائم .

وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : « أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات» أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب : أو لم تك رسلكم فى الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين ، وتأتيكم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم .

« قالوا بلى » أى : قال الكافرون لخزنة جهنم : بلى أتونا بكل ذلك فكذبناهم .

وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم : ما دام الأمر كما ذكرتم من أن الرسل قد نصحوكم ولكنكم أعرضتم عنهم «فادعوا » ماشئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء لن ينفعكم شيئا .

« وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم إلا فى ضياع وخسران .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « إنا لننصر رسلنا ، والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

والأشهاد : جمع شاهد ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم دعوة الله ، والملائكة الذين يشهدون للرسل بالتبليغ ، وللمؤمنين بالإيمان وللكافرين بالكفر وكل من يقوم يوم القيامة للشهادة على غيره يكون من الأشهاد .

أى : لقد اقتضت سنتنا التى لا تتخلف أن ننصر رسلنا والمؤمنين فى الدنيا بالحجة الدامغة التى تزهق باطل أعدائهم ، وبالتغلب عليهم ، وبالانتقام منهم ...

وأن ننصرهم فى الآخرة كذلك بأن نجعل لهم الجنة ، والنار لأعدائهم .
قال صاحب الكشاف : «قوله : « فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» أى : فى الدنيا والآخرة ، يعنى أنه ينصرهم فى الدارين جميعا بالحجة والظفر

على أعدائهم ، وإن غلبوا فى الدنيا فى بعض الأحايين امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين »[١] ...

وما ذكره صاحب الكشاف فإننا نراه واقعا فى سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى سيرة أتباعه فلقد هاجر النبى - صلى الله عليه وسلم - من مكة وليس معه سوى أبى بكر الصديق ، وعاد إليها بعد ثمان سنوات فاتحا غازيا ظافرا ، ومن حوله الآلاف من أصحابه .

والمؤمنون قد يغلبون - أحيانا - ويعتدى عليهم . . . ولكن العاقبة لابد أن تكون لهم ، متى داوموا على التمسك بما يقتضيه إيمانهم من الثبات على الحق ، ومن العمل الصالح . . .

وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة ، بيوم يقوم الأشهاد ، للاشعار بأن نصر الرسل والمؤمنين فى هذا اليوم سيكون نصرا مشهودا معلوما من الأولين والآخرين ، لاينكره منكر ، ولا ينازع فيه منازع .

وقوله : « يوم لاينفع الظالمين معذرتهم . . . » أى : ننصرهم يوم القيامة يوم يقدم الظالمون أعذارهم لكى نعفو عنهم ، فلا يقبل منهم عذر واحد ، لأنها أعذار ساقطة . وجاءت فى غير وقتها .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » لأن المقصود منهما واحد ، وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول حتى يلتفت إليهم ، وإنما عذرهم مرفوض رفضا تاما . .

« ولهم اللعنة » من الله - تعالى - ومن عباده المؤمنين « ولهم » - أيضا - « سوء الدار » وهى جهنم وسوؤها ما يسوء فيها من العذاب فالإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى : ولهم الدار السوءى .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٢ .

وفى هاتين الآيتين ما فيه من البشارة السارة العظيمة للمؤمنين ومن الإهانة التى ليس بعدها إهانة للكافرين .

ثم ساق - سبحانه - مثالا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين ، فقال - تعالى - : « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولى الألباب » .

أى : والله لقد آتينا عبدنا ونبينا موسى ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، وأورثنا من بعده قومه بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة ، لكى ينتفعون بإرشاداته وأحكامه وتوجيهاته .

وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب العقول السليمة فقوله - تعالى - « هدى وذكرى » مفعول لأجله ، أوهما مصدران فى موضع الحال ، أى : وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، حالة كونه هاديا ومذكرا لأولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدايات ، وهم الذين يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على أذى أعدائه ، فقال : « فاصبر إن وعد الله حق . . »

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أننا سننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . . . فاصبر على ما أصابك من أعدائك ، فإن ما وعدك الله - تعالى - به من النصر ثابت لا شك فيه ، وحق لا باطل معه .

« واستغفر لذنبك » فإن استغفارك هذا وأنت المعصوم من كل ما يغضبنا - يجعل أمتك تقتدى بك فى ذلك ، وتسير على نهجك فى الإكثار من فعل الطاعات .

« وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » أى : وبجانب استغفارك من الذنوب ، أكثر من تسبيح ربك ومن تنزيهه عن كل مالا يليق به عند حلول الليل ، وعند تباكير الصباح ، فإن هذا الاستغفار وذلك التسبيح ، خير زاد للوصول إلى السعادة والفوز فى الدنيا والآخرة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « واعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى قسمين : التوبة عما لا ينبغى ، والاشتغال بما لا ينبغى ، والأول مقدم على الثانى بحسب الرتبة الذاتية ، فوجب أن يكون مقدما عليه فى الذكر ..

أما التوبة عما لا ينبغى ، فنراها فى قوله - تعالى - : « واستغفر لذنبك » .

وأما الاشتغال بما لا ينبغى ، فنراه فى قوله - تعالى - « وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار » .

والتسبيح عبارة عن تنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به والعشى والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر ، وقيل : الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف ، والعشى عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وبالجملة فالمراد منه المواظبة على ذكر الله . وأن لا يفتر اللسان عنه .. »[1]

ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة أو برهان ، وتبين الأسباب التى حملتهم على ذلك ، وترشد إلى العلاج من شرورهم ، وتنفى المساواة بين الكافر والمؤمن ، وتدعو المؤمنين إلى الإكثار من التضرع إلى الله - تعالى - فتقول :

« إِنَّ الذينَ يُجَادِلُونَ فى آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سلطانٍ أتاهُمْ ، إن فى صُدورِهِمْ إلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبَالِغِيهِ إلاَّ بإذْنِ اللهِ ، إِنَّه هوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمٰواتِ وَالأرضِ أكبَرُ من خَلْقِ النَّاسِ ولـكِنَّ

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٣٢١

أَكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ (٥٧) وما يَستَوِى الأعمَى وَالبصيرُ والذينَ آمنُوا وَعملُوا الصالحاتِ ولا المُسِيء ، قليلاً ما تتذكَّرُونَ (٥٨) إنَّ الساعَةَ لآتيَةٌ لا رَيبَ فيها ، ولـكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يؤمِنُونَ (٥٩) وَقال ربُّكم ادعُونى أَستَجِبْ لَـكُم ، إنَّ الذينَ يستَكبِرُونَ عن عِبَادَتى سَيدخلُونَ جَهَنَّم داخِرِينَ (٦٠) » .

والمراد بالمجادلة في قوله ـ تعالى ـ : « إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ... » المجادلة بالباطل بدون حجة أو دليل ، أما المجادلة لإحقاق الحق والـكشف عنه .. فهى محمودة ، لأنها تهدى إلى الخير والصلاح . .

قال صاحب الـكشاف : « فأما الجدال فى آيات الله ، لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقاومة أهل العلم فى استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله .. »[1]

وجملة « إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » خبر إن ، والـكبر بمعنى التـكبر والتعالى والتعاظم على الغير .

والمعنى : إن الذين يجادلون فى آيات الله ـ تعالى ـ الدالة على وحدانيته وصدق رسله ، وليس عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم ...

هؤلاء المجادلون بالباطل ماحملهم على ذلك إلا التـكبر والتعاظم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تـكون النبوة فيهم أو فيمن يميلون إليهم ... وهم جميعا لن يصلوا إلى شيء من ذلك ، ولن يبلغوا ماتتوق إليه نفوسهم المريضة ، لأن العطاء والمنع بيد الله ـ تعالى ـ وحده .

(١) تفسير الـكشاف ج ٤ ص١٥٠ .

وصدق الله إذ يقول : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم»(١) .

فالآية الكريمة تبين أن على رأس الأسباب التى حملت هؤلاء المجادلين بالباطل على جدالهم ، هو حبهم للتكبر والتعالى . . .

قال الآلوسى : قوله : « بغير سلطان أتاهم . . » أى : بغير حجة فى ذلك أتتهم من جهته - تعالى - وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة ، الإيذان بأن المتكلم فى أمر الدين ، لابد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين ، وهذا عام فى كل مجادل مبطل . . .

وقوله : « ماهم ببالغيه » صفة لقوله « كبر » أى ماهم ببالغى موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة . . . »(٢) .

وقوله - سبحانه - « فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير » إرشاد منه - تعالى - إلى ما يتقى من شرور هؤلاء المجادلين بالباطل .

أى : هذا هو حال المجادلين بالباطل وهذا هو الدافع إلى جدالهم ، وما دام هذا هو حالهم ، فالتجىء إلى الله - تعالى - أيها الرسول الكريم - لكى يحفظك من شرورهم وكيدهم ، إنه - تعالى - هو السميع لكل شىء ، البصير بما ظهر وخفى من شئون عباده .

ثم بين - سبحانه - للناس عن طريق المشاهدة صغر حجمهم بالنسبة إلى بعض خلقه - تعالى - فيقول : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

---

(١) سورة فاطر . الآية ٢

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢٤ ص٧٨ .

أى : لخلق السموات والأرض إبتداء وبدون مثال سابق، أكبر وأعظم من خلق الناس، ومما لا شك فيه أن من قدر على خلق الأعظم، فهو على خلق ما هو أقل منه أقدر وأقدر، ولكن أكثر الناس لاستيلاء الغفلة والهوى عليهم، لا يعلمون هذه الحقيقة الجلية.

وقوله - تعالى - «أكبر من الناس» إنما هو من باب تقريب الأشياء إلى الفهم، فمن المعروف بين الناس أن معالجة الشىء الكبير أشد من معالجة الشىء الصغير، وإن كان الأمر بالنسبة إلى الله - تعالى - لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير، إذ كل شىء خاضع لإرادته، كما قال - سبحانه - «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون».

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: كيف اتصل قوله: «لخلق السموات والأرض...» بما قبله؟

قلت: إن مجادلتهم فى آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها. فحجوا بخلق السموات والأرض، لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهما، وبأنهما خلق عظيم لا يقادر قدره. وخلق الناس بالقياس إلى خلقهما شىء قليل، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما، كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر...»(١).

وقوله - تعالى -: «وما يستوى الأعمى والبصير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء...» نفى لعدم المساواة بين الأخيار والأشرار. والمتقين والفجار..

أى: كما أنه لا يصح فى عرف أى عاقل المساواة بين الأعمى والبصير، كذلك لا تصح المساواة بين المؤمنين الذين قدموا فى دنياهم العمل الصالح، وبين الكافرين والفاسقين الذين لطخوا حياتهم بالعمل السىء، والفعل القبيح..

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص١٧٤

والفظ « قليلا » في قوله - تعالى - : « قليلا ما تتذكرون » مفعول مطلق، وهو صفة لموصوف محذوف ، و « ما » مزيدة للتأكيد . أي : تذكرا قليلا تتذكرون .

ثم أكد - سبحانه - مجيء الساعة في الوقت الذي يختاره - تعالى - فقال : « إن الساعة لآتية لا ريب فيها » أي : لا ريب ولا شك في مجيئها في الوقت الذي يشاؤه - عز وجل - « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم . .

ثم أمر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء فقال : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . . . » .

أي : وقال ربكم - أيها المؤمنون - تضرعوا إلى بالدعاء ، وتقربوا إلى بالطاعات ، أستجب لكم ، ولا أخيب لكم رجاء .

ولا تنافي بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله - تعالى - ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من ألوان العبادة ، بل هو مخها كما جاء في الحديث الشريف .

والإنسان الذي التزم في دعائه الآداب والشروط المطلوبة ، كان دعاؤه جديراً بالإجابة ، فقد حكى لنا القرآن الكريم في آيات كثيرة ، أن الأنبياء والصالحين ، عندما دعوا الله - تعالى - أجاب لهم دعاءهم . ومن ذلك قوله - تعالى - : « ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم »(1) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يستكبرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » أي :

---

(١) لمعرفة آداب الدعاء وشروطه وفضله . . راجع كتابنا « الدعاء » طبع مجمع البحوث الإسلامية .

إن الذين يستكبرون عن طاعتى، وعن التقرب إلى بما يرضينى، سيدخلون يوم القيامة نار جهنم حالة كونهم أذلاء صاغرين.

فقوله: «داخرين» من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع. يقال: دخر فلان يدخر دخورا إذا ذل وهان.

هذا، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تتصل بموضوع الدعاء فارجع إليه إن شئت(١).

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - مصير الذين يستكبرون عن عبادته، أتبع ذلك ببيان ألوان من النعم التى أنعم بها على عباده. كنعمة السماء والأرض، ونعمة خلق الإنسان ورزقه من الطيبات، ونعمة الليل والنهار.. فقال - تعالى -:

«اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٤٢.

طِفلاً ، ثم لتبلُغوا أَشُدَّكُم ، ثم لِتَكونُوا شُيوخاً ، وَمِنْكم من يُتوفى من قبلُ ، وَلِتبلُغوا أَجَلاً مسمًّى وَلَعلكُم تَعْقلُونَ (٦٧) هوَ الذى يُحيي وَيُميتُ فإِذَا قضَى أَمراً فإنما يَقولُ كُنْ فيَكونُ (٦٨) » .

فقوله - تعالى - : « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » بيان لنعمتى الليل والنهار اللتين أنعم بهما - سبحانه - على الناس .

أى : الله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل لتسكنوا فيه ، وتستريحوا من عناء العمل بالنهار وهيأه لهذه الاستراحة بأن جعله مظلما ساكنا ...

وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مبصراً ، أى : جعله مضيئا مسفراً ، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصاره من الأشياء المتنوعة .

قال صاحب الكشاف : « قوله « مبصرا » هو من الإسناد المجازى لأن الإبصار فى الحقيقة لأهل النهار .

فإن قلت . لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما ، فيراعى حق المقابلة ؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قال : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز »[1] .

وقوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله - تعالى - عليهم .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٦ .

أى : إن الله - تعالى - لصاحب فضل عظيم على الناس جميعا ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على آلائه ونعمه ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشهوات عليهم .

وقال - سبحانه - « لذو فضل » بالتنكير ، للإشعار بأنه فضل لا تحيط به عبارة أو وصف .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء ... » يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه وهو الله - عز وجل - .

و « ذلكم » مبتدأ ، وما بعده أخبار متعددة .

أى : ذلكم الذى أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله - تعالى - ربكم خالق كل شىء فى هذا الوجود ، لا إله إلا هو فى هذا الكون ..

وقوله - تعالى - : « فأنى تؤفكون » تعجيب من انصرافهم - بعد هذه النعم - عن الحق إلى الباطل ، وعن الشكران إلى الكفران .

أى : فكيف تنقلبون عن عبادته - سبحانه - إلى عبادة غيره ، مع أنه - عز وجل - هو الخالق لكل شىء ، وهو صاحب تلك النعم التى تتمتعون بها .

وقوله - تعالى - : « كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون » بيان لحال الذين وقفوا من نعم الله - تعالى - موقف الجحود والكفران .

ويؤفك هنا بمعنى القلب والصرف عن الشىء ، من الأفك - بالفتح - مصدر أفك عن الشىء بمعنى صرفه عنه - وبابه ضرب - ومنه قوله - تعالى - : « قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ... » أى : لتصرفنا عن عبادتها .

والمعنى : مثل ذلك الصرف العجيب من الحق إلى الباطل ، ينصرف وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم ، والذين كانوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يجحدون ويكفرون .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر نعمه عن طريق الزمان - الليل والنهار - أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان - الأرض والسماء - فقال : « الله الذى جعل لكم الأرض قراراً » ، أى : جعل الأرض مكانا لاستقراركم عليها ، والسعى فيها . .

« والسماء بناء » ، أى : وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنيه المضروبة فوق رءوسكم ، فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد . .

قال الآلوسى قوله : « والسماء بناء » أى : قبة ، ومنه أبنية العرب لقبابهم التى تضرب . وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه ، وهو تشبيه بليغ ، وفيه إشارة لكرويتها ، وهذا بيان لفضله - تعالى - المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان »[1].

وقوله : « وصوركم فأحسن صوركم » بيان لفضله - تعالى - المتعلق بذواتهم .

أى : جعل لكم الأرض مستقرا ، والسماء بناء ، وصور أشكالكم فى أحسن تقويم ، وأجمل هيئة ، كما قال - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

« ورزقكم من الطيبات » ، أى : ورزقكم من الرزق الطيب الحلال المستلذ .

« ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » ، أى : ذلكم الذى أعطاكم تلك النعم المتعلقة بزمانكم ، ومكانكم ، وذواتكم ، ومطعمكم ومشربكم ، هو الله ربكم الذى تولاكم بتربيته ورعايته فى جميع أطوار حياتكم . فتبارك الله - تعالى - وتعاظم فى ذاته وفى صفاته ، فهو رب العالمين ومالك أمرهم .

« هو الحى » ، أى : هو - سبحانه - المنفرد بالحياة الدائمة الباقية . .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٨٣ .

« لا إله إلا هـــو » إذ لا موجود يدانيه لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . .

« فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » أى : فاعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، وأطيعوه طاعة لا مكان معها للتردد أو التكاسل ، حالة كونكم قائلين الحمد لله رب العالمين .

قال ابن جرير : « كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال لا إله إلا الله ، أن يتبعها بقوله : « الحمد لله رب العالمين » عملا بهذه الآية» [١].

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يوبخ به المشركين فقال : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى .... » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يطلبون منك مشاركتهم فى عبادة آلهتهم : قل لهم إنى نهيت من ربى وخالقى ومالك أمرى عن عبادة غيره - تعالى - ، والسبب فى ذلك أن كل الدلائل والبراهين التى أكرمنى - سبحانه - بها ، تشهد وتصرح بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده .

فقوله : « لما جاءنى البينات من ربى » بيان السبب الذى من أجله نهاه ربه عن عبادة غيره ، وهذه البينات تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية .

وقوله : «وأمرت أن أسلم لرب العالمين» أى : إنى بعد أن نهانى ربى عن عبادة غيره ، أمرنى بأن أسلم وجهى إليه بالعبادة والطاعة ، إذ هو وحده رب العالمين ومالك أمرهم .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى خلق الإنسان فى أطوار مختلفة ،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٤ ص ٥٣ .

فقال - تعالى - : « هو الذى خلقكم من تراب » أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فرع عنه .

« ثم من نطفة » وأصل النطفة : الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة .

« ثم من علقة » والعلقة قطعة من الدم المتجمد .

« ثم يخرجكم طفلا » أى : ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا ، بعد أن تكامل خلقكم فيها . فقوله : « طفلا » اسم جنس يصدق على القليل والكثير .

« ثم لتبلغوا أشدكم » بعد ذلك ، بعد أن تنتقلوا من مرحلة الطفولة ، إلى المرحلة التى تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم .

« ثم لتكونوا شيوخا » بعد ذلك ، بأن تصلوا إلى السن التى تتناقص فيها قوتكم ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله « لتبلغوا » ، أو معمولة لمحذوف كالجمل التى تقدمتها ، أى : ثم يبقيكم لتكونوا شيوخا .

« ومنكم من يتوفى من قبل » أى : ومنكم من يدركه الموت من قبل أن يدرك سن الشيخوخة ، أو سن الشباب ، أو سن الطفولة .

وقوله - تعالى - : « ولتبلغوا أجلا مسمى » معطوف على مقدر . أى فعل ذلك بكم لكى تعيشوا ، ولتبلغوا أجلا مسمى تنتهى عنده حياتكم ، ثم تبعثون يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقوله : « ولعلكم تعقلون » أى : ولعلكم تعقلون عن ربكم أنه هو الذى يحييكم يوم القيامة كما أماتكم ، وكما أنشأكم من تلك الأطوار المتعددة وأنتم لم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكوراً .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الزاخرة بكثير من النعم بقوله - تعالى -: « هو الذى يحيى » من يريد إحياءه « ويميت » من يشاء إماتته .

« فإذا قضى أمرا » أى: فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى هذا الوجود « فإنما يقول له » أى لهذا الأمر « كن فيكون » فى الحال بدون توقف على سبب من الأسباب ، أو علة من العلل .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين ، بأن يبين له سوء عاقبتهم يوم القيامة ، وبأن أمره بالصبر على كيدهم ، وبشره بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ... فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ

أَنْ يأْتِيَ بآيةٍ إلا بإذْنِ اللهِ ، فإذَا جاء أمرُ اللهِ قُضِيَ بالحقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُبْطلونَ (٧٨) » .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله .. » للتعجب من أحوال هؤلاء المشركين، حيث أنكروا الحق الواضح وانساقوا وراء الأوهام والأباطيل .

والمعنى : أنظر ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى أحوال المشركين ، وتعجب من سلوكهم الذميم ، حيث جادلوا فى الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته بدون علم أو حجة .

وقوله : « أنى يصرفون » أى : أنظر كيف يصرفون عن آيات الله الموجبة للإيمان بها ، إلى الجحود والتكذيب والجدال بالباطل فيها ؟

لقد كان من المنتظر منهم أن يهتدوا إلى الحق بعد أن وصل إليهم .. ولكنهم عدلوا وصموا عنه ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

وقوله : « الذين كذبوا بالكتاب ... » بدل من قوله « الذين يجادلون فى آيات الله » .

أى : تعجب من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الكريم ، الذى أنزلناه إليك ـ يا محمد ـ لتخرجهم به من الظلمات إلى النور .

وكذبوا ـ أيضا ـ « بما أرسلنا به رسلنا » من سائر الكتب والمعجزات . فهم لم يكتفوا بالتكذيب بك بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم بكل كتاب ورسول .

وقوله ـ تعالى ـ : « فسوف يعلمون » وعيد شديد لهم على تكذيبهم بالرسل وبكتبهم ، أى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله ـ تعالى ـ ولكتبه التى أنزلها عليهم .

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذا الوعيد ، وبين ما أعده لهم من عذاب فقال : « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون » .

و « إذ » هنا ظرف بمعنى « إذا » وهو متعلق بيعلمون ، وعبر - سبحانه - بالظرف الدال على المضى ، للدلالة على تحقق الخبر ، حتى لكأن العذاب قد نزل بهم فعلا .

والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد يوضع فى اليد والعنق فيجمعهما .

والسلاسل: جمع سلسلة ،وهى مايربط بها الجانى على سبيل الإذلال له.

والحميم : الماء البالغ أقصى درجات الحرارة .

ويسجرون : مأخوذ من سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود .

والمعنى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة ، وقت أن توضع الأغلال والقيود فى أعناقهم ، ثم يسحبون ويجرون إلى الحميم بعنف وإهانة ، ثم يلقى بهم فى النار التى تملىء بهم ، ويكونون وقودا لها .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : وهل قوله : « فسوف يعلمون. إذ الأغلال . . . » إلى مثل قولك : سوف أصوم أمس ؟

قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله - تعالى - متيقنة مقطوعا بها ، عبر عنها بلفظ ما كان ووجد . والمعنى على الاستقبال ... » (1) .

وقوله - تعالى - « ثم قيل لهم أين ما كنتم تعبدون » تبكيت وتأنيب لهم . أى : ثم قيل بعد هذا العذاب المهين لهم : أين تلك الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ، لكى تدفع عنكم شيئا من العذاب الأليم الذى نزل بكم ؟.

وقوله « قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا . . . » حكاية لجوابهم الذى يدل على حسرتهم وبؤسهم .

(1) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٧٨ .

أى: قالوا: ذهبوا وضاعوا وغابوا عنا ولم نعد نعرف لهم طريقا، ولا هم يعرفون عنا طريقا، ثم أضربوا عن هذا القول توهما منهم أن هذا الإضراب ينفعهم فقالوا : بل لم نكن نعبد من قبل فى الدنيا شيئا يعتد به ، وإنما كانت عبادتنا لتلك الآلهة أوهام وضلال ...

وقوله - تعالى - « كذلك يضل الله الكافرين » أى مثل هذا الضلال البين والتخبط الواضح ، يضل الله - تعالى - الكافرين ، ويجعلهم يتخبطون فى إجاباتهم على السائلين لهم .

ثم بين سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى هذا العذاب المهين فقال : « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » .

وقوله « تمرحون » من المرح وهو التوسع فى الفرح مع الأشر والبطر .

أى : ذلكم الذى نزل بكم من العذاب ، بسبب فرحكم وبطركم فى الأرض بالباطل ، وبسبب مرحكم وأشركم وغروركم فيها .

وحق عليكم أن يقال لكم بسبب ذلك: ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبديا ، فبئس « مثوى » أى : مكان « المتكبرين » عن قبول الحق جهنم .

وقال - سبحانه - فبئس مثوى المتكبرين ، ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين ، للاشارة إلى خلودهم فى جهنم ، إذ الثواء معناه الإقامة الدائمة ، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا قام به إقامة دائمة .

ثم ذكر الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - الوصية بالصبر فقال : « فاصبر إن وعد الله حق ، فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » .

وقوله : « فإما نرينك » أصله : فإن نرك ، فزيدت « ما » لتوكيد « إن »

الشرطية ، وجوابها محذوف، وقوله « أو نتوفينك » جوابه « فإلينا يرجعون »

والمعنى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك يا محمد ، فاصبر على جدالهم بالباطل ، إن وعد الله - تعالى - بتعذيبهم وبنصرك عليهم حق .

فإن نرك بعض الذى نعدهم به من القتل والأسر والهزيمة فيها ونعمت ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا مرجعهم يوم القيامة ، فنجازيهم بما يستحقون من عقاب .

فالآية الكريمة تأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بمداومة الصبر ، وتحض على تبليغ ما أنزل إليه من ربه بدون كلل أو ملل، ثم بعد ذلك يترك النتائج لله - تعالى - يسيرها كيف يشاء ، فإما أن يطلعه على ما توعد به أعداءه ، وإما أن يتوفاه قبل ذلك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(١) .

ثم ساق - سبحانه - تسلية أخرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال: « ولقد أرسلنا رسلا . . » أى : رسلا كثيرين « من قبلك » أى من قبل إرسالك إلى الناس .

« منهم من قصصنا عليك » كنوح وهود وصالح وإبراهيم . . وغيرهم .

« ومنهم من لم نقصص عليك » أخبارهم وأحوالهم لأن حكمتنا قد اقتضت ذلك .

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما »(٢) .

---

(١) سوره الرعد الآية ٤٠

(٢) سورة النساء الآية ١٦٤

والمراد بالآية فى قوله - تعالى - « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ... » المعجزة الخارقة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى بمعجزة من عند نفسه ، وإنما يأتى بها بإذن الله - تعالى - ومشيئته ، إذ المعجزات جميعا عطايا من الله - تعالى - لرسله لتأييدهم فى دعوتهم .

« فإذا جاء أمر الله » أى : فإذا جاء الوقت الذى حدده - سبحانه - لعذاب أعدائه « قضى بالحق » أى : قضى بين الناس جميعا بالحق ، فينجى - سبحانه - بقضائه العادل عباده المؤمنين .

« وخسر هنالك المبطلون » أى : وخسر عند مجىء أمر الله « عند القضاء بين خلقه المبطلون ، وهم الذين ماتوا مصرين على كفرهم أوفسوقهم عن أمره .

كما قال - تعالى - فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « ولله ملك السموات والأرض ، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » .

* * *

ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة ، جانبا آخر من نعمه على عباده ، ووبخ الفاسقين على عدم اعتبارهم بأحوال من سبقهم من الأمم ، وهددهم بأنهم عند مجىء العذاب الأليم لن ينفعهم إيمانهم .. فقال - تعالى - :

« اللهُ الذى جعَلَ لكُمُ الأنعامَ لتركبُوا منْها ومنها تأكُلُونَ (٧٩) وَلكُم فيها منافعُ وَلتبْلغُوا عليها حاجةً فى صدورِكُم ، وَعليها وَعَلَى الفُلْكِ تحملونَ (٨٠) ويريكم آياتهِ فأىَّ آياتِ اللهِ تُنكِرونَ (٨١) أفلَمْ يَسيروا فى الأرْضِ فَينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ من قبلهِم كانوا أكثرَ منهم وَأَشَدَّ قوةً وآثاراً فى الأرْضِ ، فما أغنَى عنهم

ما يَكْسِبُونَ (٨٢) فلمّا جاءتهم رسُلُهم بالبيِّنَاتِ فَرِحُوا بما عندَهم من العِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانوا به يستهزِئُونَ (٨٣) فلمّا رأَوا بأسَنا قالوا آمنَّا باللهِ وَحْدَه، وكفَرْنا بما كُنَّا به مشركينَ (٨٤) فلَمْ يَكُ ينفَعهم إيمانُهم لمَّا رَأَوْا بَأسنَا، سنَّةَ اللهِ التى قد خلَتْ فى عبادِه، وَخَسِرَ هنالِكَ المُبطِلُونَ (٨٥) ».

وقوله - تعالى - «الله الذى جعل لكم الأنعام ...» بيان لنعمة أخرى من نعمه التى تتعلق بما سخره - سبحانه - لخدمة الإنسان من دواب، بعد بيانه قبل لكثير من النعم التى تتعلق بالليل والنهار، والسماء والأرض ... الخ.

والأنعام جمع نعم وأطلق على الإبل والبقر والغنم، قالوا والمراد بها هنا: الإبل خاصة، لأن معظم المنافع التى ذكرت هنا توجد فيها.

أى: الله - تعالى - هو الذى خلق لكم بقدرته الإبل «لتركبوا منها ومنها تأكلون» أى لتركبوا بعضا منها، ولتأكلوا بعضا آخر منها. فمن فى الموضعين للتبعيض.

«ولكم فيها منافع» أخرى غير الأكل وغير الركوب، كالانتفاع بألبانها وأوبارها وجلودها ...

«ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم» أى: ومن منافعها - أيضا - أنكم تستعملونها فى الأمور الهامة كحمل الأثقال، والانتقال عليها من مكان إلى مكان ...

كما قال - تعالى - «وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم»(1).

(1) سورة الجاثية الآية ٢٧.

« وعليها وعلى الفلك تحملون » أى : وعلى هذه الإبل فى البر وعلى السفن فى البحر تحملون .

كما قال ـ تعالى ـ : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ... »(١) .

هذا ، ولا مانع من أن يكون المراد بالأنعام هنا ما يشمل الإبل والبقر والغنم وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير ، فقد قال : يقول ـ تعالى ـ ممتنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام ا وهى: الإبل والبقر والغنم ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ، وتحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أوبارها وأصوافها وأشعارها ، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة ... »(٢) .

وقوله ـ تعالى ـ « ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون » تعجب من غفلتهم عن هذه الآيات المبثوثة فى الكون . والتى تدل جميعها على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته .

ولفظ « أى » منصوب بقوله « تنكرون » وقدم وجوبا لأن له صدر الكلام .

أى : أنه ـ سبحانه ـ فى كل وقت وحين يريكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته ، فقولوا لى . آية تلك الآيات تنكرون دلالتها على ذلك ؟

إنها جميعا تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها ؟

---

(١) سورة الزخرف آية ٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٧ .

فالآية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى، مع أن كل شيء في هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار.

ثم وبخهم - سبحانه - مرة أخرى لعدم إتعاظهم بمصارع الغابرين فقال: «أفلم يسيروا في الأرض. فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ...».

أي: أقبعوا في بيوتهم، فلم يسيروا في أقطار الأرض، فينظروا كيف كانت عاقبة الأمم المكذبة من قبلهم، كقوم صالح وقوم لوط، وقوم شعيب وغيرهم.

فالاستفهام للتوبيخ والتأنيب، والفاء في قوله: «أفلم ...» للعطف على مقدر.

ثم فصل - سبحانه - حال الذين كانوا من قبل كفار مكة فقال: «كانوا أكثر منهم» أي: في العدد «وأشد قوة» أي في الأبدان والأجسام «وآثارا في الأرض» أي: وكانوا أظهر منهم في العمران والحضارة والغنى.

«فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» أي أن هؤلاء الغابرين عند ما حل بهم عذابنا لم تغن عنهم شيئا كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم ... بل أخذناهم أخذ عزيز مقتدر في زمن يسير.

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم فقال: «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ...»

أي: فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاهلين، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة والزراعة ... واغتروا بتلك القشور التي كانوا يزعمون أنهم على شيء من العلم الديني، واستهزءوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدي إلى الرشد، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله.. واعتقدوا - لغبائهم - وانطماس بصائرهم - أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها ...

ورحم الله صاحب الكشاف فقد فصل القول عند تفسيره لهذه الآية فقال: قوله: «فرحوا بما عندهم من العلم» فيه وجوه: منها أنه أراد العلم الوارد على

سبيل التهكم فى قوله - تعالى - : « بل أدارك علمهم فى الآخرة ، وعلمهم فى الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب .

ومنها : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بنى يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم .

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال - تعالى - يعلمون ظاهراً من الحياة وهم عن الآخرة هم غافلون ، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ... لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها ، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به »[1] .

ويبدوا لنا أن هذا الرأى الأخير الذى ذكره صاحب الكشاف ، هو أقرب الآراء إلى الصواب .

وقوله - سبحانه - : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم .

أى : ونزل بهؤلاء الكافرين العذاب الأليم بسبب استهزائهم برسلهم ، وإعراضهم عن دعوتهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما أحاط بهم العذاب فقال : « فلما رأوا بأسنا » أى عاينوا عذابنا النازل بهم .

« قالوا » بفزع وخوف « آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين » أى : وكفرنا بما كنا به مشركين فى الدنيا من عبادة لغير الله - تعالى - وإعتماد على سواه .

وقد بين - سبحانه - أن إيمانهم هذا لن ينفعهم لأنه جاء فى غير وقته فقال

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٨١ .

« فلم يك ينفعهم إيمانهم » شيئا من النفع لأنه إيمان جاء عند معاينة العذاب، والإيمان الذى يدعى فى هذا الوقت لاقيمة له ، لأنه جاء فى وقت الإضطرار لافى وقت الاختيار ولفظ « سنة الله التى قد خلت فى عباده ... » منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف .

أى : سن الله - تعالى - ذلك ، وهو عدم نفع الإيمان عند حلول العذاب سنة ماضية فى الناس ، بحيث لاتتخلف فى أى زمان أومكان .

« وخسر هنالك الكافرون » أى : فى هذا الوقت الذى ينزل الله - تعالى - فيه العذاب على الكافرين يخسرون كل شىء ، بحيث لاتنفعهم لا أموالهم ولا أولادهم ولا آلهتهم التى كانوا يتوهمون شفاعتها .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « غافر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده :

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم - كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - مساء الثلاثاء

٩ من المحرم سنة ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥/٩/٢٤

فهرس إجمالي لتفسير «سورة غافر»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	٣٣٥
١	حم . . .	٣٤٠
٧	الذين يحملون العرش . . .	٣٤٥
١٠	إن الذين كفروا ينادون . . .	٣٤٨
١٣	هو الذى يريكم آياته . . .	٣٥١
٢٣	ولقد أرسلنا موسى . . .	٣٦٢
٢٨	وقال رجل مؤمن . . .	٣٦٨
٣٦	وقال فرعون يا هامان . . .	٣٧٨
٤٧	وإذ يتحاجون فى النار . . .	٣٨٦
٥٦	إن الذين يجادلون فى آيات الله . . .	٣٩١
٦١	الله الذى جعل لكم الأرض . . .	٣٩٦
٦٩	ألم تر إلى الذين يجادلون . . .	٤٠٢
٧٩	الله الذى جعل لكم الأنعام . . .	٤٠٧

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سورة فصلت

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

(الجزء الرابع والعشرون)

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتمهيد

١ — سورة «فصلت» هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة «غافر».

وهي من السور المكية الخالصة، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية في المصحف البصري والشامي، وثلاث وخمسون في المصحف المكي والمدني، وأربع وخمسون في المصحف الكوفي. وسورة «فصلت» تسمى - أيضا - بسورة السجدة، وحم السجدة، وبسورة المصابيح، وبسورة الأقوات[1].

٢ - والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل، يراها في مطلعها تمدح القرآن الكريم، وتذكر موقف المشركين منه ومن الرسول - صلى الله عليه وسلم -. وتلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يكبتهم، وتهددهم بالعذاب الأليم.

قال - تعالى - : «حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ....».

٣ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى -، عن طريق بيان خلقه للأرض وما اشتملت عليه من جبال وأقوات، ومن طريق

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ٢٤ ص ٩٤.

خلق السماء بطبقاتها المتعددة ، ومن طريق تزيين السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ...

قال - تعالى - : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم إستوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ... » .

٤ - وبعد أن هدد الله - تعالى - مشركى مكة بالعذاب الذى أصاب من قبلهم قوم عاد وثمود ، وفصل لهم موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم وكيف أنهم عندما كذبوا رسلهم وإستحبوا العمى على الهدى ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون ...

بعد كل ذلك تحدثت عن أحوالهم السيئة يوم يحشرون للحساب يوم القيامة، وكيف أن حواسهم تشهد عليهم فى هذا اليوم العصيب .

لنتدبر قوله - تعالى - : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء . وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ...

٥ - وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس ، وفى بيان عاقبة الاخيار والأشرار ، أتبعت السورة الحديث عن المشركين وسوء عاقبتهم ، بالحديث عن المؤمنين وحسن مصيرهم ، فقال - تعالى - : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم إستقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ... » .

٦ - ثم ساقت سورة « فصلت » أنواعا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال - تعالى - : « ومن آيات الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . . . » .

ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء إهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير .

٧ - ثم أخذت السورة فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وفى إقامة الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله .

قال - تعالى - : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ، ولو جعلناه قرآنا عجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد . . . » .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان أن مرد علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده ، وببيان طبيعة الإنسان فى حالتى اليسر والعسر ، وببيان أن حكمته - سبحانه - إقتضت أن يطلع الناس فى كل وقت على آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال - تعالى - : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط .

٩ - وبعد : فهذا عرض إجمالى لسورة « فصلت » ، ومنه نرى : أنها إهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وبأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبأن يوم القيامة حق لا ريب فيه .

كما اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين الذين استحبوا العمى على الهدى وببيان أحوالهم يوم القيامة ... وببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأحسنوا القول والدعوة إلى الله ... بأحسن البشارات وأفضلها ...

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الاسلامية والعربية

القاهرة ـ مدينة نصر
صباح الأربعاء : ١٤٠٦/١/١٠ هـ
١٩٨٥/٩/٢٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « حم (١) تَنزِيلٌ من الرَّحمن الرَّحِيمِ (٢) كتابٌ فُصِّلتْ آياته قرآنا عَربيًّا لقوم يَعلمونَ (٣) بشيراً ونذيراً فأعْرَض أكثرُهمُ فَهُمْ لا يسمَعُونَ (٤) وقَالوا قلوبُنَا فى أكنَّة ممَّا تدعُونَا إليه، ومن بيننا وبينِكَ حجابٌ، فاعملْ إنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إنَّما أَنا بَشَرٌ مثلكم يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهكم إلهٌ وَاحدٌ فاستَقِيمُوا إليه وَاستغفِرُوهُ وَوَيلٌ للمشركِينَ (٦) الذينَ لا يؤتونَ الزَّكاةَ وهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إنَّ الذينَ آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالحاتِ لهمْ أجْرٌ غيرُ مَمنُونٍ (٨) ».

سورة « فصلت » من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى.

والرأى الراجح فى هذه الحروف أنها جىء بها للإيقاظ والتنبيه على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى -، بدليل أنه مؤلف من جنس الحروف التى يتخاطب بها المشركون، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله.

وقوله : « تنزيل من الرحمن الرحيم » بيان لمصدر هذا القرآن، وقوله « تنزيل » خبر لمبتدأ محذوف.

أى : هذا القرآن ليس أساطير الأولين - كما زعم الجاحدون الجاهلون - وإنما هو منزل من عند الله - تعالى - صاحب الرحمة العظيمة الدائمة.

إذ لفظ « الرحمن » بمعنى عظيم الرحمة، لأن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشىء وعظمته، أما صيغة فعيل فتستعمل فى الصفات الدائمة ككريم،

فكأنه - تعالى - يقول : هذا الكتاب منزل من الله - تعالى - العظيم الرحمة الدائمة .

قال بعض العلماء : «وإنما خص هذان الوصفان بالذكر، لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية. فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشيء عن رحمته ولطفه بخلقه»(١) .

ثم أثنى - سبحانه - على هذا القرآن الذى أنزله بمقتضى رحمته وحكمته فقال : «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا» .

ومعنى : «فصلت آياته» : ميزت فى ألفاظها بفواصل ومقاطع، وميزت فى معانيها لاشتمالها على أنواع متعددة من المعانى الحكيمة .

وقوله «قرآنا» منصوب على المدح، أو على الحال من كتاب، و«عربيا» صفة للقرآن .

وقوله «لقوم يعلمون» متعلق بفصلت .

أى : هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - الذى وسعت رحمته كل شيء، وهو كتاب فصلت آياته ووضحت وميزت من حيث ألفاظها تفصيلا بليغا، إذ إشتملت على فواصل ومقاطع فيما بينها ليسهل فهمه وحفظه .

وفصلت آياته من حيث معانيها تفصيلا حكيما، إذ بعضها جاء لبيان ذاته وصفاته وأفعاله - تعالى -، وبعضها اشتمل على ألوان من نعمه التى لا تحصى وبعضها جاء بأسمى أنواع الهدايات والآداب والأحكام والقصص والمواعظ، وبعضها جا لتبشير المؤمنين بحسن الثواب، ولانذار الكافرين بسوء العقاب.

وخص - سبحانه - الذين يعلمون بالذكر، لأنهم هم الذين ينتفعون بما اشتمل عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته شامل لألفاظها ومعانيها.

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص ٢٨

قال صاحب الكشاف: «قوله: «لقوم يعلمون» أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى، لا يلتبس عليهم شىء منه.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: «لقوم يعلمون»؟

قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت، أى: تنزيل من الله لأجلهم. أو فصلت آياته لهم. والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أى: قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات...»(١).

وقوله - تعالى -: «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» بيان لموقف الناس من هذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم.

والمراد بالأكثر هنا: الكافرون الذين لم ينتفعوا بهدايات القرآن الكريم. أى: هذا القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور، فأعرض أكثرهم عن هداياته لاستحواذ الشيطان عليهم، فهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ، وإنما يسمعون بقلوب قاسية، وعقول خالية من إدراك معانيه، ومن الاستجابة له.

ونفى - سبحانه - سماعهم له، مع أنهم كانوا يسمعون من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن أصحابه، لأنهم لما سمعوه ولم يؤمنوا به.. صار سماعهم بمنزلة عدمه.

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على توغلهم فى الكفر والعناد فقال: «وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون» والأكنة: جمع كنان وهو الغطاء للشىء. و«الوقر» الصمم الذى يحول بين الإنسان وبين سماع ما يقال له.

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٨٤.

والحجاب : من الحجب بمعنى الستر لأنه يمنع المشاهدة ، ومنه قيل للبواب حاجب ، لأنه يمنع من الدخول .

أى : وقال الكافرون للنبى - صلى الله عليه وسلم - على سبيل تيئيسه من إيمانهم : إن قلوبنا قد كستها أغطية متكاثفة جعلتها لا تفقه ما تقوله لنا ، وما تدعونا إليه ، وإن آذاننا فيها صمم يحول بيننا وبين سماع حديثك وإن من بيننا ومن بينك حاجزاً غليظاً يحجب التواصل والتلاقى بيننا وبينك، وما دام حالنا وحالك كذلك فاعمل ما شئت فيما يتعلق بدينك، ونحن من جانبنا سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا .

وهذه الأقوال التى حكاها القرآن عنهم ، تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد، فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق وأسماعهم قد صمت عن سماعه ، وأشخاصهم قد أبت الإقتراب من شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يحمل لهم الخير والنور ، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان .

وصدق الله إذ يقول : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يرد به عليهم فقال : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : إنما أنا بشر مثلكم فى الصفات البشرية أوجدنى الله - تعالى - بقدرته كما أوجدكم ، وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم - عليه السلام - ، إلا أن الله - تعالى - قد اختص بوحيه ورسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ... هو إله واحد لا شريك له، فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله : « فاستقيموا إليه واستغفروه » أى : فالزموا الإستقامة فى طريقكم إليه - تعالى - بالإيمان به ، وطاعته والإخلاص فى عبادته .

وقوله - تعالى -: «وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» ، تهديد لهم بسوء المصير إذ إستمروا على عنادهم وشركهم .

والويل : لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه والمراد به هنا : الدعاء عليهم بالخزى والهلاك .

أى : فهلاك وخزى وعقاب شديد لهؤلاء المشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، أى : لا يؤمنون بها ، ولا يخرجونها إلى مستحقيها ، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها . . . وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

قال ابن كثير : «والمراد بالزكاة ها هنا : طهارة النفس من الأخلاق المرذولة . . .

وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير . .

وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكية . اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة - وهو الصدقة - كان مأموراً به فى إبتداء البعثة ، كقوله - تعالى - : «وآتوا حقه يوم حصاده» ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها فى المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين . . . »(١) .

وقال بعض العلماء : «قد إستدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه - تعالى- صرح فى هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم - سبحانه - بالويل على كفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء أقلنا إن الزكاة فى الآية هى زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات ، وإجتناب المعاصى .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٣

ورجح بعضهم - أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأبدان - لأن السورة مكية وزكاة المال المعروفة إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة .

وعلى أية حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الاسلام .

أعنى إمتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وما دلت عليه هذه الآية من أنهم مخاطبون بذلك ، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصى ، جاء موضحا فى آيات أخر كقوله - تعالى - : « ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين . . . » (١).

وخص - سبحانه - من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ، لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله للمحتاجين ، فذلك أقوى دليل على إستقامته ، وصدق نيته .

وقوله - تعالى - : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين .

أى : إن الذين آمنوا إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات ، لهم أجر عظيم غير « ممنون » أى غير مقطوع عنهم ، من مننت الحبل إذا قطعته ، أو غير منقوص عما وعدهم الله به ، أو غير ممنون به عليهم ، بل يعطون ما يعطون من خيرات جزاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا ، فضلا من الله - تعالى - وكرما .

● ● ●

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ هؤلاء المشركين على إصرارهم على كفرهم ، مع أن مظاهر قدرة الله - تعالى - الماثلة أمام أعينهم تدعوهم إلى الايمان ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ٧ ص١١٤ للشيخ محمد أمين الشنقيطى .

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) » .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أعلم أنه ـ تعالى ـ لما أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول للناس : قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . . أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه ـ تعالى ـ وبين هذه الأصنام فى الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض فى مدة قليلة . . . والاستفهام فى قوله « أئنكم لتكفرون . . . » بمعنى الإنكار ، وهو لإنكار شيئين : الكفر بالله . . . وجعل الأنداد له »[1] .

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين على سبيل الإنكار لأفعالهم : أئنكم لتكفرون بالله ـ تعالى ـ الذى خلق الأرض فى يومين .

قال الآلوسى : « وإن واللام فى قوله « أئنكم لتكفرون » لتأكيد الانكار . . وعلق ـ سبحانه ـ كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه ـ تعالى ـ ، واستعظام كفرهم به .

واليوم فى المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه هاهنا الوقت مطلقا ، لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٣٤٠ .

نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف، ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ، والأول أنسب بالمقام ... »[1] .

قال سعيد بن جبير ـ رضى الله عنه ـ: «إن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يخلق هذا الكون كله فى لحظة ، ولكنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ليعلم خلقه التثبت والتأنى فى الأمور » .

وقوله : « وتجعلون له أندادا » معطوف على قوله « تكفرون»، وداخل معه فى حكم الإنكار.

والأنداد : جمع ند . وهو مثل الشىء يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه شاردا.

أى : وتجعلون له أمثالا ونظراء تعبدونها من دونه ، وتسمونها ـ زورا وكذبا ـ آلهة، وجمع ـ سبحانه ـ الأنداد باعتبار واقعهم، لأنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة ـ ومنهم من عبد الكواكب .

واسم الإشارة فى قوله « ذلك رب العالمين » يعود إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة .

أى : ذلك الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب العالمين جميعا ، وخالق جميع المخلوقات ، والمتولى لتربيتها دون سواه .

وقوله : « وجعل فيها رواسى من فوقها .. » معطوف على «خلق الأرض فى يومين ».

والرواسى : جمع راس من الرسو ـ بفتح الراء وسكون السين ـ بمعنى الثبات والاستقرار فى المكان ، يقال : رسا الشىء إذا ثبت واستقر . وهو صفة لموصوف محذوف.

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٩٩ .

أى : وجعل فيها جبالا رواسى من فوقها ، لكى تستقر وتثبت ، ولا تميد أو تضطرب بكم .

وقال - تعالى - : « من فوقها » لبيان الواقع ، إذ وجود الجبال من فوق الأرض ، ومشاهدة الإنسان لذلك بعينيه ، يزيده إقتناعا بقدرة الله - تعالى - الباهرة ، وحكمته البليغة .

« وبارك فيها » أى : وجعلها مباركة زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع ، عن طريق الزروع والثمار المبثوثة فوقها، والمياه التى تخرج من جوفها . والكنوز التى تحصل من باطنها .

« وقدر فيها أقواتها » والأقوات : جمع قوت . والمراد بها أرزاق أهل الأرض وما يصلحهم .

أى : وجعل أقوات أهلها التى يحتاجون إليها فى معايشهم ومنافعهم ،على مقادير محددة معينة ، بحيث نشر فى كل قطر من أقطارها أقواتا تناسب أهله، وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم ،فيعمر الكون ، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم.

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى هذه الجملة - : « والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - أخبر أنه قدر فى الأرض أقوات أهلها ، وذلك ما يقوتهم من الغذاء ، ويصلحهم من المعاش . ولم يخصص - جل ثناؤه - بقوله « وقدر فيها أقواتها » أنه قدر فيها قوتا دون قوت ، بل عم الخبر عن تقديره فيها جميع الأقوات ... »[1] .

وقوله - تعالى - « فى أربعة أيام » متعلق بمحذوف يدل عليه ما قبله . أى : خلق الأرض ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها. وقدر

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٢٤ ص٦٢ .

فيها أقواتها فى تمام أربعة أيام ، فتكون المدة التى خلق فيها الأرض وما عليها أربعة أيام .

وقوله ـ سبحانه ـ : « سواء للسائلين » تأكيد لما دلت عليه الآية الكريمة من أن خلق كل من الأرض وما فيها وما عليها قد حدث فى أربعة أيام .

قال الآلوسى : « وقيدت الأيام الأربعة بقوله : « سواء » فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة الأيام . أى : ـ فى أربعة أيام ـ استوت سواء ، أى : استواء .

وقوله ـ تعالى ـ : « للسائلين » متعلق بمحذوف وقع خبر المبتدأ محذوف . أى : هذا الحصر فى أربعة ، كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض ، وما فيها . . . »[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما فيها ، ضعف مدة خلق السموات مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات وعجائب ؟

قلت : للتنبيه على أن الأرض هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ، ومن كثرة المنافع ، فزادت مدتها ليكون ذلك أدخل فى المنة على ساكنيها ، وللإعتناء بشأنهم وشأنها ـ أيضا ـ زادت مدتها لما فيها من الابتلاء بالمعاصى والمجاهدات والمعالجات . . »[2] .

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر قدرته فى خلق السماء ، فقال : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان . . » .

ومعنى استوائه ـ سبحانه ـ إلى السماء : ارتفاعه إليها بلا كيف أو تشبيه أو تحديد ، لأنه ـ سبحانه ـ منزه عن ذلك .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٠١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٢ .

والدخان : ما ارتفع من لهب النار . والمراد به هنا : ما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء ويصح أن يكون معنى : «ثم استوى إلى السماء» : «تعلقت إرادته ـ تعالى ـ بخلقها .

قال الآلوسى : قوله : «ثم استوى إلى السماء» أى : قصد إليها وتوجه ، دون إرادة تأثير فى غيرها . من قولهم : استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه لا يلوى على غيره ...

وقوله : «وهى دخان» أى أمر ظلمانى ولعله أريد بها مادتها التى منها تركبت ...»[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : «فقال لها وللأرض ائتياطوعا أو كرها ...» بيان لما وجه ـ سبحانه ـ إليهما من أوامر .

والمراد بإتيانهما : انقيادهما التام لأمره ـ تعالى ـ .

أى : فقال ـ سبحانه ـ للسماء وللأرض أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد ، فأنت يا سماء : أبرزى ماخلقت فيك من شمس وقمر ونجوم... وأنت يا أرض أخرجى ما خلقت فيك من نبات وأشجار وكنوز .

قال الفخر الرازى : «والمقصود من هذا القول: إظهار كمال القدرة ، أى : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصابهما على الحال ، بمعنى طائعين أو مكرهين ...»[2] .

وقوله : «قالتا أتينا طائعين» بيان لامتثالهما التام لأمره ـ تعالى ـ .

أى : قالتا: فعلنا ما أمرتنا به منقادين خاضعين مستجيبين لأمرك ، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٤ ص١٠٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص٣٠٣

قال القرطبي : «وقوله : « قالتا أتينا طائعين » فيه وجهان: أنه تمثيل لظهور الطاعة منهما ، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ، ومنه قول الراجز :

امتــــلأ الحوض وقال قطني مهلا رويدا قد ملأت بطني

يعنى ، ظهر ذلك فيه .

وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله - تعالى - فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد - سبحانه -[1] .

وجمعهما - سبحانه - جمع من يعقل، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء .

ثم فصل - سبحانه - بديع صنعه فى خلق السموات فقال : فقضاهن سبع سماوات فى يومين . . . » أى : ففرغ من خلقهن وتسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع ، فى مقدار يومين .

والضمير فى قوله « فقضاهن » إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات .

وقوله : « وأوحى فى كل سماء أمرها » أى : وأوحى فى كل منها ما أراده وما أمر به ، وخلق فيها ما اقتضته حكمته من الملائكة ومن خلق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

وقوله : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا » أى : وزينا السماء الدنيا أى القريبة منكم - بكواكب مضيئة ، وحفظناها حفظا عظيما من الاختلال والاضطراب والسقوط « ذلك » الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض ، وخلق ما فيهما .

« تقدير العزيز العليم » أى : تقدير الله - القاهر لكل شىء . والعليم بما ظهر وبما بطن فى هذا الكون .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٤٤ .

وقد أخذ العلماء من هذه الآيات الكريمة أن خلق الأرض وما عليها من جبال ومن أقوات للعباد قد تم فى أربعة أيام . وأن خلق السموات كان فى يومين فيكون مجموع الأيام التى خلق الله - تعالى - فيها السموات والأرض وما بينهما ستة أيام .

وقد جاء ذلك فى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام . . . »(1)

وقوله - سبحانه - : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب . . . »(2).

كما أخذ العلماء منها - أيضا - ، أن خلق الأرض متقدم على خلق السموات بدليل قوله - تعالى - بعد حديثه عن خلق الأرض « ثم استوى إلى السماء وهى دخان . . .

وبدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات . . »(3).

وعلى هذا الرأى سار جمهور العلماء ، وردوا على من قال بأن خلق السموات متقدم على خلق الارض ، لأن الله - تعالى - يقول فى سورة النازعات : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها - أى : بسطها .

ردوا عليهم بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين الآيات التى معنا ، وبين آيات سورة النازعات فقال : إنه - تعالى - خلق الأرض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغيرها .

(1) سورة الأعراف آية ٥٤
(2) سورة ق آية ٣٨ .
(3) سورة البقرة آية ٢٩ .

أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها كان بعد خلق السماء. وردوا عليهم - أيضا - بأن لفظ « بعد » فى قوله - تعالى - « والأرض بعد ذلك دحاها » بمعنى مع، أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها فيها .

وردوا عليهم - أيضاً - بأنه - تعالى - لما خلق الأرض غير مدحوة ، وهى أصل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه قد خلق بالفعل لوجود أصله فيها .

قال بعض العلماء : « والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع ، - وإن لم يكن موجودا بالفعل - قوله - تعالى - : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... » .

فقوله : « خلقناكم ثم صورناكم ، أى : بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذى هو أصلكم »(1).

كما أخذ منها العلماء أن وجود هذا الكون ، بتلك الصورة البديعة ، المتمثلة فى هذه الأرض وما أقلت ، وفى هذه السموات وما أظلت ... من أكبر الأدلة التى تحمل العقلاء على إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

* * *

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ، انتقلت السورة إلى تهديد المشركين ، وإنذارهم بأن عاقبتهم ستكون كعاقبة الظالمين الذين سبقوهم ، فقال - تعالى - :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤)

(1) أضواء البيان جـ ٧ ص ١٢٠ للشيخ الشنقيطى .

فَأَمَّا عادٌ فاستكبَرُوا فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ وقالوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قوةً ، أَوَلم يَرَوْا أنَّ اللهَ الذى خَلقَهم هو أَشَدُّ مِنهم قُوَّةً ، وكانوا بآياتِنا يجْحَدُونَ (١٥) فأَرْسَلنا عليهم رِيحاً صَرْصَراً فى أيامٍ نحِسات لِنذِيقَهم عذابَ الخِزْى فى الحيـاةِ الدُّنيا ، ولَعَذابُ الآخرةِ أَخزَى وهُمْ لا يُنصَرُون (١٦) وأَمَّا ثمودُ فهَدَيْناهُمْ فاستَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى ، فأَخَذَتْهُم صَاعِقَةُ العذابِ الهونِ بما كانُوا يَكسِبُونَ (١٧) ونجَّيْنَا الذينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقُونَ (١٨) » .

ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات والتى قبلها روايات تتعلق بما بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بعض المشركين منها ماذكره محمد ابن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوما لقريش - ورسول الله صلى الله عليه وسلم- جالس فى المسجد وحده - : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد،فقم إليه فكلمه .فقام إليه عتبة فقال : يامحمد، يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السطة-أى من الشرف - فى العشيرة وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .

ثم قال : إن كنت - يابن أخى - تريد مالا أعطيناك من المال حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد ملكا جعلناك ملكا علينا .... وإن كان الذى يأتيك رئيا تراه - أى ترى بعض الجن - طلبنا لك الطب حتى تبرأ .

فلما فرغ عتبة قال - صلى الله عليه وسلم - : أفرغت يا أبا الوليد ؟قال : نعم . قال:فاسمع منى قال : افعل . فتلا عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - من أول سورة «فصلت» .

ـ وفى رواية أنه لما بلغ قوله ـ تعالى ـ : «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ...» قال له عتبة : حسبك ماعندك غيرهذا .

ثم عاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم عتبة بوجه غير الذى ذهب به . فلما جلس إليهم ، قالوا له : وراءك يا أبا الوليد ؟

فقال : لقد سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قولا ما سمعت مثله قط والله ماهو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى. خلوا بين الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ .

فقالوا : لقد سحرك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم»(١) .

فقوله ـ تعالى ـ : «فأن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» تهديد لهؤلاء المشركين ، بعد أن وضح الحق لهم فى أكمل صورة ..

والصاعقة ـ كما يقول ابن جرير ـ : «كل أمر هائل رآه الرائى أوعاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ، يكون مصعوقاً ...»(٢) .

والمراد بها هنا : العذاب الشديد الذى أنزله الله ـ تعالى ـ على قوم عاد وثمود فصعقهم وأهلكهم .

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين : لقد أقمت لكم الأدلة الناصعة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى عظيم قدرته ، وعلى أنى رسول من عنده ، وصادق فيما أبلغه عنه .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٥٢
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٠

« فإن أعرضوا » عن دعوتك ، ولجوا فى طغيانهم، واستمروا فى كفرهم وعنادهم .

« فقل » لهم على سبيل التحذير : لقد « أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

وخص - سبحانه - عاد وثمود بالذكر . لأن مشركى قريش يعرفون ماجرى لهؤلاء الظالمين . إذ قوم عاد كانوا بالأحقاف - أى بالمكان المرتفع الكثير الرمال - فى جنوب الجزيرة العربية ورسولهم هو هود - عليه السلام - .

وأما ثمود فهم قوم صالح - عليه السلام - ، ومساكنهم كانت بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت آثارهم باقية وأهل مكة كانوا يمرون عليها فى طريقهم إلى بلاد الشام للتجارة .

والضمير فى قوله - تعالى - : « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم . ألا تعبدوا إلا الله . . . » يعود إلى قوم عاد وثمود .

والمراد بالرسل : هود وصالح - عليهما السلام - من باب إطلاق الجمع على الإثنين ، أو من باب إدخال من آمن بهما معهما فى المجىء إلى هؤلاء الأقوام لدعوتهم إلى عبادة الله وحده .

وقوله : « إذ جاءتهم الرسل . . . » حال من قوله « صاعقة عاد وثمود » وقوله « من بين أيديهم ومن خلفهم » متعلق بجاءتهم .

والمراد بالجملة الكريمة : أن الرسل بذلوا كل جهدهم فى إرشاد قوم عاد وثمود إلى الحق . ولم يتركوا وسيلة إلا إتبعوها معهم ، وبينوا لهم بأساليب متعددة حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين .

وقوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » بيان لما نصح به الرسل أقوامهم . و« أن » يصح أن تكون مصدرية أى : بأن لا تعبدوا إلا الله . ويصح أن تكون مخففة

من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف . أو تفسيرية لأن مجيء الرسل يتضمن قولا .

أى جاء الرسل إلى قوم عاد وثمود بكل دليل واضح على وجوب إخلاص العبادة لله ، ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم ، وقال لهم : إجعلوا عبادتكم لله - تعالى وحده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : «قوله : إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم . . ».

أى : أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض . كما حكى الله - تعالى - عن الشيطان أنه قال : «ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم . . . » يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة .

وعن الحسن : أنذروهم بعذاب الله الدنيوى والأخروى.

وقيل معناه : إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم ، بمعنى أن هـــودا وصالحا قد أمروهم بالإيمان بهما وبجميع الرسل الذين من قبلهم والذين من بعدهم ، فكان الرسل جميعا قد جاءوهم »(١).

وقوله - تعالى - : «قالوا لو شاء ربنا لأنزلنا ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » حكاية للرد السيء الذى رد به قوم عاد وثمود على رسلهم .

ومفعول المشيئة محذوف . أى : قال هؤلاء الكافرون أرسلهم على سبيل التكذيب لهم ، والتهكم بهم : أنتم لستم رسلا ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل إلينا رسلا لأرسل ملائكة ، وما دام الأمر كذلك فإنا بما أرسلتم به - أيها الرسل - كافرون ، وإلى ما تدعونا إليه مكذبون .

والسبب الذى حمل هؤلاء الجاهلين على هذا القول : زعمهم أن الرسل لا يكونون من البشر ، مع أن كل عقل سليم يؤيد أن الرسول لا يكون

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٩١ .

إلا من البشر كما قال ـ تعالى ـ : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .... » .

ثم فصل ـ سبحانه ـ بعد ذلك حال كل فريق منهم ، وبين ما نزل به من عذاب مهين فقال : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ... » .

أى : هذا هو قولهم على سبيل الإجمال لرسلهم ، وإليك جانبا من حال قوم عاد ، ومن أقوالهم الباطلة .

إنهم قد إستكبروا فى الأرض بغير الحق . وإغتروا بما بين أيديهم من نعم ، وقالوا على سبيل التباهى والتفاخر والتكبر : من أشد منا قوة .

وقيد إستكبارهم فى الأرض بأنه بغير الحق . لبيان واقعهم ، حيث كانوا كما وصفهم الله ـ تعالى ـ فى آيات أخرى متجبرين متعالين على غيرهم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين » .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ الذى حكاه عنهم « من أشد منا قوة » للإنكار والنفى

أى : لا أحد أقوى منا ، فنحن فى إستطاعتنا أن ندفع كل عذاب ينزل بنا ، وهذا هو الشعور الكاذب الذى يشعر به الطغاة الجاهلون فى كل زمان ومكان .

وقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم وعلى أمثالهم ردا منطقيا حكيما يخرس ألسنتهم فقال : « أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون » .

أى : أعموا وصموا عن الحق ، ولم يعلموا أن الله ـ تعالى ـ الذى أوجدهم من العدم ، هو ـ سبحانه ـ أشد منهم قوة وبأسا .

إنهم لغرورهم وجهالاتهم نسوا كل ذلك ، وكانوا بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا يجحدون ، ويعاندون وينكرون الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

ثم حكى - سبحانه - ما نزل بهم من عذاب بسبب إصرارهم على كفرهم ، وبسبب غرورهم وبطرهم فقال : « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . . » .

ولفظ « صرصرا » من الصر - بفتح الصاد - وهو شدة الحر ، أو من الصر - بكسر الصاد - وهو شدة البرد الذى يقبض البدن ، أو من الصرة التى هى الصيحة المزعجة . ومنه قوله - تعالى - « وأقبلت امرأته فى صرة . . . » أى : فى صيحة .

ولا مانع من أن تكون هذه الريح التى أرسلها الله - تعالى - عليهم ، قد اجتمع فيها الصوت الشديد المزعج ، والبرد الشديد القاتل .

وقوله : « نحسات » جمع نحسة - بفتح النون وكسر الحاء - صفة مشبهة من نحس - كفرح وكرم - ضد سعد .

أى : فأرسلنا على قوم عاد ريحا شديدة الهبوب والصوت ، وشديدة البرودة أو الحرارة فى أيام نحسات أو مشئومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزى لهم فى الحياة الدنيا .

« ولعذاب الآخرة أخزى » أى : أشد خزيا وإهانة لهم من عذاب الدنيا .

« وهم لا ينصرون » أى : وهم لا يجدون أحدا يدفع عنهم هذا العذاب بحال من الأحوال .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، حال ثمود وما نزل بهم من عذاب فقال : « وأما ثمود فهديناهم . . . . » .

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا ، فبيناهم عن طريقه

سبيل الرشاد وسبيل الغى . فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير .

« واستحبوا العمى على الهدى » أى : فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الغى على الرشد .

فالمراد بالعمى هنا الكفر والضلال ، والمراد بالهداية الإيمان والطاعة .

«فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » أى : فكانت نتيجة إيثارهم الكفر على الإيمان، وتصميمهم على ذلك . . أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم، والعذاب المبين الذى أبادهم، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب و قبائح.

وقد حكى ـ سبحانه ـ ما أنزله بعاد وثمود من عذاب فى آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعـالى ـ : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية» .

وقد ذكر بعضهم أن الأيام النحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد، كانت فى أواخر شهر شوال ، وأن أولها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها ـ أيضا ـ كان فى يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشاءم من هذا اليوم.

والحق أن ما ذكروه فى هذا الشأن لا دليل عليه ، ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم .

قال بعض العلماء بعد أن ذكر بعض الآثار التى ذكروها فى ان يوم الأربعاء يوم نحس :

« فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه، لأن أغلبها ضعيف، وما صح معناه منها فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم »[1].

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ١٢٤ للشيخ الشنقيطى .

ثم بين ـ سبحانه ـ فضله على المؤمنين ، ورحمته بهم فقال : «ونجينا الذين آمنوا . . .» أى ونجينا الذين آمنوا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة .

«وكانوا يتقون» أى : يتقون الله ـ تعالى ـ ، ويصونون أنفسهم عن كل مالا يرضيه .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، يوم يعلمون أن ماجاءهم به رسلهم حق لاريب فيه ، فقال ـ تعالى ـ :

«ويومَ يُحشَرُ أعداءُ اللهِ إلى النّار فَهُم يوزَعُونَ (١٩) حتَّى إذَا ماجَاءوهَا شهِدَ عليهِمْ سمْعُهم وأبصارُهُمْ وجلودُهم بما كانوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالوا لجُلُودِهِمْ لِمَ شهِدْتم علينا ، قَالوا أنطَقَنا اللهُ الذى أنطَقَ كلَّ شَىْء وَهُو خَلقَكُم أوّلَ مَرّةٍ وإليه تُرْجَعُونَ (٢١) وما كُنْتُم تستَتِرُونَ أَنْ يشهدَ عَليكُم سمعُكُمْ ولا أبْصَارُكُم ولا جُلودُكُم ، ولـكن ظَنَنتُم أنَّ اللهَ لا يعْلَمُ كثيراً مما تعمَلُونَ (٢٢) وذلِكُم ظنـكُم الذى ظَنَنتُم برَبكُم أرْداكُم فأصبَحْتُم من الخاسرِينَ (٢٣) فإنْ يَصْبِرُوا فالنَّارُ مَثوىً لَهُمْ وإن يستَعْتِبُوا فـا هُم من المُعتبِينَ (٢٤)» .

والظرف فى قوله : «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون» متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

وقوله : «يوزعون» من الوزع وأصله الكف، تقول : وزع فلان فلانا عن الشىء ، أى : كفه ومنعه عنه . ومنه قول الشاعر :

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى   من الناس ، إلا وافر العقل كامله

والمراد هنا : أن يكف أولهم ويمنع عن التحرك حتى يرد آخرهم فيلحق بأولهم ، بحيث يجتمعون جميعا للحساب ثم يدعون إلى نارجهنم .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم يحشر أعداء الله جميعا إلى النار، بعد أن حوسبوا على أعمالهم السيئة : « فهم يوزعون » أى : فهم يحبسون فى هذا اليوم العصيب حتى يلحق آخرهم بأولهم ، ويكفون جميعا عن الحركة حتى يقضى الله - تعالى - بقضائه العادل فيهم .

والتعبير بقوله : « أعداء الله » يدل على ذمهم ، وعلى أن ما أبهم من عذاب مهين ، إنما هو بسبب عداوتهم لله - تعالى - ولرسله - صلوات الله عليهم - ، حيث أعرضوا عن الحق الذى جاءهم به الرسل من عند ربهم .

والتعبير بقوله « يوزعون » يشعر بأنهم يحبسون ويمنعون عن الحركة بغلظة وزجر .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يعرضون على النار فقال: « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » .

والمراد بشهادة هذه الأعضاء عليهم : أنها تنطق - بإذن الله - تعالى - وتخبر بما اجترحوه من سيئات ، وبما فعلوه من قبائح .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: « فإن قلت « ما » فى قوله : « حتى إذا ما جاءوها » ما هى ؟

قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها . . .

فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟

قلت : الله - عز وجل - ينطقها . . . بأن يخلق فيها كلاما .

وشهادة الجلود بالملامسة للحرام . وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرمات . وقيل : المراد بالجلود الجوارح - وقيل : هو كناية عن الفروج . . . » (١) .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ١٩٥ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما يقـــوله هؤلاء الـكافرون لجوارحهم على سبيل التوبيخ والتعجيب فقال : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا . . . » .

أى : وقال هؤلاء الـكافرون لجلودهم التى تشمل جميع جـــوارحهم بتعجب وذهول : لمـاذا شهدتم علينا مع أننـا ما دافعنـا إلا عنكم . لـكى ننقذكم من النار ؟

وهنا ترد عليهم جوارحهم بقولها ـ كما حكى سبحانه عنها ـ « قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء . . . » .

أى : قالوا فى الرد عليهم: أنطقنا الله ـ تعالى ـ الذى أنطق كل شىء بقدرته التى لا يعجزهـا شىء . « وهو » ـ سبحـانه ـ الذى « خلقـكم أول مرة » ولم تـكونوا شيئا مذكورا .

« وإليه » وحده « ترجعون » فيحاسبكم على أعمالـكم ، ويحكم فيـكم بحكمه العادل .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث ، منها ما جاء عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم وتبسم فقال : « ألا تسألون عن أى شىء ضحكت»؟ قالوا : يارسول الله ، من أى شىءٍ ضحكت ؟ قال : عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ؟

يقول : أى ربى ، أليس قد وعدتنى أن لا تظلمنى ؟ قال : بلى . فيقول : فإنى لا أقبل على شاهدا إلا من نفسى . فيقول الله ـ تعالى ـ أو ليس كفى بى شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه ، وتتـكلم أركانه بما كان يعمل . فيقول : بعدا لـكن وسحقا ، فعنكن كنت أجادل »[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٩ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم ، بما كانوا يكسبون »(١) .

ثم حكى - سبحانه - ماسيقال لهؤلاء الكافرين يوم القيامة من جهته - تعالى - أو من جهة جوارحهم التى شهدت عليهم فقال - تعالى - : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » .

وقوله : « تستترون » من الاستتار بمعنى الاستخفاء ، « وما » نافية .
وقوله : « أن يشهد عليكم . . » فى موضع نصب على نزع الخافض أى : من أن يشهد عليكم .. أو مفعول لأجله .

أى : مخافة أو خشية أن يشهد عليكم سمعكم .

والمعنى : أن جوارحهم تقول لهم يوم القيامة على سبيل التبكيت : أنتم - أيها الكافرون - لم تكونوا فى الدنيا تخفون أعمالكم السيئة ، خوفا من أن تشهد عليكم ولكنكم كنتم تخفونها لاعتقادكم أن الله - تعالى - لا يعلم ما تخفونه من أعمالكم ، ولكنه يعلم ما تظهرونه منها .

وما حملكم على هذا الاعتقاد الباطل إلا جهلكم بصفات الله - تعالى - وكفركم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، واستبعادكم أننا سنشهد عليكم .

قال القرطبى : « قوله - تعالى - : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ... » يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم . ويجوز أن يكون من قوله الله - تعالى - لهم ، أو الملائكة .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ،

---

(١) سورة يس الآية ٦٥

قرشيان وثقفى، - أى شخص من قبيلة ثقيف - أو ثقفيان وقرشى، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم. فقال أحدهم: أترون الله - تعالى - يسمع ما نقول: فقال الآخر. يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

فأنزل الله - عز وجل -: «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم.. الآية».

فالآية الكريمة تنعى على المشركين جهالاتهم الفاضحة، حيث ظنوا أن الله - تعالى - لا يعلم الكثير من أعمالهم، وتنبه المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يعلموا أن الله - تعالى - معهم، ولا يخفى عليه شىء من أقوالهم أو أفعالهم، وأنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى ورحم الله من قال:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت. ولكن قل: على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليك يغيب

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة ظن هؤلاء الكافرين الجاهلين فقال: «وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم...».

و «ذلكم» اسم إشارة يعود إلى ظنهم السابق، وهو مبتدأ، وقوله: «أرادكم» خبره.

أى: وذلكم الظن ظننتموه بربكم، وهو أنه - سبحانه - لا يعلم كثيرا مما تعملونه سرا، هذا الظن «أرداكم» أى: أهلكم، يقال ردى فلان - كصدى - إذا هلك «فأصبحتم» أيها الكافرون «من الخاسرين» لكل شىء فى دنياكم.

«فإن تصبروا» عن العذاب «فالنار مثوى لهم» أى: فالنار هى المكان المعد لثوائهم فيه، ولبقائهم به بقاء أبديا. يقال: ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة.

«وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين» أى: وإن يطلبوا الرضا عنهم، فما هم

من المرضى عنهم، وإما هم من المغضوب عليهم، أو وإن يطلبوا منا الرجوع إلى ما يرضينا بأن نعيدهم إلى الدنيا، فما هم من المجابين إلى ذلك.

قال القرطبي: وأصل الكلمة من العتب - بفتح العين وسكون التاء - وهى الموجدة، يقال: عتب عليه يعتب - كضرب يضرب - إذا وجد عليه. فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه، قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب. والاسم العتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب. قال الشاعر:

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمته وإن كنت ذا عتبى فمثلك يعتب[1]

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة، قد بينت الأحوال السيئة التي يكون عليها الكافرون يوم القيامة، والمجادلات التي تدور بينهم وبين جوارحهم فى هذا اليوم العسير عليهم.

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التي أوقعتهم فى هذا المصير الأليم، ومن الأقوال السيئة التي كانوا يتواصون بها فيما بينهم، وعن عاقبة هذا التواصي الأثيم فقال - تعالى -:

« وَقَيَّضْنَا لَهُم قُرنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُم كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا، وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ».

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٢.

قال الجمل ما ملخصه : « قوله : « وقيضنا ... » أي : سببنا وهيأنا وبعثنا لهم قرناء يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض . والقيض قشر البيض ...

والتقييض - أيضا - التيسير والتهيئة ، تقول قيضت لفلان الشيء ، أي : هيأته ويسرته له .. »[1] .

والقرناء : جمع قرين ، وهو الصديق الملازم للشخص الذى لا يكاد يفارقه ، وله تأثير عليه والمراد بما بين أيديهم : شهوات الدنيا وسيئاتها . والمراد بما خلفهم : مايتعلق بالآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب .

والمعنى : إن حكمتنا قد اقتضت أن نهيء ونسبب لهؤلاء المشركين قرناء سوء ، هؤلاء القرناء يزينون لهم القبيح من أعمال الدنيا التى يعيشون فيها ، كما يزينون لهم إنكار مايتعلق بما خلفهم من أمور الآخرة ، كتكذيبهم بالبعث والحساب والجزاء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون »[2] .

وقوله - تعالى - : « وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس .. » بيان لما ترتب على استجابتهم لقرناء السوء ، وانقيادهم لهم انقياد التابع للمتبوع .

أى : وثبت عليهم القول الذى قاله - سبحانه - لإبليس ، وتحقق مقتضاه وهو قوله - تعالى - : « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين »[3] .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٩
(٢) سورة الزخرف . الآيتان ٣٦ ، ٣٧
(٣) سورة « ص » آية ٨٥

وقوله : « فى أمم » فى محل نصب على الحال من الضمير فى «عليهم» أى : وثبت عليهم العذاب . حالة كونهم داخلين فى جملة أمم كافرة جاحدة ، قد مضت من قبلهم ، وهذه الأمم منها ما هو من الجن ، ومنها ماهو من الإنس .

وجملة « إنهم كانوا خاسرين » تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لكفار قريش ولغيرهم من الأمم السابقة التى هلكت على الكفر

ثم حكى - سبحانه - ما تواصى به المشركون فيما بينهم فقال : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

وقوله : « والغوا فيه » من اللغو ، وهو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه يقال : لغا فلان فى كلامه يلغو ، إذا نطق بكلام ساقط لا خير فيه .

ويبدو أن هذا الكلام قد قاله الزعماء من كفار مكة لأتباعهم فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : قال أبو جهل - لأتباعه - : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه ، حتى لا يدرى ما يقول .

أى : وقال زعماء الكفر لأتباعهم : لاتسمعوا لهذا القرآن الذى يقرأه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ولا تنصتوا إليه ، بل ابتعدوا عن قارئيه « والغوا فيه » أى : وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو من القول ، كالتشويش على القارىء ، والتخليط عليه فى قراءته بالتصفيق وبرفع الصوت بالخرافات والهذيان . . .

« لعلكم تغلبون » أى : لعلكم بعملكم هذا تتغلبون على المسلمين ، وتجعلونهم ينصرفون عن قراءة القرآن .

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب ، هذا التأثير الذى حمل كثيراً منهم عند سماعه على الدخول فى الإسلام ونبذ الكفر والكافرين .

كما يدل على أنهم لعجزهم عن معارضته ، وعن الإتيان بسورة من مثله ،

لجأوا إلى تلك الأساليب السخيفة ، لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم.

وقد رد ـ سبحانه ـ على فعلهم هذا بما يناسبه من تهديد فقال: «فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديداً ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون» .

أى : فوالله لنجعلن الذين كفروا بهذا القرآن والذين شوشوا على قارئيه بالصياح والاستهزاء ، لنجعلنهم يذوقون العذاب الذى يهينهم ، ويحسون به إحساساً أليما . ولنجزينهم فى الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا .

قال الآلوسى : «قوله ـ تعالى ـ: «ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون» أى : جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ ، فأفعل للزيادة المطلقة وقيل : إنه ـ سبحانه ـ لايجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوف ، وصلة الأرحام . وإكرام الضيف . . . لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب كفرهم ...»(١) .

وقال الجمل فى حاشيته :« وفى هذا تعريض بمن لايكون عند سماعه لكلام الله خاضعا خاشعا متفكراً متدبراً . وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارىء ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد ، وتأمل فى هذا التغليظ والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد ، بالفوز العظيم (٢).

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : « ذلك جزاء أعداء الله . . . » يعود إلى ما تقدم من العذاب الشديد المعد لهؤلاء الكافرين ، وهو مبتدأ ، وجملة «جزاء أعداء الله » خبره .

وقوله «النار » بدل أو عطف بيان .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١١٩ .

(٢) حاشية الجمل ج ٤ ص ٤١ .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى نذيقه للكافرين جزاء عادل لأعداء الله ، وهذا العذاب الشديد يتمثل فى النار التى أعدها - سبحانه - لهم .

وجملة : « لهم فيها دار الخلد » مؤكدة لما قبلها . أى : لهم فى تلك النار الاقامة الدائمة الباقية المستمرة ، فهى بمثابة الدار المهيأة لسكناهم الدائم .

وقوله - سبحانه - : « جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » بيان لحكم الله العادل فيهم .

أى : نجازيهم جزاء أليما بسبب جحودهم لآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق رسلنا .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم وهم يتقلبون فى النار ، وحكى بعض أقوالهم التى يقولونها وهم فى ذلك العذاب الأليم فقال : « وقال الذين كفروا » على سبيل الحسرة والغضب على من أضلوهم ..

« ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس . . » أى : قالوا ياربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان من أفراد الجن والانس « نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » أى : أرنا إياهم لننتقم منهم ، بأن ندوسهما بأقدامنا إحتقاراً لهم ، وغضبا عليهم ، ليكونا بذلك فى أسفل مكان من النار ، وفى أحقره وأكثره سعيراً .

وهكذا تتحول الصداقة التى كانت بين الزعماء والأتباع فى الدنيا ، إلى عداوة تجعل كل فريق يحتقر صاحبه ، ويتمنى له أسوأ العذاب .

* * *

وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء مصير الكافرين ، فقال - تعالى - :

« إنَّ الذينَ قَالوا رَبُّنَا اللهُ ثم اسْتقامُوا ، تَتنزلُ عليهمُ الملائكةُ ، ألاَّ تخافُوا ولا تحزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالجَنَّة التى كُنتُم تُوعَدون (٣٠) نحنُ أَوْلياؤُكُم فى الحياةِ الدُّنيا وفى الآخرةِ ، ولكُمْ فيها ما تَشْتهى أَنفُسُكم ولكُمْ فيها ما تَدَّعونَ (٣١) نُزُلاً من غفورٍ رحيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قولاً مِمَّنْ دعا إلى اللهِ وعمِلَ صالحاً وقالَ إنَّنِي منَ المسلمينَ (٣٣) ولا تستَوِى الحَسنةُ ولا السيئةُ ادْفَعْ بالتى هِيَ أَحسنُ فإذَا الذى بَيْنكَ وَبَيْنهُ عداوةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ (٣٤) وما يُلقاها إلاَّ الذينَ صبرُوا ، وما يُلقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عظِيمٍ (٣٥) وإمَّا ينزَغنَّكَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ ، إنَّه هُوَ السميعُ العَليمُ (٣٦) » .

والمعنى : إن الذين قالوا بكل صدق وإخلاص ربنا الله ـ تعالى ـ وحده، لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته .

« ثم استقاموا » أى : ثم ثبتوا على هذا القول ، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة لله ـ تعالى ـ فى المنشط والمكره ، وفى العسر واليسر ، ومن اقتداء برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل أحواله

قال صاحب الكشاف : و « ثم » لتراخى الاستقامة عن الإقرار فى المرتبة وفضلها عليه . لأن الاستقامة لها الشأن كله . ونحوه قوله ـ تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » ، والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته . »(١)

ولقد بين لنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الاستقامة على أمر الله جماع الخيرات ، ففى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٩٨ .

يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : «قل آمنت بالله ثم استقم . . . »[١] .

وقوله - تعالى - : « وتتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا . . . » بيان للآثار الطيبة التى تترتب على هذا القول المؤيد بالثبات على طاعة الله - تعالى - .

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون فى حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم ، ويطمئن نفوسهم ، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم .

قال الآلوسى : «قوله - تعالى - : « تتنزل عليهم الملائكة » قال مجاهد : عند موتهم . وعن زيد بن أسلم : عند الموت ، وعند القبر ، وعند البعث ، وقيل : معنى « تتنزل عليهم » : يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية ما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغريهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح . . »[٢] .

والخوف : غم يلحق النفس لتوقع مكروه فى المستقبل .

والحزن : غم يلحقها لفوات نفع فى الماضى .

أى : إن الذين قالوا ربنا الله باعتقاد جازم ، ثم استقاموا على طاعته فى جميع الأحوال ، تتنزل عليهم من ربهم الملائكة ، لتقول لهم فى ساعة احتضارهم وعند مفارقتهم الدنيا ، وفى كل حال من أحوالهم : لا تخافوا - أيها المؤمنون الصادقون - مما أنتم قادمون عليهم فى المستقبل ، ولا تحزنوا على ما فارقتموه من أموال أو أولاد .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٦٥
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٢١

« وأبشروا » عما قريب ، بالجنة التى كنتم توعدون بها فى الدنيا .

ثم يقولون لهم - أيضا - على سبيل الزيادة فى المسرة : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

أى : نحن نصراؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة فى الحياة الدنيا التى توشكون على مفارقتها ، وفى الآخرة التى هى الدار الباقية ، سنتلقاكم فيها بالتكريم والترحاب .

« ولكم فيها » أى : فى الدار الآخرة ، ما تشتهى أنفسكم ، من أنواع الطيبات التى أعدها لكم خالقكم فى جناته .

« ولكم فيها ما تدعون » أى : ما تتمنوه وتطلبونه ، فقوله « تدعون » افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

قوله - تعالى - : « نزلا من غفور رحيم » حال من قوله : « ما تدعون » ، وأصل النزل : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من مأكل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته .

أى : بلكم فى الدار الآخرة جميع ما تطلبونه وماتدعونه ، حال كون هذا المعطى لكم رزقا وضيافة مهيأة لكم من ربك الواسع المغفرة والرحمة .

ثم سمت السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق بحكمة وإخلاص فقال - تعالى - : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

أى : لا أحد أحسن قولا ، وأعظم منزلة ، ممن دعا غيره إلى طاعة الله - تعالى - وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به ...

ولم يكتف بهذه الدعوة لغيره ، بل أتبع ذلك بالعمل الصالح الذى يجعل المدعوين يزدادون استجابة له .

« وقال » بعد كل ذلك على سبيل السرور والابتهاج بالتحدث بنعمة الله « إننى من المسلمين » .

أى : من الذين أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأخلصوا له القول والعمل.

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : أى : وهو فى نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه . . وهذه الآية عامة فى كل من دعا إلى خير ، وهو فى نفسه مهتد . .

وقيل المراد بها المؤذنون الصلحاء . . . والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم . . . »[1] .

ثم أرشد - سبحانه - إلى ما ينمى روح المحبة والمودة . . . بين الداعى والمدعوين بصفة خاصة ، وبين المسلم وغيره بصفة عامة ، فقال : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . . . » .

أى : ولا تستوى الخصلة الحسنة ولا الخصلة السيئة ، لا فى ذواتهما ولا فى الآثار التى تترتب عليهما ، إذ الخصلة الحسنة جميلة فى ذاتها ، وعظيمة فى الآثار الطيبة التى تنتج عنها ، أما الخصلة السيئة فهى قبيحة فى ذاتها وفى نتائجها.

وقوله - تعالى - : « ادفع بالتى هى أحسن » إرشاد منه - تعالى - إلى ما يجب أن يتحلى به عباده المؤمنون .

أى : مادامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة ، فعليك - أيها المسلم - أن تدفع السيئة إذا جاءتك من المسىء ، بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، بأن تقابل ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، وقطعه بالصلة ، وفظاظته بالسماحة .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٦٨ .

وقوله - سبحانه - : « فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » بيان للآثار الجميلة التى تترتب على دفع السيئة بالحسنة .

والولى : هو الصديق المحب الشفيق عليك ، من الولى بمعنى القرب .

والحميم فى الأصل : يطلق فى الأصل على الماء الحار . والمراد به هنا : الصديق الصدوق معك .

أى : أنت إذا دفعت السيئة بالحسنة ، صار عدوك الذى أساء إليك ، كأنه قريب منك ، لأن من شأن النفوس الكريمة أنها تحب من أحسن إليها ، ومن عفا عنها ، ومن قابل شرها بالخير ، ومنحها بالعطاء .

ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس ... عقب - سبحانه - على هذه التوجيهات السامية بقوله : « وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

والضمير فى « يلقاها » يعود إلى تلك الخصال الكريمة السابقة ، التى على رأسها الدفع بالتى هى أحسن .

أى : وما يستطيع القيام بتلك الأخلاق العظيمة التى على رأسها الدعوة إلى الله ومقابلة السيئة بالحسنة . . . إلا الذين صبروا على المكاره وعلى الأذى .

وما يستطيعها - أيضا - إلا صاحب الحظ الوافر ، والنصيب الكبير ، من توفيق الله - تعالى - له إلى مكارم الأخلاق .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد رسمت للمسلم أحكم الطرق ، وأفضل الوسائل ، التى ترفع درجته عن خالقه - تعالى - .

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى ما يبعدهم عن كيد الشيطان ، فقال : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم » .

والنزغ والنخس والغرز بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا فى الجلد .

والمراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيده للانسان ،

والمعنى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرك الله - تعالى - به . . فاستعذ بالله ، أى فالتجىء إلى حماه واستجر به من كيد الشيطان « إنه » - سبحانه - هو السميع لدعائك ، العليم بكل أحوالك ، القادر على دفع كيد الشيطان عنك .

فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذى يحميه من وسوسة الشيطان وكيده ، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع لكل شىء ، العليم بكل شىء القادر على كل شىء .

● ● ●

وبعد هذه البشارات الكريمة ، والتوجيهات الحكيمة للمؤمنين . . . . ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى -

« ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمس والقمرُ ، لا تَسجدُوا للشمسِ ولا للقمر ، واسجُدوا لله الذى خلقَهُن إنْ كنتُم إياهُ تعبُدونَ (٣٧) فإنِ استكبَرُوا الذين عنــــدَ ربِّكَ يُسبِّحونَ لهُ بالَّليلِ والنَّهارِ وهُمْ لا يسأمُونَ (٣٨) ومِنْ آياتِه أنَّكَ تَرَى الأرضَ خاشِعةً فإذَا أنزَلْنــا عليها الماءَ اهتزَّتْ وربَتْ ، إنَّ الذى أحياهَا لَمحى الموتى إنَّه عَلَى كلِّ شىءٍ قديرٌ (٣٩) » .

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - : « ومن آياته . . . » العلامات الدالة دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

أى : ومن آياته على وحدانيته وقدرته - تعــالى - وعلى وجوب

إخلاص العبادة له ، وجود الليل والنهار والشمس والقمر بتلك الطريقة البديعة ، حيث أن الجميع يسير بنظام محكم ، ويؤدى وظيفته أداء دقيقاً . كما قال - تعالى - : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وقوله - تعالى - : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن . . » نهى عن السجود لغيره - تعالى - ، وأمر بالسجود له وحده .

أى : لا تسجدوا - أيها الناس - للشمس ولا للقمر ، لأنهما - كغيرهما - من جملة مخلوقات الله - تعالى - ، واجعلوا طاعتكم وعبادتكم لله الذى خلق كل شىء فى هذا الكون ، إن كنتم حقا تريدون أن تكون عبادتكم مقبولة عنده - عز وجل -

فالآية الكريمة تقيم الأدلة على وجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل - وتنهى عن عبادة غيره - تعالى - .

قال الجمل : هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار ، للإيذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما فى المخلوقية فى سلك الأعراض التى لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر فى نظم الكل فى سلك آياته .

وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث - مع أن فيها ثلاثة مذكرة، والعادة تغليب المذكر على المؤنث - لأنه لما قال : ومن آياته ، فنظم الأربعة فى سلك الآيات ، صار كل واحد منها آية فعبر عنها بضمير الإناث فى قوله « خلقهن » (١) .

ثم بين - سبحانه - أن استكبار الجاهلين عن عبادة الله - تعالى - وحده ، لن ينقص من ملكه شيئا فقال : « فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »

(١) حاشية الجمل ج٤ ص٤٤

أى : فإن تكبر هؤلاء الكافرون عن إخلاص العبادة لله - تعالى - فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - فإن الذين عند ربك من الملائكة . ينزهونه - تعالى - ويعبدونه عبادة دائمة بالليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يملون ، لاستلذاذهم لتلك العبادة والطاعة ، وخوفهم من مخالفة أمره - عز وجل -

فالآية الكريمة تهون من شأن هؤلاء الكافرين ، وتبين أنه - تعالى - فى غنى عنهم وعن عبادتهم لأن عنده من مخلوقاته الكرام من يعبده بالليل والنهار بدون سأم أو كلل .

والمراد بالعندية فى قوله - تعالى - « عند ربك » عندية المكانة والتشريف لا عندية المكان .

وقوله « فالذين عند ربك » تعليل الجواب الشرط المقدر ، أى : فإن إستكبروا فدعهم وشأنهم فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون » .

ثم بين - سبحانه - آية أخرى من آياته الدالة على وجوب إخلاص العبادة له فقال : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . . . » .

و « خاشعة » ، أى : يابسة جدبة ، من خشعت الأرض، إذا أجدبت لعدم نزول المطر عليها وقوله : « إهتزت » ، أى : تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها و « ربت » ، أى : إنتفخت وعلت ، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض ، إرتفعت له ، ثم تشققت عنه. يقال : ربا الشىء إذا زاد وعلا وإرتفع ، ومنه الربوة للمكان المرتفع من الأرض .

أى : ومن آياته - تعالى - الدالة على وجوب العبادة له وحده، أنك - أيها

العاقل - ترى الأرض يابسة جامدة ، فإذا أنزلنا عليها بقدرتنا المطر، تحركت بالنبات ، وارتفعت بسببه ، ثم تصدعت عنه .

وعبر - سبحانه - هنا بقوله وخاشعة، لأن الحديث عن وجوب السجود لله - تعالى - وحده ، والحديث عن السجود والطاعة يناسبه الخشوع .

وفى سورة الحج قال - سبحانه - « وترى الأرض هامدة . . . » لأن الحديث هناك كان عن البعث ، وعن إمكانيته ، فناسب أن يعبر بالهمود الذى يدل على فقدان الحياة .

قال - تعالى - « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب . . . »[1] .

وقوله - تعالى - : « إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير» بيان لمظاهر قدرته - عز وجل - .

أى : إن الذى أحياها بنزول المطر عليها ، وبخروج النبات منها ، لقادر على أن يحيى الموتى عن طريق البعث والنشور، إنه - سبحانه - على كل شىء قدير .

* * *

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ، جاءت الآيات بعد ذلك لتهديد الذين يلحدون فى آياته - تعالى - ولتمدح القرآن الكريم ، ولتسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من أعدائه ، ولتبين أن من عمل صالحا فثمار عمله لنفسه ، ومن عمل سيئا فعلى نفسه وحده يجنى . . . قال - تعالى - :

---

(١) سورة الحج الآية ٥

« إنَّ الذينَ يُلحدُونَ فى آياتِنا لايخفَوْنَ علينا ، أَفَمَنْ يلقى فى النَّار خيرٌ أَمْ مَنْ يَأْتى آمِنًا يومَ القيامةِ اعملوا ما شئتُم إنَّهُ بما تعمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إنَّ الذينَ كفرُوا بالذِّكرِ لمَّا جاءهُم وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ (٤١) لايأتيهِ الباطلُ مِنْ بيْنِ يديهِ وَلامِنْ خلفهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ (٤٢) ما يقالُ لكَ إلاَّ ما قد قِيلَ للرُّسُلِ من قبلِكَ ، إنَّ ربَّكَ لَذُو مغفرةٍ وَذُو عقابٍ أليمٍ (٤٣) ولو جعلناهُ قرآنًا أعجميًّا لقالوا لوْلاَ فُصِّلَتْ آياتُه أأعجمِىٌّ وعربىٌّ ، قُلْ هُو للذينَ آمنُوا هُدًى وشفاءٌ ، والذينَ لايؤمِنُونَ فى آذانِهم وقرٌ وهُو عَليهم عمًى ، أولئكَ ينادَوْنَ من مكانٍ بعيدٍ (٤٤) ولقدْ آتينَا مُوسَى الكِتابَ فاختُلِفَ فيه ، ولولاَ كلمةٌ سبقَتْ من ربِّكَ لقُضِىَ بينَهم ، وإنَّهُم لفى شكٍّ منهُ مريبٌ (٤٥) من عمِلَ صالحاً فلنفسهِ ، ومن أساء فعليها ، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيدِ (٤٥)».

وقوله ـ تعالى ـ « يلحدون » من الالحاد وهو الميل عن الاستقامة ، والعدول عن الحق .

يقال ألحد فلان فى كلامه إذا مال عن الصواب ، ومنه اللحد فى القبر ، لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى .

والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق فى شأن آياتنا بأن يأولوها تأويلا فاسدا ، أو يقابلوها باللغو فيها وعدم التدبر لما اشتملت عليه من توجيهات حكيمة ...

هؤلاء الذين يفعلون ذلك : « لايخفون عنا » أى : ليسوا بغائبين عن علمنا ، بل هم تحت بصرنا وقدرتنا ، وسنجازيهم بما يستحقون من عقاب مهما ألحدوا ومالوا عن الحق والصواب .

فالجملة تهديد لهم على تحريفهم الباطل لآيات الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - البون الشاسع بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين ، فقال : «أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة»؟

والغرض من هذا الاستفهام بيان أن الذين يلحدون فى آيات الله سيكون مصيرهم الإلقاء فى النار ، وأن الذين استجابوا للحق وساروا على طريقه وهم المؤمنون ، سيأتون آمنين من الفزع يوم القيامة .

قال الآلوسى : «وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء فى النار بدخول الجنة ، لكنه عدل عنه إلى مافى النظم الجليل ، إعتناء بشأن المؤمنين ، لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ، ولذا عبر عن الأول بالإلقاء الدال على القهر والقسر ، وعبر عن الثانى بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا ، مع الأمن ودخول الجنة ... »(1) .

وقوله - تعالى - : «اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير» تهديد آخر لهم على الجادم .

أى : اعملوا أيها الملحدون ما شئتم من أعمال قبيحة ، فإنها لاتخفى على خالقكم - عز وجل - ، لأنه بصير بكم ، ومطلع على أفعالكم ، وسيجازيكم عليها الجزاء العادل الذى تستحقونه .

فالمقصود من الأمر فى قوله - تعالى - «اعملوا» التهديد والوعيد .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ماسبق تهديدا ثالثا فقال : «إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . .

وخبر إن هنا محذوف للعلم به مما سبق ، أى : إن الذين كفروا بالقرآن الكريم حين جاءهم على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، خاسرون أو هالكون أو معذبون عذابا شديدا . «وإنه» أى : هذا القرآن الكريم

(1) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ١٢٧ .

فى الحق الذى جاءهم به - صلى الله عليه وسلم - ، لعل هذا التدبر يوصلهم إلى الهداية والرشاد .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد إقتضت أن يطلع الناس فى كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته . وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغه عنه ، فقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . » .

والمراد بالآيات فى قوله « آياتنا » : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم -

والآفاق : جمع أفق - كأعناق جمع عنق - وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق - كضرب يضرب - إذا سار فى آفاق الأرض وجهاتها المتعددة.

والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا فى أقطار السموات والأرض ، من شمس وقمر ونجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع وثمار ، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار .

سنطلعهم على مظاهر قدرتنا فى هذه الأشياء الخارجية التى يرونها بأعينهم، كما سنطلعهم على آثار قدرتنا فى أنفسهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى، وعقل، وروح . وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر، ونعمة ونقمة.

ولقد صدق الله - تعالى - وعده ، ففى كل يوم بل فى كل ساعة، يطلع الناس على أسرار جديدة فى هذا الكون الهائل ، وفى أنفسهم . . ، وكلها تدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى صحة دين الإسلام الذى جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام -.

وقوله - تعالى - : « أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » استئناف مسوق لتوبيخ الكافرين على عنادهم مع ظهور الأدلة على أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه هو الحق المبين .

ثم علل ـ سبحانه ـ هذه التسلية وهذا التوجيه بقوله «إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم».

أي : ما يقال لك إلا مثل ما قيل لإخوانك من قبلك ، وما دام الأمر كذلك . فاصبر كما صبروا ، إن ربك الذي تولاك بتربيته ورعايته ، لذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين وذو عقاب أليم للكفار المكذبين .

ثم رد ـ سبحانه ـ على بعض الشبهات التي أثاروها حول القرآن الكريم ردا يخرس ألسنتهم فقال : «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي . . .».

والأعجمي : يطلق على الكلام الذي لا يفهمه العربي . كما يطلق على من لا يحسن النطق بالعربية . وقوله : أأعجمي وعربي ، خبر لمبتدأ محذوف .

أي : ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم كما قالوا : هلا أنزل هذا القرآن بلغة العجم

لو فعلنا ذلك ـ كما أرادوا ـ لقالوا مرة أخرى على سبيل التعجب : هلا فصلت ووضحت آيات هذا الكتاب بلغة نفهمها؟ ثم لأضافوا إلى التعجب والإنكار ، تعجبا آخر فقالوا : أقرآن أعجمي ورسول عربي؟

ومقصدهم من هذه الشبهة الداحضة ، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة العجم .

فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ولو نزل بلسان أعجمي ، لاعترضوا وقالوا هلا نزل بلسان عربي نفهمه ، ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا : أقرآن أعجمي ورسول عربي

وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعنت والسفاهة .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد عليهم بالرد الذي يكبتهم فقال : «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . . . .»

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : هذا القرآن هو للذين آمنوا إيمانا حقا، هداية إلى الصراط المستقيم، وشفاء لما فى الصدور من أسقام.

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : « ونتزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ... » .

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذا الكتاب فقال : « والذين لايؤمنون » أى : بهذا الكتاب ، وبمن نزل عليه هذا الكتاب .

« فى آذانهم وقر » أى : فى آذانهم صمم عن سماع ماينفعهم .

« وهو عليهم عمى » أى : وهذا القرآن عميت قلوبهم عن تدبره وعن الإهتداء به .

وقوله - تعالى - : « أولئك ينادون من مكان بعيد » ذم شنيع لهم على إعراضهم عن هذا القرآن الذى ما أنزله الله - تعالى - إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

أى: أولئك الكافرون الذين لم ينتفعوا بالقرآن، مثلهم فى صمم وانطماس بصائرهم ، كمثل من يناديه مناد من مكان بعيد، فهو لايسمع منه شيئا ، ولا يعقل عنه شيئا ، لوجود المسافة الشاسعة بين المنادى ، وبين من وقع عليه النداء .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - : « أولئك ينادون من مكان بعيد » يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال الذى لايفهم : أنت تنادى من بعيد . أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه، فهو لايسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك : « ينادون » يوم القيامة بأقبح أسمائهم « من مكان بعيد » فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم ... »(١).

(١) تفسير القرطبى ج ١٥ ص ٣٧١ .

ومن يتدبر هذه الآية الكريمة يرى مصداقها فى كل زمان ومكان . فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وسماعا وتطبيقا ... وهناك من يستمعون إلى هذا القرآن ، فلا يزيدهم ذلك إلا صمما على صممهم ، ورجسا إلى رجسهم ، وعمى على عماهم .

ثم بين - سبحانه - زيادة فى التسلية لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، أن إختلاف الأمم فى شأن ما جاء به الرسل شىء قديم فقال - تعالى - : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ... » .

أى : ولقد آتينا نبينا موسى - عليه السلام - كتابه التوراة ليكون هداية ونورا لقومه ، فاختلفوا فى شأن هذا الكتاب ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه .

« ولولا كلمة سبقت من ربك » - أيها الرسول الكريم - وهى ألا يعذب المكذبين من أمتك فى الدنيا عذابا يستأصلهم ويهلكهم .

لولا ذلك « لقضى بينهم » أى : لأهلكهم كما أهلك السابقين من قبلهم .

« وإنهم » أى : كفار قومك « لفى شك منه مريب » أى : لفى شك من هذا القرآن وريبة من أمره ، جعلهم يعيشون فى قلق وإضطراب .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ... » .

أى : من عمل عملا صالحا بأن آمن بالله ، وصدق بما جاء به رسله ، فثمرة عمله الصالح لنفسه .

« ومن أساء فعليها » أى : ومن عمل عملا سيئا ، فضرر هذا العمل واقع عليها وحدها « وما ربك بظلام للعبيد » أى : وليس ربك - أيها الرسول الكريم - بذى ظلم لعباده الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته .

فقوله « ظلام » صيغة نسب - كتمار وخباز - وليست صيغة مبالغة .

قال بعض العلماء ما ملخصه: «وفى هذه الآية وأمثالها سؤال معروف، وهو أن لفظه «ظلام» فيها صيغة مبالغة. ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم نفى أصل الفعل. فقولك - مثلا -: زيد ليس بقتال للرجال لا ينفى إلا مبالغته فى قتلهم، فلا ينافى أنه ربما قتل بعض الرجال.

ومعلوم أن المراد بنفى المبالغة - وهو لفظ ظلام - فى هذه الآية وأمثالها المراد به نفى الظلم من أصله.

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها: أن نفى صيغة المبالغة هنا، قد جاء فى آيات كثيرة مادل على أن المراد به نفى الظلم من أصله، ومن ذلك قوله - تعالى -: «ولا يظلم ربك أحدا»، وقوله - تعالى -: «إن الله لا يظلم الناس شيئا ...»

ومنها: أن المراد بالنفى فى الآية، نفى نسبة الظلم إليه. لأن صيغة فعال تستعمل مرادا بها النسبة، فتغنى عن ياء النسب... كقولهم «لبان» أى: ذو لبن، ونبال أى صاحب لبن ...»[1].

ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة: أن علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده، وأن الإنسان لا يسأم من طلب المزيد من الخير فإذا مسه الشر يئس وقنط. وأن حكمته - تعالى - قد إقتضت أن يقيم للناس الأدلة على قدرته ووحدانيته من أنفسهم وعن طريق هذا الكون الذى يعيشون فيه فقال - تعالى -:

«إليه[2] يُرَدُّ علمُ السَّاعةِ وما تَخرجُ من ثمراتٍ مِنْ أكمامها، وما تحمِلُ من أنثى ولا تضعُ إلاَّ بِعلمِهِ ويومَ يناديهم أينَ شُركائى قالوا

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ٧ ص ١٤٠ للشيخ الشنقيطى.

(٢) أول الجزء الخامس والعشرون.

آذناكَ ما منَّا من شَهيد (٤٧) وضلّ عنهم ما كانوا يدعُونَ مِنْ قبلُ ، وظنُّوا ما لهم من مَحيص (٤٨) لا يسأم الإنسانُ من دُعاء الخَيرِ ، وإنْ مسّهُ الشرُّ فيئوسٌ قَنوطٌ (٤٩) ولئنْ أَذقناهُ رحمةً منّا مِنْ بعدِ ضراء مسّتْهُ ليقولَنّ هذا لى ، وما أظنُّ السّاعةَ قائمةً ، ولئنْ رُجعتُ إلى ربِّى إنّ لى عندَه للحُسنَى ، فَلَنُنَبِّئَنّ الذينَ كفرُوا بما عملُوا ولَنذيقَنّهم من عذابٍ غليظٍ (٥٠) وإذا أنعمنا علَى الإنسانِ أعرضَ ونأى بجانبهِ ، وإذا مسّه الشرُّ فذُو دعاءٍ عريضٍ (٥١) قلْ أرأيتُم إنْ كانَ مِنْ عندِ اللهِ ثم كفرتُم بهِ ، مَن أضلُّ ممّنْ هُوَ فى شقاقٍ بعيدٍ (٥٢) سَنريهم آياتِنَا فى الآفاقِ وفى أنفُسِهمْ حتى يتبينَ لهم أنّهُ الحقُّ ، أوَلم يكفِ بربّكَ أنّهُ علَى كلِّ شيْءٍ شهيدٌ (٥٣) ألاَ إنّهم فى مِرْيةٍ مِنْ لقاءِ ربّهِم ، ألاَ إنّهُ بكلِّ شيءٍ مُحيط .

وقوله - تعالى - : « إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ... » بيان لانفراد الخالق - عز وجل - بوقت قيام الساعة ، وبإحاطة علمه - تعالى - بكل شيء ، وإرشاد المؤمنين إلى ما يقولونه إذا ما سئلوا عن ذلك .

والأكمام : جمع كِم - بكسر الكاف - وهو الوعاء الذى تكون الثمرة بداخله .

أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجع علم قيام الساعة ، وما تخرج ثمرات من أوعيتها الكائنة بداخلها ، وما تحمل أنثى حملا ولا تضعه إلا بعلمه وإرادته - عز وجل - . و « من » فى قوله « من ثمرات » ، وفى قوله « من أنثى » مزيدة لتأكيد الاستغراق . وفى قوله « من أكمامها » ابتدائية .

قال الجمل : « فإن قلت : قد يقول الرجل الصالح قولا فيصيب فيه ، وكذلك الكهان والمنجمون ؟

قلت : أما قول الرجل الصالح فهو من إلهام الله ، فكان من علمه - تعالى - الذى يرد إليه ، وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شىء مما يقولونه البتة ، وإنما غايته إدعاء ظن ضعيف قد لا يصيب ، وعلم الله - تعالى - هو العلم اليقين المقطوع به الذى لا يشركه فيه أحد[1] .

ثم بين - سبحانه - تبرأ المشركين من آلهتهم يوم القيامة فقال : « ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد ، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا مالهم من محيص » .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مقدر ، ومعنى « آذناك » أعلمناك وأخبرناك ، آذن فلان غيره يؤذنه ، إذا أعلمه بما يريد إعلامه به .

والنداء والسؤال إنما لتوبيخهم والتهكم بهم فى هذا الموقف العظيم .

والظن هنا بمعنى اليقين .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم يناد الله - تعالى - المشركين فيقول لهم يوم القيامة : أين شركائى الذين كنتم تعبدونهم من دونى ليقربوكم إلى أو ليشفعوا لكم عندى ؟

« قالوا » على سبيل التحسر والتذلل : يا ربنا لقد « آذناك » أى : لقد أعلمناك بأنه ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا ، فقد انكشفت عنا الحجب ، واعترفنا بأنك أنت الواحد القهار .

« وضل عنهم » أى : وغاب عن هؤلاء المشركين « ما كانوا يدعون من قبل » أى : ما كانوا يعبدونه فى الدنيا من أصنام وغيرها .

« وظنوا مالهم من محيص » أى : وأيقنوا بأنه لا مهرب ولا منجى لهم من العذاب .

يقال : حاص يحيص حيصا وحيصا إذا هرب .

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٨ .

وقوله - تعالى - : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط » بيان لما جبل عليه الإنسان من حب المال وغيره من ألوان النعم . ومن ضيقه بما يخالف ذلك .

ويبدو أن المراد بالانسان فى هذه الآية وأمثالها جنسه الغالب ، وإلا فهناك مؤمنون صادقون ، إذا رزقهم الله النعم شكروا ، وإذا ابتلاهم بالمحن صبروا .

والمراد بالخير ما يشمل المال والصحة والجاه والسلطان وما إلى ذلك مما يشتهى .

والسأم : الملل ، يقال سئم فلان هذا الشىء ، إذا مله وضاق به وانصرف عنه .

واليأس : أن ينقطع قلب الانسان عن رجاء الحصول على الشىء ، يقال: يئس فلان من كذا - من باب فهم - ، إذا فقد الرجاء فى الظفر به .

والقنوط : أن يظهر أثر ذلك اليأس على وجهه وهيئته ، بأن يبدو منكسراً متضائلا مهموما .

فكأن اليأس شىء داخل عن أعمال القلب بينما القنوط من الآثار الخارجية التى تظهر علاماتها على الإنسان .

أى : لا يسأم الانسان ولا يمل ولا يهدأ من طلب الخير والسعة فى النعم. « وإن مسه الشر » من عسر أو مرض « فيئوس قنوط » أى: فهو كثير اليأس والقنوط من رحمة الله - تعالى - وفضله ، بحيث تنكسر نفسه ، ويظهر ذلك على هيئته .

وعبر - سبحانه - بيئوس وقنوط وهما من صيغ المبالغة ، للاشارة إلى شدة حزنه وجزعه عند ما يعتريه الشر .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من حالات هذا الانسان فقال: « ولئن أذقناه

رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ... » .

أى : ولئن أعطينا هذا الإنسان الجحود نعمة منا تتعلق بالمال أو بالصحة أو بغيرهما، من بعد أن كان فقيرا أو مريضا ... ليقولن على سبيل الغرور والبطر : هذا الذى أعطيته شىء استحقه، لأنه جاءنى بسبب جهدى وعلمى.

ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وما أظن الساعة قائمة » أى : وما أعتقد أن هناك بعثا أو حسابا أو جزاء .

« ولئن رجعت إلى ربى » على سبيل الفرض والتقدير « إن لى عنده للحسنى » أى : إن لى عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعم فى الدنيا .

وقوله ـ تعالى ـ : فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، بيان للعاقبة السيئة التى يكون عليها هذا الإنسان الجاحد.

أى : فلنعلمن هؤلاء الكافرين بأعمالهم السيئة، ولنريهم عكس ما اعتقدوه بأن ننزل بهم الذل والهوان بدل الكرامة والحسنى التى أيقنوا أنهم سيحصلون عليها ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، لا يمكنهم الفكاك منه أو التفصى عنه لشدته وإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما ذكره من حالات الإنسان ، فقال : « وإذا أنعمنا على الإنسان » بنعمة من نعمنا التى توجب عليه شكرنا وطاعتنا .

« أعرض ونأى بجانبه » أى : أعرض عن شكرنا وطاعتنا، وتكبر وتفاخر على غيره وادعى أن هذه النعمة من كسبه واجتهاده .

وقوله « ونأى بجانبه » كناية عن الانحراف والتكبر والصلف والبطر .

والنأى البعد . يقال : نأى فلان عن مكان كذا ، إذا تباعد عنه .

وقوله - تعالى - « وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » بيان لحالة هذا الإنسان فى حالة الشدة والضر .

أي : هكذا حالة هذا الإنسان الجاحد ، فى حالة إعطائنا النعمة له يتكبر ويغتر ويجحد .

وفى حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع .
وفى معنى هذه الآيات الكريمة ، جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه إستغنى » .

وقوله - تعالى - : « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا » .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جحودهم وجهالاتهم فقال : قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به . . . .

أى قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله - تعالى - وحده ، ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الايمان به .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « من أضل ممن هو فى شقاق بعيد » للنفى والانكار أى : لا أحد أكثر ضلالا منكم - أيها الكافرون - بسبب معاداتكم للحق . وإبتعادكم عنه ، ونفوركم منه نفورا شديداً .

والشقاق والمشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة . من الشق - أى : الجانب - . فكأن كل واحد من المتعاديين أو المتخالفين : صار فى شق غير شق صاحبه .

ووصف - سبحانه - شقاقهم بالبعد ، للإشارة بأنهم قد بلغوا فى هذا الضلال ، مبلغاً كبيراً ، وشوطا بعيداً .

فالآية الكريمة تجهيل لهؤلاء الكافرين ، وحث لهم على التأمل والتدبر

« لكتاب عزيز » أي : لكتاب منيع معصوم بعصمة الله - تعالى - له من كل تحريف أو تبديل .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » أي : لا يستطيع الباطل أن يتطرق إليه من أي جهة من الجهات ، لا من جهة لفظه ولا من جهة معناه لأن الله - تعالى - تكفل بحفظه وصيانته ، كما قال - تعالى - « إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون » .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوله المبطلون ؟

قلت : بلى ، ولكن الله قد تكفل بحمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم ، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا .. »(1) .

وقوله « تنزيل من حكيم حميد » أي : هذا الكتاب منزل من لدن الله الحكيم في أقواله وأفعاله ، المحمود على ما أسدى لعباده من نعم لا تحصى .

ثم سلى - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه فقال : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » :

أي : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من الأقوال الباطلة التي قالها المشركون في حقك ، فإن ما قالوه في شأنك قد قاله السابقون عليهم في حق رسلهم .

فالآية الكريمة من أبلغ الآيات في تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنها كأنها تقول له : إن ما أصابك من أذى قد أصاب إخوانك ، فاصبر كما صبروا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون » .

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٠٢ .

والهمــــزة للإنـكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والباء مزيدة للتأكيد ، وقوله « ربك » فاعل كفى .

والمعنى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا الدين ، أن ربك - أيها الرسول الكريم - شهيد على كل شيء، وعلى أنك صادق فيما تبلغه عنه . . بلى . إن فى شهادة ربك وعلمه بكل شيء ما يغنيك عن كل شيء سواه .

ثم بين - سبحانه - فى ختام السورة حقيقة أمر أولئك الكافرين فقال : « ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط » .

أى : ألا إن هؤلاء المشركين فى مرية وشك وريبة من لقاء ربهم يوم القيامة ، لإنكارهم البعث والحساب والجزاء .

ألا إنه - سبحانه - بكل شيء محيط إحاطة تامة لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وسيجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولن يستطيعوا النجاة من ذلك.

وبعد : فهذا تفسير لسورة « فصلت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر
صباح الخميس ٢٥ من المحرم ١٤٠٦ هـ
١٠ / ١٠ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالي لتفسير «سورة فصلت»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	٤٢١
١	حم ...	٤٢٥
٨	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...	٤٣١
١٣	فإن أعرضوا فقل أنذرتـكم صاعقة ...	٤٣٨
١٩	ويوم يحشر أعداء الله ...	٤٤٦
٢٥	وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ...	٤٥١
٣٠	إن الذين قالوا ربنا الله ...	٤٥٦
٣٧	ومن آياته الليل والنهار ...	٤٦١
٤٠	إن الذين يلحدون ...	٤٦٥
٤٧	إليه يرد علم الساعة ...	٤٧١